



جمع و اعداد
الأستاذ بن عودة حيرش

ذكریات و بصمات

(نبذة عن مسيرة الأستاذ الأزرق بن علو)

ذكريات وبصمات



سلسلة عالم الثقافة 13

ذكريات و بصمات

نبذة عن مسيرة

الاستاذ الازرق بن علو و مؤلفاته

جمع و اعداد

بن عوده حيرش

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الإهداء



إلى كل من قال كلمة، كتب مقالاً، أو دافع بأية وسيلة
أخرى عن حق هذه الأرض الطيبة فى الحياة، البيئة هي كل
ما يحيط بالإنسان، الهواء الذى يتنفسه، الماء الذى يشربه،
الأرض التى يعيش فوقها وكل ما يحيط به من مخلوقات
ونبات... البيئة هي الجداول والأنهار، والبحيرات والبحار،
والسهول والغابات والصحارى، والسحاب... وكل ما يساعد
على الحياة فوق هذا الكوكب الجميل الفريد.

هذا الكوكب، وأرضه الطيبة، معرض لأخطار كبيرة
بسبب جشع كثير من البشر وفسادهم. هذه البيئة الطيبة
تعانى من أنواع من التلوث وأمراضه. إنها تستغيث... إنها
الملجأ الوحيد للإنسان، والحياة.

الفهرس

رقم الصفحة

الموضوع

القسم الأول

- 111 - تقديم
- 21 - المقدمة : موجز عن كتب المؤلف
- 21 - نبذة عن ذكريات المؤلف

القسم الثاني

(متقطعات من مؤلفاته)

- 102 - كتاب (كلمات تتعش الحياة)
- * السعادة *
- 116 - كتاب (الشعر والحياة)
- * المقدمة *
- 122 * الإنسان *
- 126 * الخير والشر *

- كتاب (حصاد الأيام)
 132 المقدمة *

- كتاب (الإنسان والقلق)
 144 المقدمة *

- كتاب (نقحات من الأدب العالمي)
 158 المقدمة *
 162 نبذة من كتاب (الأمير) (لواكياغلي) *
 165 ما هو (الأدب) (جون بول سارتر) *
 167 من أقواله *

- كتاب (الرحلة)
 170 حنبل *
 172 سنوحي *
 175 الأرض ... غبار النجوم *

- كتاب (منارات في رحاب الأدب العالمي)
 182 الحياة السعيدة *
 187 الأرملة والجندي *
 190 التسلية والترويح عن النفس *

رقم الصفحة	الموضوع
	- كتاب (قلائد الذهب في الحكمة والأدب)
196	* مقتطفات من سفر الحكمة (للنبي سليمان عليه السلام)

	- كتاب (أضواء على مسرح الحياة)
210	* المقدمة

	- كتاب (المختصر المفيد)
224	* نبذة عن الحضارة الإسلامية

	- كتاب (الحكم والمواعظ على السنة الحيوانات)
244	* الحكايات على السنة الحيوانات
248	* (غرض الكتاب) من كليله ودمنة)
252	* من حكايات الحكيم اليوناني أيسوب
255	* من حكايات الشاعر الفرنسي لافونتان

	- كتاب (بحوث ومقالات من فضاء السبعينات)
260	* السياسة المالية والضغط الديبلوماسي
264	* هيئة الأمم المتحدة وقضية السلم والتعاون
271	• المشاعر و الصحة
	• الولايات المتحدة والمجموعة
279	• الاقتصادية الأوروبية

X X X X X X X

— 9 —

تقديم

كانت لحظة من اللحظات التي ساقتها الأقدار وقادتها الأسباب و جاد بها الزمن حيث دعيت لحضور مائدة غداء في بيت الاخ سمير بن علو بمناسبة عودة والده الكريم قادمًا من تونس ، ولما وصلت البيت كان الاستقبال حارا و اللقاء حميميا . و اثناء تناولنا الغداء و تجادبنا اطراف الحديث وقفت على التجربة الثرية التي خاضها الاستاذ الازرق بن علو في حياته فعنت لى فكرة اجراء حوار مع حضرته انشره فيما بعد فى جريدة (البصائر) لسان حال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين لافادة القراء به .

و بما ان الوقت كان ضيقا و الارتباطات كثيرة اقترح الاستاذ ان ابعث اليه بمجموع الاسئلة التي ارغب فى الاجابة عنها عن طريق البريد الالكتروني و هو يتولى الاجابة عنها بعد عودته الى تونس ، ثم يرسلها الي لانشرها فى الجريدة كما سلف الذكر ، كما كنت اقترحت عليه ان يكون عنوان المحاوره (ذكريات لا منكرات) .

كانت هذه هى فكرة هذا الكتاب و ظروف نشاته . الا انى و الحق اقول ،فوجئت لما بعث لى الاستاذ بالجزء الاول من الذكريات و هو اجابات عن الاسئلة العشرين تقريبا التي كنت قد بعثت بها اليه بان المادة غزيرة و المعلومات ثرية و الحقائق لا تتسع لها اعمدة و لا صفحات اي جريدة من الجرائد ، بل يجب ان يفرد لها كتاب مستقل و هنا بدأت المرحلة الثانية من هذا المشروع و استحسنت الاستاذ من جهته الفكرة ، و بدأت التحضير لنشر هذا الكتاب الذى بين يدي القارئ .

لقد عشت مع الاستاذ الازرق بن علو من خلال مطالعتى لمسودة الكتاب التي بعثت بها الى كل مراحل حياته : فمن مرحلة الطفولة و البراءة فى تلك القرية الهادئة (وادي السلام)

Henry huc كما كان يسميها الفرنسيون الى مرحلة الانتقال الى مدينة غليزان تحت ضغط الظروف الصعبة ، و ربما انخرطت معه شعوريا فى مدرسة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بهذه المدينة الى غاية اختياره ليكون احد الموفدين الى معهد ابن باديس بقسنطينة .

اذا كان الحال هذا داخل الوطن فقد فرضت على هذه الذكريات و انا اطالعها كلمة كلمة
ان انتقل مع الاستاذ خارج الوطن من بلد الى اخر فمن مدينة اللانقية ، الى مدينة دمشق
بسوريا ، الى بلغراد ، الى العودة الى الجزائر بعد الاستقلال ، ثم المغادرة مجددا الى دار
السلام ببنزانيا ، ثم الولايات المتحدة الامريكية ، ثم الاستقرار بمنظمة الامم المتحدة للاغذية
و الزراعة بروما .

لقد جمعت هذه المذكرات بحق بين التاريخ و الجغرافيا ، و بين السياحة و السياسة
كما جمعت بين الوطن و الغربية و بين الثورة و الاستقلال ، الى ما تخلل ذلك مما سيقف
عليه القارئ بنفسه اثناء تجواله بين صفحات هذا الكتاب .

ما اجمل ان تذكر التجارب للاجيال ، و اجمل منها ان تنتقل من الرواية الشفهية الى
التقييد على الورق حتى يكون اكثر نفعاً و اطول عمراً ، و الاجمل من هذا و ذلك ان
يستكتب اصحاب التجارب او يكتب عنهم قبل ان يذهبوا و ياخذوا معهم كنوزهم الى غير
رجعة .

و ليعلم اصحاب الاقلام السيالة و الكتابات الجادة ان وطننا الجزائر بخاصة و الامم
العربية عامة حبلى بالقامات و الهامات من المفكرين و العلماء و رجال السياسة ، و من
صانعي الاحداث و من المربين و الدعاة و الحكماء و الذين يعملون لصالح امتهم فى الخفاء
فما عليكم الا ان تبحثوا لتبعثوا من جديد ، فمن جد وجد ، و من سعى وصل .

الاستاذ بن عوده حيرش

المقدمة



تضم سلسلة "عالم الثقافة" بين أحضانها موضوعات أدبية، وتاريخية، واجتماعية، وأخلاقية، وفلسفية، وعقائدية، وسياسية، وحكايات عالمية متنوعة يجد فيها القارئ العبرة والتسلية.

وفيما يلي عرض موجز لهذه الكتب:

- الكتاب الأول وعنوانه "كلمات تنعش الحياة" يعبر عنوانه بحق عن مضمونه. فهو يقدم للقارئ باقات من المقالات والمقتبسات والأقوال المأثورة والحكم والمواعظ والنصائح حول الحياة، والإنسان، والأخلاق الفاضلة، والأسرة، والمال، والحب، والنجاح، والأصدقاء، وغير ذلك من الكلمات الطيبة التي تساعد الإنسان على حسن التعامل مع نفسه ومع الناس من حوله.

- الكتاب الثاني من السلسلة وعنوانه "الشعر والحياة" يقدم مجموعات شعرية تتناول الحياة العملية والمعنوية والمشاكل الحياتية المرتبطة بالحياة اليومية مثل المال، والزواج، والبيئة، والقوة، والظلم، والعلاقات العائلية، وغير ذلك من مسرّات الحياة ومساوئها. ويؤكد مضمون هذا الكتاب أن الحياة تحتاج إلى الفن والأدب وكل ما يغذي الفكر والروح، كما تحتاج إلى العلوم التي تساعد على التطور المادي.

- الكتاب الثالث وعنوانه "حصاد الأيام" ويتحدث في مقدمته عن موضوع الخير والشر في نفس الإنسان، ويسجل شهادات قيمة من كلام الفلاسفة حول نزعات الإنسان نحو الفساد، وجنوحه إلى الظلم والأنانية؛ وكذلك عن سعيه وراء طيبات الحياة وعن طموحه الجامح.

ويضم هذا الكتاب بين صفحاته أخبار عدد من الأدباء والعظماء والفلاسفة، ويُقدم نبذة مفيدة عن شخصيات تاريخية؛ ويختتم بمجموعة هامة من الحكايات والموضوعات الهامة.

- الكتاب الرابع وعنوانه "الإنسان والقلق" تركز محتوياته على معالجة عدد من الانفعالات السلبية مثل القلق، والتوتر، والعدوانية وغيرها من الصراعات النفسية مثل الاكتئاب، والشعور بالخيبة، والشعور بالذنب، ويتناول المؤلف بالبحث مسببات هذه الحالات النفسية، ونتائجها، ويقدم عددًا من الاقتراحات عن معرفة النفس، وعن كيفية التكيف من أجل التغلب على حالات التوتر والمشاعر السلبية.

ويوجه الأستاذ الأزرق بن علو اهتمامه، في كتابه «الإنسان والقلق» إلى تحليل مفهوم «النجاح في الحياة» فيذكر أن مدلوله يختلف في الزمان والمكان، وحسب اختلاف ثقافة الناس ومعتقداتهم وعاداتهم والبيئة التي نشؤوا فيها. ويجري المؤلف تجربة ميدانية فيتصل بعدد من الأشخاص من مستويات وجنسيات مختلفة، ويطرح عليهم السؤال: «ما هو النجاح في الحياة، في نظرك؟» ويجد القارئ 18 جوابًا تبين اختلاف وجهات نظر الناس فيما نسميه «النجاح في الحياة».

- الكتاب الخامس من سلسلة «عالم الثقافة»، وعنوانه "نفحات من الأدب العالمي" يقدم ملخصاً عن نشأة المسرح في اليونان، ونبذة عن بعض المسرحيات؛ كما يعرض موجزاً عن بعض حكماء الصين والهند، ونماذج من كتاباتهم.

ويتناول المؤلف في هذا الكتاب حياة عدد كبير من مشاهير الأدباء والفلاسفة الرومان، والإنكليز، والفرنسيين وغيرهم، ويقدم لنا نماذج من كتاباتهم، وملخصات من حكاياتهم، نادراً ما توجد مجتمعة في كتاب آخر.

- الكتاب السادس وعنوانه "الرحلة"، يقدم المؤلف في مطلع هذا الكتاب نبذة عن عدد من الأساطير التي كان الإنسان يلجأ إليها في العهود الغابرة لتفسير بعض الظواهر الطبيعية الغامضة وقوى الخير والشر... ثم يقودنا الكاتب في جولة تاريخية، فيحدثنا بإيجاز عن الملك حمورابي وقوانينه، وعن أخناتون، ورمسيس الثاني، والاسكندر المقدوني، وغيره من عظماء التاريخ.

ثم يعرض علينا الأستاذ ابن علو ملخصات دقيقة بأسلوب واضح عن عدد من مشاهير الأدباء والعلماء، من بينهم شكسبير، وموليير، ومونتسكيو، وفولتير، وداروين، وغيرهم؛ ويسجل لنا نبذة مفيدة لعدد من مسرحيات شكسبير، ومن حكايات مسلية لأدبيين مشهورين هما

الأديب الإيطالي بوكاتشو، والأديب الإنكليزي تشوسر. ويتناول الكتاب في القسم الأخير موضوعات ثقافية وتاريخية واجتماعية ممتعة.

– الكتاب السابع وعنوانه "منارات في رحاب الأدب العالمي". ويتحفنا المؤلف في هذا الكتاب بمقدمة قيّمة عن مواصفات الأدب الكلاسيكي والحركة الرومانسية في الأدب الغربي. يضم هذا الكتاب بين صفحاته أكثر من مائة وعشرين موضوعاً اقتبسها الكاتب من مؤلفات كبار الأدباء والفلاسفة الرومان، والفرنسيين، والإنكليز، وتقدم هذه الموضوعات مراحل مختلفة من مسيرة الأدب الغربي، وهي تشتمل على نصوص اجتماعية، ومقالات ثقافية، ومعلومات تاريخية، ورسائل رومانسية، وتعاليم أخلاقية، وحكايات ممتعة، وتأملات حول الحياة والموت... إلخ.

ومن جملة محتويات هذا الكتاب حكاية «الأرملة والجندي»، و«إمبراطور يقتل أمه»؛ و«مناهج الزواج...»؛ و«لؤلؤة الحب»؛ و«حكاية العقل والحقيقة»؛ و«كليوباترا وأنطونيو»، وغير ذلك من المقالات التي تعتبر ثروة عظيمة يجدر بكل مثقف أن يقرأها.

– الكتاب الثامن وعنوانه "قلائد الذهب في الحكمة والأدب". يتناول هذا الكتاب في القسم الأول ثلاثة موضوعات. يقدم في الأول فكرة موجزة عن أخلاق المسلم كما وردت مبينة بآيات بينات من القرآن

الكريم. ويعرض في الموضوع الثاني نصوصاً مقتبسة من الإنجيل المقدس (الذي يعرف أيضاً بالعهد الجديد) وخاصة من إنجيل متي، وإنجيل يوحنا. ويقدم في الموضوع الثالث مقتطفات واسعة من الكتاب المقدس لدى اليهود (الذي يعرف أيضاً بالعهد القديم).

وينبه الكاتب في «المدخل» (صفحة 127) إلى أنه على المسلم أن يأخذ من هذين الكتابين المقدسين فقط ما كان منها موافقاً لما جاء في القرآن الكريم.

وفي القسم الثاني من «قلائد الذهب...» يقدم الأستاذ ابن علو معرضاً واسعاً يزخر بأقوال أدباء، وحكماء، وفلاسفة الصين، والهند، واليونان وغيرهم. ويصور هذا المعرض مختلف مجالات الحياة الاجتماعية والثقافية والعقائدية والأدبية في تلك الحضارات التي سادت قرونًا طويلة، وكان لها تأثير بالغ على الفكر البشري.

- الكتاب التاسع وعنوانه "أضواء على مسرح الحياة" يشتمل هذا الكتاب على مجموعات من المقالات، والنصوص، والمقتطفات، والحكم، والتأملات، التي تزخر بالأفكار القيمة والأقوال الماثورة مما جادت به قرائح الأدباء والفلاسفة والتي حلقت فوق جسور المكان، وأمواج الزمان حتى بلغتنا لتثري أفكارنا، وتثير آفاق حياتنا، وتزودنا بخير ما تركت الأجيال السابقة للأجيال اللاحقة.

- الكتاب العاشر المعنون «المختصر المفيد» يستهله الأستاذ ابن علو بتقديم موجز عن الظروف التي بزغت فيها شمس رسالة الإسلام، وخاصة عن الحروب المستعرة آنئذ بين دولتي الفرس والروم. ويتبع ذلك نبذة مفيدة عن عدد من الفرق الإسلامية، ومنها الخوارج، والشيعة، والمعتزلة، والدروز وغيرها. وينتقل المؤلف إلى الحديث عن عظمة الحضارة الإسلامية العربية، وعن عدد من أبطالها الذين أثاروا سماء الحضارة شرقاً وغرباً بمؤلفاتهم وإنجازاتهم في مختلف ميادين العلوم.

وفي القسم الثاني يقدم الأستاذ ابن علو موضوعات أدبية واجتماعية وتاريخية شيقة، منها مقالات تتعلق بموضوع الروح، والخير والشر، و«اليوطوبيا» التي تعرض مقالات وحكايات خيالية في معظمها أعرب فيها الأدباء والفلاسفة عن رغباتهم في إنشاء مجتمعات مثالية، ومنهم من وضع مخططات ومشروعات عملية لتأسيس مدن أو ظروف اجتماعية يعيش فيها الإنسان سعيداً في ظلال الأمن والعدل والمساواة.

ومن الموضوعات الشيقة في هذا القسم مقال حول الإنسان والروح؛ وآخر حول الطبيعة والقوانين؛ وآراء حول الدين؛ وحول التاريخ؛ ومقالات مفيدة عن الحضارة؛ وأحلام الشباب؛ وغير ذلك؛ كما تجدر الإشارة إلى موضوع «من سجلات التاريخ»؛ وإلى مقال «حسن الختام» الذي يتحدث عن مراحل عمر الإنسان.

- الكتاب الحادي عشر: «الحكم والمواعظ على ألسنة الحيوانات».

بصد الحديث عن أهمية الحكايات على ألسنة الحيوانات،
وضرورة إدراك مغزاها جاء في كتاب (كليلة ودمنة) ما يلي:

(وأما الكتاب فجمع حكمة ولهوا، فاختره الحكماء لحكمته،
والأغرار للهوه... فأول ما ينبغي لمن قرأ هذا الكتاب أن يعرف الوجوه
التي وضعت له والرموز التي رمزت فيه، وإلى أي غاية جرى مؤلفه فيه
عندما نسبه إلى البهائم، وأضافه إلى غير مفصح وغير ذلك من
الأوضاع التي جعلها أمثالا، فإن قارئه متى لم يفعل ذلك لم يدر ما
أريد بتلك المعانى ولا أي ثمرة يجتني منها ولا أي نتيجة تحصل له من
مقدمات ما تضمنه هذا الكتاب. وإنه إن كانت غايته استتمام قراءته
والبلوغ إلى آخره دون تفهم ما يقرأ منه لم يعد عليه شيء يرجع
إليه نفعه.

أثناء فترة سبعينات القرن الماضي، إلى جانب عملي، ركزت على
كتابة مقالات حول موضوعات كانت تهمني، خاصة منها (العلاقات
الدولية) وموضوعات أخرى اجتماعية وثقافية. وقد نشرت عدداً منها
في جريدة (الشعب). ومن جملة الموضوعات التي تناولتها بالبحث:

- منظمة الأمم المتحدة.

- صندوق النقد الدولي.

- المجموعة الاقتصادية الأوربية.

- مشاكل التنمية في البلدان النامية.
- علاقات الولايات المتحدة مع عدد من البلدان.
- مشاكل البيئة والتلوث.
- الصراع الدولي حول النفط والطاقة.
- سياسات البحار.
- تجارة السلاح.
- نجاح اليهود في السيطرة على سياسة أمريكا.
- حياة الأمريكان السود في الولايات المتحدة.

وما زالت هذه القضايا تطل علينا من نافذة سبعينات القرن الماضي، وما زالت المحافظ الدولية تهتم بها، وتسعى لمعالجتها، وما زالت وسائل الإعلام تركز عليها وتشغل بتطوراتها. فهذه البحوث والمقالات تمثل حلقة في مسلسل الحوادث التي تربط بين الأجيال باعتبارها جزءاً من تاريخ القرن الماضي، فهي «نافذة على الماضي الحي».

والخلاصة أن مجموعة سلسلة «عالم الثقافة» ثروة ثقافية تناولت مختلف مجالات المعرفة، بأسلوب سهل يتمتع بمطالعتها الكبار والصغار، وهي ثروة فكرية حياتية يجدر أن يكون لها وجود في مكتبة كل أسرة.

أ/ عدنان ع. التناضي



القسم الأول

نبذة عن ذكريات المؤلف



المرحلة الأولى

قرية وادي السلام



تقع قرية وادي السلام ضمن ولاية غليزان، ويسكنها عدد من المستعمرين، أكثرهم من ملاك الأراضي الواسعة. وكان أبي رحمه الله يعمل لدى أحد هؤلاء المستعمرين. وقد منحنا منزلاً متواضعاً داخل فناءه الواسع، لأنه يعتبر أبي الحارس والرقيب على العمال الذين يعملون في أراضيه.

وفي عام 1938 أدخلني أبي إلى المدرسة الفرنسية في قرية وادي السلام. في هذه القرية شارع رئيسي معبد تطل عليه مساكن المعمرين. للمدرسة غرفة واسعة، ورواق يعلق فيه التلاميذ معاطفهم وقبعاتهم، ومدفأة وسط الغرفة توقد فيها الحطب لمواجهة فصل الشتاء البارد. وفي داخل المدرسة فناء واسع، توجد فيه فوارة وأشجار، لراحة التلاميذ وكانت الغرفة قسمين، نصفها للتلاميذ المبتدئين، والنصف الآخر للمتقدمين. كانت المعلمة تدرس نصف ساعة لكل من القسمين بالتناوب.

وكانت العادة أن تخرج المعلمة التلاميذ في نهاية الأسبوع أمام باب المدرسة ليصطفوا في شكل نصف دائري حول العلم المعلق لتحيته بأن ينشدوا النشيد الوطني (لامارسيان).

وكانت المعلمة تذكرنا قبل الخروج لتحية العلم، بأن الجزائر ولاية تابعة لفرنسا، وتأتي أحياناً بخريطة كبيرة فتشير إلى موقع فرنسا، وأننا جميعاً فرنسيون (تحت لواء الحرية والإخوة) .

وحدث ذات مرة أن أوصتني المعلمة بأن أقف مكانها وأراقب التلاميذ أثناء غيابها، وكعادة بعض الأطفال (إذا غاب القط ترقص الفئران) فسجلت أسماء ثلاثة من المشوشين على السبورة. وعندما عادت المعلمة جعلتهم يقفون ووجههم إلى الحائط رافعين أيديهم مدة بضع دقائق. ولكنهم انتقموا مني أثناء الخروج من المدرسة ودفعوني على درج المدرسة، فوقعت على الأرض، وسال بعض الدم من جبھتي، فرافقني بعض التلاميذ، ومنهم سوزان إلى منزلي .

وخاطبتنا المعلمة ذات يوم قائلة (وكان ذلك قبل بداية الدرس) : هل تعرفون أن أسماء المجانين توجد في كل مكان؟ وأضافت: أنا أعرف الفتى الذي يكتب اسمه على الأبواب والجدران، أنه ليس مجنوناً طبعاً، لأنكم تعرفونه، وهو بينكم. ثم طلبت مني أن أكتب الجملة: (لا أكتب اسمي على الجدران) خمسين مرة، ففعلت، ولكنني واصلت الكتابة على الجدران، ليس بالطباشير، بل بقلم الرصاص وبخط دقيق.

لقد كان التعليم في تلك المدرسة الصغيرة نعمة، وقد تعلمنا أهم شيء: القراءة والكتابة. ومما أذكره أن من جملة ما كان يقال لنا (نحن الجزائريين) ضمن التلاميذ الأجانب أن أجدادنا هم سكان بلاد الغال

ذكريات وبصمات —

قديمًا، وكانت المعلمة تأتي بخريطة كبيرة ملونة وتشير إلى خريطة فرنسا شمال البحر المتوسط، ثم إلى خريطة الجزائر جنوبه، وتتحدث عن القرب بين البلدين وأن الجزائر ولاية فرنسية وإلى ما قامت به فرنسا من منشآت لتطوير الجزائر، ثم تؤكد على أهمية تعلمنا للغة الفرنسية، وتختتم بكتابة جملتين أو ثلاثة من أحد الأناشيد الفرنسية. وكان هذا العمل، وكثير غيره منطلق غسل أدمغة الأطفال الجزائريين وهم دون العاشرة من العمر .

وأذكر أنني ذات يوم، برفقة اثنين من زملائي، بينما كنا نرمي شجرة اللوز بعصى صغيرة لنسقط الثمار، ارتدت العصي ووقعت على رأسي فتألمت ولم أخبر أمي بذلك . وبينما كنا ذات يوم نسير في الشارع الرئيسي تسلقت شجرة، وفاجأنا الشرطي، وكان لطيفًا فاكتفى بأن قال لنا إذا عدتم إلى هذه مرة أخرى سأخبر المعلمة.

وكنا أحيانًا، في فصل الصيف، نرغب في النزول إلى النهر، فنبلغ الأهل ليرسلوا معنا أحد الكبار، وكم أود الآن، وقد جاوزت الثمانين حولاً أن أشاهد ذلك الطفل وهو ينط في النهر مثل الضفدعة، ويتعلم السباحة بطريقة عشوائية.

وكان من بين سكان القرية من الأجانب، أرملة عجوز من أصل أسباني تملك دكانًا متواضعًا لبيع الحلوى، وكان لها فناء واسع تربي عددًا من الدجاج والديوك الهندية، وكان لها ابن يعمل في مدينة بعيدة، ولها حمار صغير وجميل. كانت هذه الأرملة تطلب منا أحيانًا أن نقود حمارها إلى الصهريج ليشرب وتسمح لواحد منا فقط أن يركبه، وعند العودة توزع علينا بعض الحلوى.

كانت هذه العجوز طيبة متواضعة، تشعر بشيء من العزلة فترحب بنا، وتسمح لنا أن نركض في فنائها وراء ديوك الهند، وكانت عندما نصفر لها تصدر أصواتاً تطربنا. وكان يؤنسها في وحدتها كلب لطيف مطيع وقطتان.

وكان للمستعمر الذي نسكن عنده كلب ضخمة وجميل يدعى بلاك، استأنست به وألّفتني، وكنت أَلعب معه في الفناء الواسع، وتنزل ابنة المستعمر سوزان فتشاركني في اللعب، وتنزل أمها أحيلاً لتتقديم له الأكل. وكنت أحياناً أقفز على ظهره، أو أرمي الكرة فيركض ليعيدها إلي، وأحياناً عندما يذهب أبي إلى خارج القرية في عربة خشبية كبيرة ليأتي بحزم التبن لتغذية الخيل، أرافقه ونأخذ معنا بلاك ليسليني في هذه الجولة القصيرة. وكان المستعمر يصطحبه معه عندما يذهب في جولاته لتفقد الأعمال الزراعية في الحقول.

وكثيراً ما كانت سوزان تتاديني عندما تنزل مع صديقة لها إلى الفناء فتلعب على الأرجوحة التي صنعها أبوها في مخزن الحبوب الواسع، ونتسلى بأشياء أخرى كالجري وراء الدجاج وديوك الهند، وأحياناً نعثر على البيض فتحمله فرحة إلى أمها، وكانت هذه تدعونا أحياناً إلى المنزل عندما تسوء الأحوال الجوية، فنتسلى بالرسم أو بصنع بعض الأشكال الملونة من مادة العجائن الملونة.

حل موعد العودة إلى المدرسة سنة أخرى، وبدا التلاميذ يتوافدون على المدرسة. حضرت المعلمة ورحبت بنا بحرارة، وأخذت تسألنا كيف قضينا العطلة الصيفية، راحت الطفلة سوزان تحدثنا عن

ذكريات وبصمات —

رحلتها إلى فرنسا. وسألتني المعلمة مبتسمة: هل ما زلت تكتب اسمك على الأبواب؟

أذكر أنني حرصت في هذه السنة الدراسية على العمل والاجتهاد أكثر مما مضى من أجل تعلم اللغة، فكنت أحفظ جميع القطع الشعرية، خاصة حكايات الشاعر لافونتان الشهيرة، وكنت أقرأ مع سوزان جميع ما يقع بين أيدينا من حكايات الأطفال، وكنا نركز على تلاوة نصوص القراءة المصورة، ونركض؟ إلى أمها لتوضح لنا ما غمض منها، وتوثقت العلاقات مع سوزان فصارت أمها تدعوني من حين لآخر إلى المنزل في المساء لمراجعة الدروس اليومية، وإعداد الواجبات والتمارين المطلوبة. غير أن الدراسة لم تمنعنا من اللعب في الفناء الفسيح مع الكلب بلاك، وديوك الهند، وفي الأرجوحة، وأحياناً نخرج إلى الحدائق المجاورة نجمع الحشائش ونقدمها للخرفان عندما يعود بها الراعي في المساء.

اندلاع الحرب العالمية الثانية

كان من نتائج الحرب العالمية الأولى أن سقطت قيصرية روسيا، وإمبراطورية النمسا والمجر، والسلطنة العثمانية... وتكونت جمهوريات مثل النمسا والمجر وبولونيا وتشيكوسلوفاكيا وغيرها. أما بالنسبة للعالم العربي فقد ظلت ليبيا تحت سيطرة إيطاليا، وتونس والمغرب والجزائر تحت سيطرة فرنسا. وفي الشرق الأوسط فقد وعدت بريطانيا الدول العربية بالاستقلال إذا ساعدت هذه الأخيرة بريطانيا في حربها ضد الإمبراطورية العثمانية.

ولكن في الوقت نفسه عقدت الدولتان معاهدة سرية سنة 1916 بهدف اقتسام بلدان الشرق العربي، عرفت هذه المعاهدة بمعاهدة (سايكس - بيكو). وبعد انهزام الدولة العثمانية استولت فرنسا على سوريا ولبنان، واستولت بريطانيا على العراق، ومنحت حق الانتداب على فلسطين .

وكان من نتائج الحرب العالمية كذلك أن وضعت معاهدة مرساي شروطاً قاسية على ألمانيا المهزومة. وكان من نتائج ذلك أن ظهرت حركة قومية أدت إلى بروز قادة عسكريين مثل هتلر في ألمانيا، وموسوليني في إيطاليا. وقد قرر كل من الزعيمين أن يحقق طموحات بلاده بطرق عدوانية ضد الدول الضعيفة، وذلك مما أدى إلى اندلاع الحرب العالمية الثانية.

وكان من نتائج الحرب العالمية الأولى كذلك أن سيطر الشيوعيون على روسيا، وتأسست منظمة (عصبة الأمم)، وأصبحت بعض الدول أكثر ديمقراطية، كما ظهرت الأزمة الاقتصادية الكبيرة في السنوات 1929 - 1933 .

وبدأ هتلر في ألمانيا يبني قواته المسلحة، خلافاً لما نصت عليه معاهدة (فرساي)، كما بدأ موسوليني في إيطاليا سياسة توسعية عدوانية فغزا أثيوبيا عام 1935. وكونت ألمانيا وإيطاليا تحالفا عرف (بمحور برلين - روما)، وانضم إليهما اليابان بعد ذلك .

هجمت ألمانيا على النمسا وتشيكوسلوفاكيا سنتي 1938 و1939.

ولكن عندما هجمت على بولونيا في سبتمبر 1939، أعلنت بريطانيا وفرنسا الحرب على ألمانيا. وبذلك بدأت الحرب العالمية الثانية، وسرعان ما استولت ألمانيا على عدد من الدول منهم فرنسا.

ولم تبق قرية وادي السلام الصغيرة النائبة بمنأى عن آثار الحرب، خاصة بعد أن عقد المارشال بيتان معاهدة الصلح مع هتلر. وجاءنا مسؤول القرية بصورتين كبيرتين المارشال الفرنسي بيتان، وأمر بأن تلصق إحدهما داخل غرفة الدراسة والأخرى على جدار المدرسة الخارجي.

وجاءتنا المعلمة بنشيد أرسله مسؤول القرية فكانت تأمرنا كل صباح بأن نقف داخل الغرفة ونحي بيتان منشدين ذلك النشيد الذي يمدحه لكونه حسب زعمهم أنقذ جزءاً من فرنسا من الاحتلال الألماني. أمر حاكم القرية شرطيين بأن يطوفاً بمنازل السكان الجزائريين ويجمع عدداً من الشباب والرجال ويبلغهم أوامر المسؤول بالشروع حالاً في حفر خندق، قادهم إلى المخزن فحمل كل رجل فأساً وغيره من الأدوات اللازمة لحفر الخندق، ونزلوا إلى أسفل القرية ملحق بهم مسؤول القرية وحدد لهم المكان المناسب بين القرية والنهر، وتوافد عدد من سكان القرية الأجانب ليشاهدوا العملية، كان النهار جميلاً مشمساً. ومن السكان من أرسل أطباقاً من الخبز والحلويات والقهوة للعاملين في حفر الخندق.

واجتمع مسؤول القرية (أو الحاكم) مع شخصيات القرية الأثرياء من الفرنسيين فقدم فكرة عن ظروف الحرب، واتى على المارشال

بيتان الذى حسب زعمه أنقذ فرنسا من ويلات الحرب ضد ألمانيا. وقال أنه سيركب جهازاً للإنذار لتببيه السكان باللجوء إلى الخندق في حالة أي هجوم للطائرات الألمانية. واتفق الرأي على أن ينصب جهاز الإنذار فوق المبنى الذي تقع فيه المدرسة لأنه أعلى بناية في القرية.

وبينما كنت ذات يوم عائداً من المدرسة برفقة سوزان، لفت انتباهنا جمع من الفرنسيين يتجادلون بصوت مرتفع، وهمست في أذني قائلة أنهم ينتقدون إيطاليا لأنها أعلنت الحرب علينا مع هتلر، وكان بينهم فرنسلي من أصل إيطالي، وفجأة هجم عليه صاحب ورشة الحدادة، وفرق بينهما الآخرون، وذهب الإيطالي أدراجه حانيا رأسه. وأخرجت من محفظتي قلم رصاص محاولاً أن أكتب اسمي على جدار فخطفته سوزان من يدي وركضت قائلة: إنك طفل عنيد. وفي الغد سمعنا الكبار يتحدثون عن عودة ثلاثة جرحى من فرنسا كلهم من المسلمين، من سكان القرى المجاورة.

أصبح يجول في قريتنا الآن شرطياً بدلاً من شرطي واحد. ويبدو لي أن الشرطي الجديد لم يكن راضياً عن وضعه في هذه القرية الهادئة من وسائل المتعة.

وكان يبدو على ملامحه سمات القساوة، على عكس الشرطي الأول اللطيف، وأصبحنا نشاهد كل صباح اثنين من رجال الدرك يمران بالقرية على فرسيهما. وشرح لنا الكبار أن حاكم القرية أمر ذلك لأن بعض الفرنسيين أصبحوا يخشون من اعتداء الفلاحين عليهم.

وقد كان جميع السكان القرويين من المسلمين يعانون من الفقر. وكان المستعمرون يستغلونهم لاستثمار الأراضي الواسعة التي امتلكوها بالقوة. وكان الفلاحون الجزائريون يعانون من التعسف والبطالة والحرمان وسوء المعاملة من المستعمرين. واذكر أن مستعمراً فرنسياً عاقب عاملاً جزائرياً بالضرب ولم يدفع له أجره الأسبوع لأنه رفض أن يعمل يوم الأحد لتنظيف حظيرة الخيل. واصلت المدرسة مهمتها التعليمية، فكانت أصوات التلاميذ وهم ينشدون ويكررون دروسهم بأصوات عالية تسمع في الشارع، وتكررت عادة تحية العلم المرفوع أمام المدرسة، وإنشاد النشيد الوطني الفرنسي ونشيد آخر تحية للمارشال بيتان.

وحلت الكارثة

انتشرت ويلات الحرب في أوروبا وشمال أفريقيا، وغطت سحب الفقر والمجاعة مناطق واسعة، وانتشر وباء فتاك كان يدعى (التيفوس)، فكان السكان المسلمون يشاهدون أعداداً كبيرة من أقربائهم وجيرانهم يموتون بمرض لا يعرفون أسبابه ولا يجدون له علاجاً.

ولاحظ المستعمر دوبوى أن صحبة أبي الحاج بدأت تتدهور، فذهب إلى مدينة مجاورة وجلب طبيباً لفحصه، فأكد له الطبيب أن الحاج مصاب بنفس الداء الذي أصبح يفتك بالآلات السكان (التيفوس).

طلب المستعمر من الحاج أن يغادر المنزل على الفور. فجمعت أسرتي أثاثها، ورحلنا إلى كوخ متواضع في أعلى القرية وسط مجموعة من السكان الفقراء مثلنا.

وظل الحاج يكافح من أجل الحياة، وهو لا يزال في مطلع الثلاثينات، ولكن هجوم الداء وانعدام الدواء كان له الأثر المحتوم، فانتقل الحاج إلى رحمة الله بعد نحو شهرين من إصابته، وبعد معاناة بدنية ونفسية لشاب عرف أنه سيترك زوجة وأطفالاً صغاراً.

وحضر عمي المجند من فرنسا، واجتمع الجيران وبعض أفراد الأسرة، وحمل نعشه وسط العويل والصراخ إلى مقبرة تبعد نحو تسعة كيلو مترات كانت على أرض يقال أنها ملك لأحد أحفاد الولي الصالح سيدي لزرق.

وترك الحاج رحمه الله بعض المعز ونعجتين، وبعض الحبوب الغذائية مثل القمح والشعير والفلول والحمص وغيرها. وأرسلت رقية أحد أقاربها إلى المستعمر يطلب منه أن يسلمها جزءاً من تلك الحبوب، فتهاون في الأمر، ثم أرسلت إحدى جاراتها لتحدث زوجة المستعمر في الأمر. بعد ذلك جاء المستعمر برجلين من سكان القرية ليكونا شاهدين وسلمها بحظورهم مبلغاً من المال. وتكرّر هذا المستعمر اللئيم لكل تلك الخدمات والعلاقات بينه وبين أبي، ولم يرع حق الأسرة التي عاشت بجواره بضعة أعوام، وتجاهل آلام الأرملة وأطفالها، فلم يقدم لها مساعدة تخفف عنها وعن أولادها عبء المصاب.

لم أدرك، وأنا في سن العاشرة عمق الكارثة وعواقب وفاة أبي، بل يبدو لي الآن أن عقلي كان يرفض أن يعترف بذلك في الأسابيع الأولى من الكارثة، لذلك لم أفهم ولم أصدق أن حياتي تغيرت فجأة ورحلت أتساءل: لماذا طردنا من السكن الذي دبووي؟ وأين ذهب أبي؟

ذكريات وبصمات —

وهل سيعود؟ ولم أدرك جلاله الحدث وعمق نتائجه إلا بعد بضعة أسابيع عندما طلب مني أن أنقطع عن المدرسة لأننا سنغادر هذه القرية لنبحث عن وسائل العيش في مكان آخر. وقد اتخذت أمي هذا القرار عندما زارتنا أختها رحمها الله (برفقة زوجها) وكانت في بادية بعيدة عن قريتنا. وبعد مشاورة طويلة نصحت (ستي) وكان هذا اسم خالتي، نصحت أمي بأن تنتقل إلى مدينة تدعى غليزان لتستقر هناك وتبحث عن عمل لمساعدة الأطفال. ووافق زوج خالتي على هذا الرأي، وتقرر الرحيل قريباً.

أجل بدأت أدرك عمق التغيير عندما طلب مني أن أتوقف عن الذهاب إلى المدرسة. عندئذ أظلمت الدنيا في عيني: لم تعد السماء زرقاء، ولا الأغصان خضراء، ولا النهر الجميل جميلاً، ولا طيور السنونو مسلية، ولا الشارع الرئيسي مغرباً... أصبحت أمشي في حيرة وذهول، في شعور عميق بالعجز والاكتئاب.

وكنت عندما أشاهد أصدقائي منطلقين من المدرسة إلى بيوتهم اختفى وراء شجرة أو جدار لكي لا أواجه الواقع المرير الذي يضطرنني للإجابة على أسئلتهم المحرجة: لماذا لا تأتي؟ لما غبت عن المدرسة؟ وشاهدتني سوزان ذات يوم فركضت نحوي وراحت تسألني الأسئلة نفسها، وأظهرت أسفها لغيابي عن المدرسة.... وعرضت علي أن تعيرني دفترها لأنقل منه الدروس، وأضافت أنها ستتحدث لأمها لتسمح لي بزياتها. فوجهت نظري إلى شجرة، ثم إلى الأرض، وابتعدت دون أن أودعها.

وبلغني أن بعض زملائي بكوا عندما عرفوا أنهم لن يروني بعد ذلك.

ودقت ساعة الرحيل، وحضرت خالتي وزوجها ذات صباح من أيام الربيع، فحزمتنا ما خف من فراش وأوني، ودعنا الجيران، ثم وقفنا على حافة الطريق الرئيسي ننتظر أن تمر الحافلة، وانطلقت بنا الحافلة في اتجاه الغرب، ولكنني لم أصدق ما يجري، لم أصدق أنني أودع من غير رجعة مدرستي، رفاقي، وسوزان. وجنحت مخيلتي إلى الماضي فرحت أشاهد مسلسل حياتي ونشاطاتي خلال السنوات الخمس الماضية.

شاهدت أنني أتسلى مع سوزان على الأرجوحة، وألعب مع الكلب الضخم الهادئ (بلاك)، وكيف كنت أحاول أن أمتطيه وأنا صغير فيرميني على الأرض، وشاهدت سوزان الصغيرة وهي مستلقية في الفناء نصف عارية بناء على نصيحة الطبيب، وتذكرت كيف كنا نلعب مع الديوك الهندية (الحبشية)، وثلثت حبات البيض فتسرع بها إلى أمها لننال الشكولاتة، وعادت بي مخيلتي إلى المدرسة وسط التلاميذ، وإلى الجولات المدرسية والحفلات الموسمية، وتذكرت المعلمة وهي تتصحني ألا أكتب اسمي على الجدران... وتذكرت أبي (رحمه الله) وهو يأخذني إلى «حفلات الأولياء»، كما تذكرت الرجل الطيب بن يوسف الذي كان يحلق شعر رأسي، وتذكرت جولاتي في شوارع القرية، وتذكرت..... الأوقات الجميلة التي قضيتها في منزل سوزان.. وها أنا أودع القرية وما فيها، أودع خمس سنوات من طفولتي السعيدة.



خريطة الجزائر



نماذج من اللباس التقليدي الجزائري





المرحلة الثانية

قرية غليزان



انتقلنا إلى مدينة غليزان حيث ساعدنا زوج خالتي رحمها الله على إيجار غرفة متواضعة. حدث ذلك أثناء فترة كانت نيران الحرب العالمية تشتعل في كل مكان. وكانت السلطات الفرنسية تجند الرجال من المدن والقرى لمواجهة ويلات الحرب... قلت المواد الغذائية في الأسواق وارتفعت الأسعار. وكان الشعب الجزائري الفقير يعاني بصفة خاصة من المرض والحرمان.

وكان من حسن حظنا أن إحدى جارائنا كانت تعمل في مصنع كبير ينتج معلبات الخضار والفواكه. فتوسطت لأمي لدى المشرف على العمال، ولم يمر أسبوع حتى جاءتنا الجارة تطلب من أمي أن ترافقها صباح الغد لتباشر العمل في المصنع .

وكان من حسن حظي كذلك أن تعرفت على فتى من جيرائنا كنت أرافقه إلى سوق الخضار بحثاً عن عمل.

وهكذا تدور الأيام وتتغير الظروف فيبتسم الحظ حيناً ويتجهم حيناً آخر، فيواجه المرء قدره في الحياة حلوة ومره، وبعدها كنت أحمل محفظتي الصغيرة وأركض في الشارع الوحيد إلى مدرستي معتزلاً

فخوراً بنفسى، مشتاقاً لمقابلة زملائي ومعلمتي... أصبحت أسير تائهاً في مدينة غليزان... يا لقساوة القدر. ولكن من يدري ماذا يخفي المستقبل، فعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم.

اشتهرت بين نساء الحي الذي نسكنه بأننى أعرف اللغة الفرنسية، فكانت نساء الحي كلما بلغتهن رسائل من أزواجهن وأقاربهن في فرنسا يأتين إلي لأقرأ رسائلهن، ثم بعد يوم أم يومين لاكتب لهن الأجوبة وكان ذلك يدرّ علي بعض القروش والمواد الغذائية.

وبينما كنت ماراً بأحد شوارع المدينة ذات يوم، استوقفني رجل وسألني: هل لك عمل؟

- لا ليس لي عمل.

- هل لك أن تعمل عندي في المطعم؟ فأجبت على الفور:

- أجل يا سيدي.

لم أصدق أنني سأعمل في مطعم وسط الأطعمة الشهية والروائح الطيبة. وفي صباح اليوم التالي شرح لي رب المطعم الأشغال التي سأقوم بها، ومن جملتها نقل قدور الغذاء الجاهز إلى المساجين.

وفي الساعة الموعودة أخرج السيد عربة لها أربع عجلات مطاطية، وأخرج الطباخ قدرين كبيرين وضعهما على العربة، ورافقني صاحب المطعم إلى السجن ليقدمني إلى الحارس.

ذكريات وبصمات —

واصلت العمل بضعر أشهر، وكنت مسرورًا بما يوفره من دفع وطعام لذيذ. غير أن علاقتي بدأت تسوء مع الطباخ لأنه كان يشغلني حتى وقت صلاة العشاء.

وجدت عملاً مع رجل كريم من رجال الإصلاح كان يتقن صنع الفطائر المقلية في الزيت، وكان يفعل ذلك داخل إحدى المقاهي الشهيرة، وكان الزبائن يتناولون فطائرهم خاصة في الصباح الباكر في طريقهم إلى أشغالهم. وكان عملي يلتخص في أن أحضر إلى المقهى في الصباح الباكر، فأوقد الفرن بالفحم. ثم يحضر السيد عبد الكريم حاملاً على رأسه قصعة الجبن الذي أعده بإتقان... وخلال دقائق يخرج الفطائر (الإسفنجية) اللذيذة، وأشرع أنا في تقديمها إلى زبائن المقهى كل حسب طلبه.

توثقت علاقتي مع السيد عبد الكريم فكان يدعوني أحياناً إلى المنزل للعشاء وتناول الشاي الأخضر مع الحلويات التي تتقن زوجته إعدادها. وذات يوم سألتني:

- لماذا لا تدخل إلى المدرسة لتتعلم شيئاً من اللغة العربية؟

- كيف لي ذلك وعملي يشغل وقتي طوال النهار؟

- المدرسة تقدم دروساً مسائية، بعد صلاة المغرب، وهي تساعد الكبار الذين يرغبون في تعلم القراءة والكتابة.

وافقت على اقتراح ذلك الرجل الفاضل، وفي المساء رافقني السيد عبد الكريم وسجلت اسمي ضمن الراغبين في (دروس محو

الأمية) ودفع الرجل الطيب مبلغاً زهيداً مقابل تسجيلي. وبذلك بدأت مرحلة تعلم اللغة العربية وعمري لا يقل عن أربعة عشر عاماً.

وكانت الدروس المسائية على مستويين: مستوى المبتدئين مثلي، ومستوى من يحسنون القراءة والكتابة، وبعد نحو ستة أشهر نقلني المعلم إلى مستوى متقدم.

ومرت شهور وفصول، وذات يوم، بينما كنا نتناول الشاي المنع في منزله، قال لي السيد عبد الكريم: اسمع يا بني، لقد تعبت من الجلوس أمام المقلاة وشم رائحة الزيت المنتشرة من حولي، ومنذ بضعة أيام عرض علي صديق لي أن أشاركه في دكانه الذي يختص في بيع الأقشمة وبضائع أخرى.... وراح قائلاً: لا تظن أنني نسيتك، فقد تحدثت إلى صديق لي في سوق الخضار عن وضعك، ومدحت له سلوكك، وقد وافق هو وشريكه أن تتضمن إليهما لتساعدهما في تجارتهم، ومن يدري؟ فلعلك ستصبح يوماً ما تاجرًا ناجحًا في تلك السوق.

رافقني الرجل الصالح إلى السوق وقدمني لرجلين من أهل الخير والإصلاح، ورحبا بي، فبدأت العمل في سوق الخضار، وسررت بعلمي الجديد لما لقيته من الرجلين من حسن المعاملة والتقدير.

توقفت عن الدروس الليلية وبدأت أشارك في الدروس النهارية التي كانت تخصص بعد الظهر للتلاميذ الذي يأتون من المدارس الفرنسية. وحرصت على توثيق علاقتي بالمدرسة وبالمعلمين، وبدأت أشارك في تمثيل دور في عدد من المسرحيات التي يعدها الأساتذة في المناسبات الدينية والاجتماعية.

ذكريات وبصمات —

وزاد تركيزي على تعلم اللغة، وحفظ سور من القرآن الكريم، وكثير من الأحاديث النبوية منها (الأربعون النووية). وكان بين أساتذة جمعية العلماء الذين عاصرتهم أو تلقيت العلم على أيديهم في مدرسة غليزان، الشيوخ محمد بو عكاز، فرحات العابد، السعيد بو ذراع، معمر حني، العيد سلطاني، وباقي بوعلام. وكان من أعمال جمعية العلماء الجليلة أنها كانت ترسل في شهر رمضان من كل سنة عددًا من العلماء إلى مختلف المدن ليقدموا دروس الوعظ والإرشاد لمجموعات واسعة من السكان. وأذكر من بين هؤلاء العلماء الشيخ نعيم النعيمى، وعبد القادر الياجورى، وأحمد حماني وغيرهم ممن تشرفت بلقائهم والاستماع إلى دروسهم .

في ربيع 1950 جئني خبر فرحت به كثيرًا، خبر كان سيغير مجرى حياتي. كنت في المركز في سوق الخضر عندما زارني أحد أعضاء لجنة المدرسة وقال لي بحضور الشريكين: أبشر فقد وافقت اللجنة على أن ترسلك إلى معهد عبد الحميد بن باديس لتواصل دراستك، وستوفر لك منحة شهرية لتدبير شؤونك في قسنطينة، فاحرص على دروسك.. لأنه من شروط القبول في المعهد أن يحفظ الطالب ربع القرآن الكريم.

كان ذلك الخبر بمثابة ميلاد جديد لي. لم أكد أصدق، وقد بلغت سن الثامنة عشر، وبعد أن غادرت مدرسة قرية وادي السلام في العاشرة، لم أصدق أنني سأحمل محفظتي وأتوجه كل صباح إلى المدرسة من جديد. عقدت العزم، وقلت في نفسي هذه المرة سأنجح. ضاعفت جهودي لحفظ خمسة عشر حزبًا من القرآن الكريم،

وحرصت على مطالعة السيرة النبوية، وتوسيع معرفتي بقواعد اللغة مستعيناً بأساتذة المدرسة.

وقبل الدخول في مرحلة الانطلاقة الحقيقية نحو العلم في معهد عبد الحميد بن باديس، أود أن أعود قليلاً إلى بداية جيلي ممن نشأوا في ثلاثينات وأربعينات القرن الماضي، وما لكبر الفرق واختلاف الظروف التي عشنا فيها (أعني شباب العالم الثالث) عن الظروف التي يعيش فيها جيل مطلع القرن الواحد والعشرين.

عشنا شبابنا قبل ظهور التلفزيون، والمانيوتوفون، والمانيتوسكوب، وأشعة الليزر، ودواء المضادات الحيوية، وقبل البلاستيك، والرادار، وعدسات الإبصار، وقبل ظهور أجهزة التسخين، وتكييف الهواء، وملابس النيلون، وقبل القنبلة النووية، وقبل أن يمشي الإنسان على سطح القمر ...

وقبل المحمول، وقبل ظهور تقنيات يصعب عدّها.

لم يسمع جيلنا آتئذ عن كل هذه الاختراعات والإلكترونيات التي تسهل تكاليف الحياة، وتجعل عالم المعرفة أقرب إلى الإنسان من جبل الوريد. كانت كلمة فأر تعني عندنا ذلك الحيوان المسكين الذي يضر من القط، وكلمة (بارابول) تعني حكاية من الكتب المقدسة لا صحننا منصوباً فوق السطح.

لم تكن نرتاح لشباب يعلقون الأقراط في آذانهم، ويرتدون ملابس ضيقة تبرز عوراتهم، ويهزون وسطهم تقليداً للأجانب. صحيح أننا لم

ذكريات وبصمات —

نتمتع بكل هذه التقنيات، والقنوات، والإنترنت، وغيرها من التسهيلات... ولكننا كنا جيلاً يحترم العلم والعلماء، لم يكن يجرأ على أن يوجه إلى أستاذه عبارة تزعجه، بل كنا نردد (من علمني حرفاً صرت له عبداً). وننشد مع أحمد شوقي رحمه الله :

قم للمعلم وفه التبجيلا كاد المعلم أن يكون رسولا

كنا جيلاً قوياً جابهنا التحديات بإمكانيات متواضعة، وصمدنا أمام الحرمان، وظهرت قوتنا في قدرتنا على التلاؤم مع التطورات، وتحملنا الآلام التي سببتها الحرب العالمية للبشرية.

ولعله من المفيد، في هذا الصدد الإشارة إلى بعض الآثار والتطورات العظيمة التي أحدثتها هذه الحرب الكارثية التي راح ضحيتها عشرات الملايين من الأبرياء كان من نتائج الحرب العالمية الثانية ظهور قوتين جديدتين على المسرح العالمي: الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي، ودخل العالم في العصر النووي، والحرب الباردة، ونهضت بلدان كثيرة في أفريقيا وآسيا مطالبة بالاستقلال، ونظمت هذه الدول نفسها مع دول أخرى في مجموعة أصبحت تعرف بدول عدم الانحياز. وتم إنشاء منظمة الأمم المتحدة ومنظمات عالمية أخرى. وبينما لم يكن بين أعضاء منظمة (عصبة الأمم) سوى ثلاثة دول أفريقية هي ليبيريا، وأثيوبيا، ومصر، لم يمر على إنشاء الأمم المتحدة زمن طويل حتى أصبح عدد الدول الأفريقية والآسيوية الأعضاء في هذه المنظمة العالمية يتجاوز ستين دولة. ولا يتسع مجال هذه الورقات لذكر ما حصل من تطورات أخرى وسياسية واجتماعية وعلمية.

مدينة غليزان



مدينة غليزان





السيد محمد بن سليمان
سوق الخضـر المركزي



السيد الميسوم مسعوده
سوق الخضـر المركزي



الأزرق ، ١٤ سنة
في سوق الخضـر المركزي

المرحلة الثالثة

في معهد عبد الحميد بن باديس



وأعود الآن إلى الموضوع الرئيسي الهام، وهو انتسابي إلى معهد عبد الحميد بن باديس، رحمه الله، الذي كان منصة الانطلاق نحو مستقبل أفضل، وصل القطار صباحاً إلى مدينة قسنطينة، توجهت إلى وسط المدينة، أسأل عن المعهد، نهج بن لفقون، رقم 05. دخلت إلى الإدارة، فسجلت اسمي وعنواني، وطلب مني أن أعود بعد الظهر لمقابلة الأستاذ الذي يمتحنني في حفظ القرآن. قدم هذا الأستاذ قائمة تتضمن برنامج الدراسة وقاعات الدرس. وفي اليوم التالي توجهت مع رفيق لي إلى الدرس، مسروراً بأنني أصبحت طالب علم متفرغاً له. حدث ذلك شهر سبتمبر من عام 1950، قررت أن عهد الاجتهاد والالتزام والمثابرة قد حان، وأنه علي أن أكون عند حسن ظن رجال الإصلاح في شعبة مدرسة غليزان الذين وضعوا ثقتهم في فتكروا بإرسالني إلى المعهد لمواصلة الدراسة.

كانت فترة إقامتي بالمعهد المعمور محطة هامة في حياتي، تركت في نفسي وفي فكري ذكريات عزيزة. ومن أهمها ترددنا على حلقات الدرس أمام علماء أجلاء أذكر منهم الأساتذة الأكارم أحمد حماني، ومحمد العدوي، وأحمد رضا حوحو، ومحمد الميلي، وأحمد حسين،

ذكريات وبصمات

ونعيم النعيمي، وعبد القادر الياجوري، وعبد اللطيف سلطاني، وعبد
المجيد حيرش، وعبد الرحمان شيبان، والعباس بن الحسين، وعبد
الحفيظ الجنان.

أولئك رجال العلم والإصلاح ﴿رَجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾
(الأحزاب: 23).

وما زال مشهد المعهد ماثلاً أمامي وهو أشبه بخلية نحل، ومئات
الطلبة ينتقلون من قاعة درس إلى أخرى. وأذكر أنه عندما سافر
رئيس جمعية العلماء الشيخ البشير الإبراهيمي إلى بلدان الشرق
العربي ساعياً للحصول على منح للطلبة الجزائريين، تولى مهام جمعية
العلماء الشيخ الشهيد العلامة العربي بلقاسم التبسي، وكان يسهر على
إدارة المعهد الشيخ الجليل محمد خير الدين.

ومن حوادث تلك الفترة أن الأساتذة طلبوا منا ذات يوم أن نذهب
في الغد إلى المسجد الكبير فنصلي الصبح ونبقى في المسجد حتى
يلحق بنا الأساتذة فنلتقى دروسنا فيه، وكانت السلطات الفرنسية لا
تسمح للجمعية بالتعليم في بعض المساجد، ومن الحوادث الهامة أن
الجمعية قامت بتشديد عمارة واسعة لإسكان الطلبة نظراً لما كنا نلاقه
من عناء للعثور على سكنى في متناول إمكانياتنا. وقد أقيم حفل كبير
لافتتاح هذه العمارة (بيت الطلبة) واستمعنا فيه إلى خطبة للعلامة
البشير الإبراهيمي أرسلها من القاهرة على شريط.

ومن الذكريات العزيزة أنني حظيت بصداقة عدد من كرام الطلبة

وأكثرهم نشاطاً، ومنهم الأستاذ نور عبد القادر، والأستاذ المرحوم فرح محمد، والأستاذ لحسن سي العربي، والأستاذ عبد القادر بن قاسي وغيرهم.

ضاعفت نشاطي في السنة الدراسية الأخيرة (1953 - 1954) إذ أدركت أن مستقبلي يتوقف على نيل (شهادة الأهلية). وساهمت في عدد من الندوات الأدبية المتواضعة التي كان يحضرها بعض الأساتذة، ونشرت مقالين في جريدة البصائر الأول عن (دور المساجد في التعليم)، والآخر عن (مستقبل الجزائر). كما شاركت في مسابقة نظمتها جمعية الطلبة الجزائريين في تونس (جامعة الزيتونة) ونلت الجائزة الثالثة.

وحضرت لجنة الامتحانات ممن جامعة الزيتونة، فاستقبلتها إدارة المعهد أكرم استقبال، وكانت نسبة النجاح بين طلبة المعهد مشرفة للمعهد وأساتذته.

وسمعت خبراً مفاده أن إدارة المعهد تفكر في إرسال بعثة من الطلبة إلى البلدان العربية لمواصلة الدراسة، وهي تنتظر التعليمات من رئيسها الشيخ البشير الإبراهيمي. انتظرت بضعة أسابيع، ثم كتبت رسالة إلى الشيخ محمد خير الدين مدير المعهد، وعدت إلى مدينة غليزان.

من الواضح أن رغبتني الأولى كانت مواصلة التعليم، ولكن إمكانياتي كانت محدودة. فهل أنضم إلى جنود المعلمين في مدارس

ذكريات وبصمات —

الجمعية؟ بدا لي هذا مستقبلاً ضيقاً في حدود شهادة (الأهلية)، فكرت في فتح مكتبة... أو مركز تجاري في سوق الخضار والغلال، بل فكرت كذلك في السفر إلى فرنسا، وأشار علي بعض الأصدقاء بالزواج، فرفضت هذا القيد المبكر. وبينما كنت متردداً بين الخيارات المتاحة جاءتني ذات يوم برقية من الشيخ الجليل محمد خير الدين رحمه الله يأمرني بأن ألتحق حالاً بتونس للانضمام إلى أفراد البعثة المتوجهة إلى القاهرة، وبهذه البرقية قطعت جھيزة قول كل خطيب.

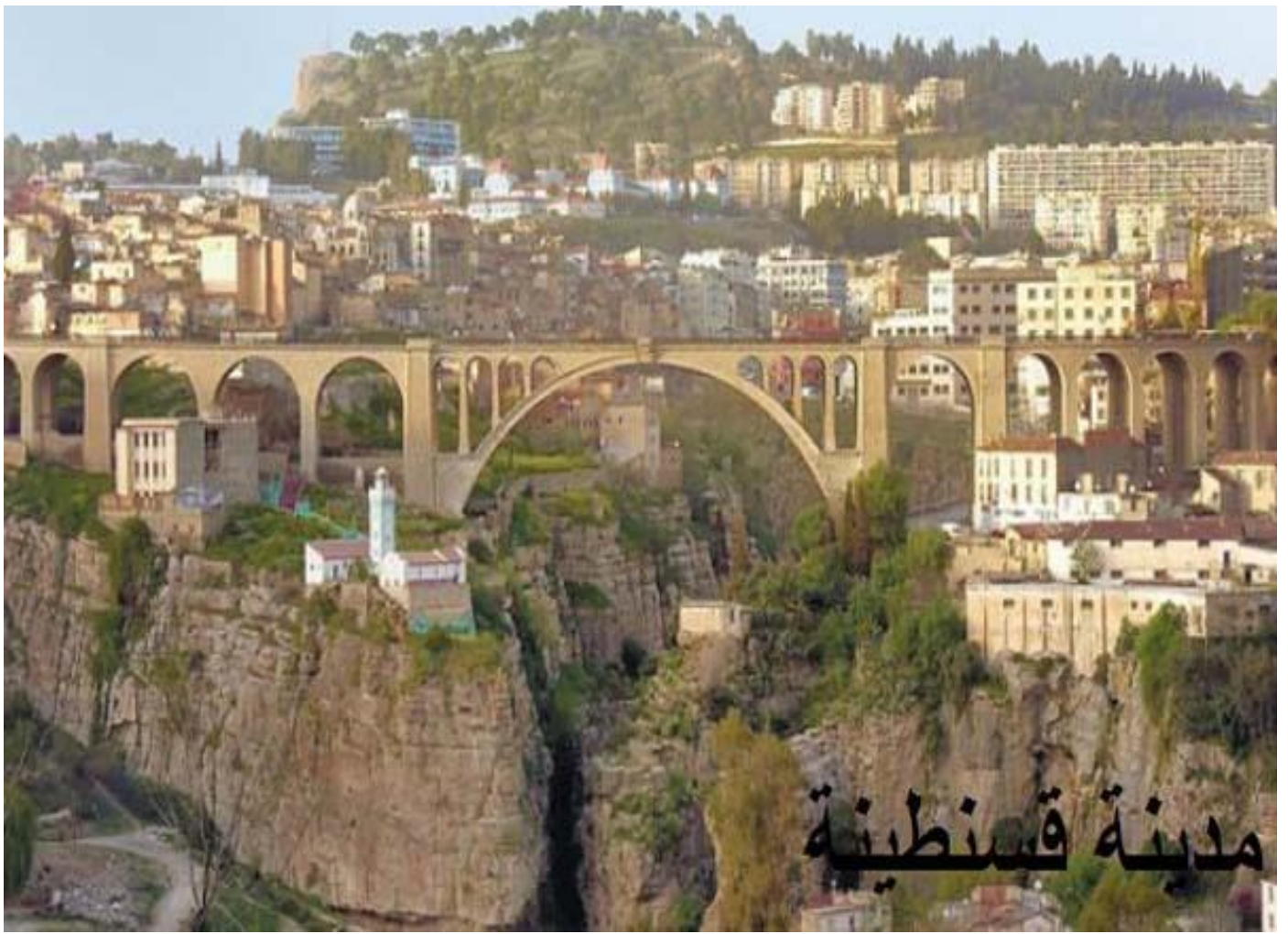
كم كان ابتھاجي بهذا النبأ عظیماً، لقد أحدث نقلة نوعية ومثل محطة هامة في مسيرة حياتي. ولا يسعني، وأنا أكتب هذه الورقات بعد مرور ستين عاماً من ذلك الحدث، لا يسعني إلا أن أنوّه مرة أخرى بالجهود التي بذلها ذلك العالم الجليل من بناء النهضة العلمية والإصلاحية التي مثلت قوة عظيمة في الدفاع عن الإسلام والعروبة في الجزائر، وفي تثبيت دعائم الإصلاح الاجتماعي، والتربوي، والثقافي، وفي نشر الوعي لدى الشباب الجزائري بشخصيته العربية الإسلامية، وبانتمائه إلى الأسرة العربية الكبيرة.

لقد قام الشيخ البشير الإبراهيمي بزيارة البلدان العربية، وبذل جهوداً كبيرة لدى الحكومات من أجل الحصول على مساعدات لدعم أعمال الجمعية في بناء المدارس والمعاهد لتعليم أبناء الجزائر، وكذلك للحصول على منح للطلاب الذين أنهوا دراستهم الثانوية في الجزائر.

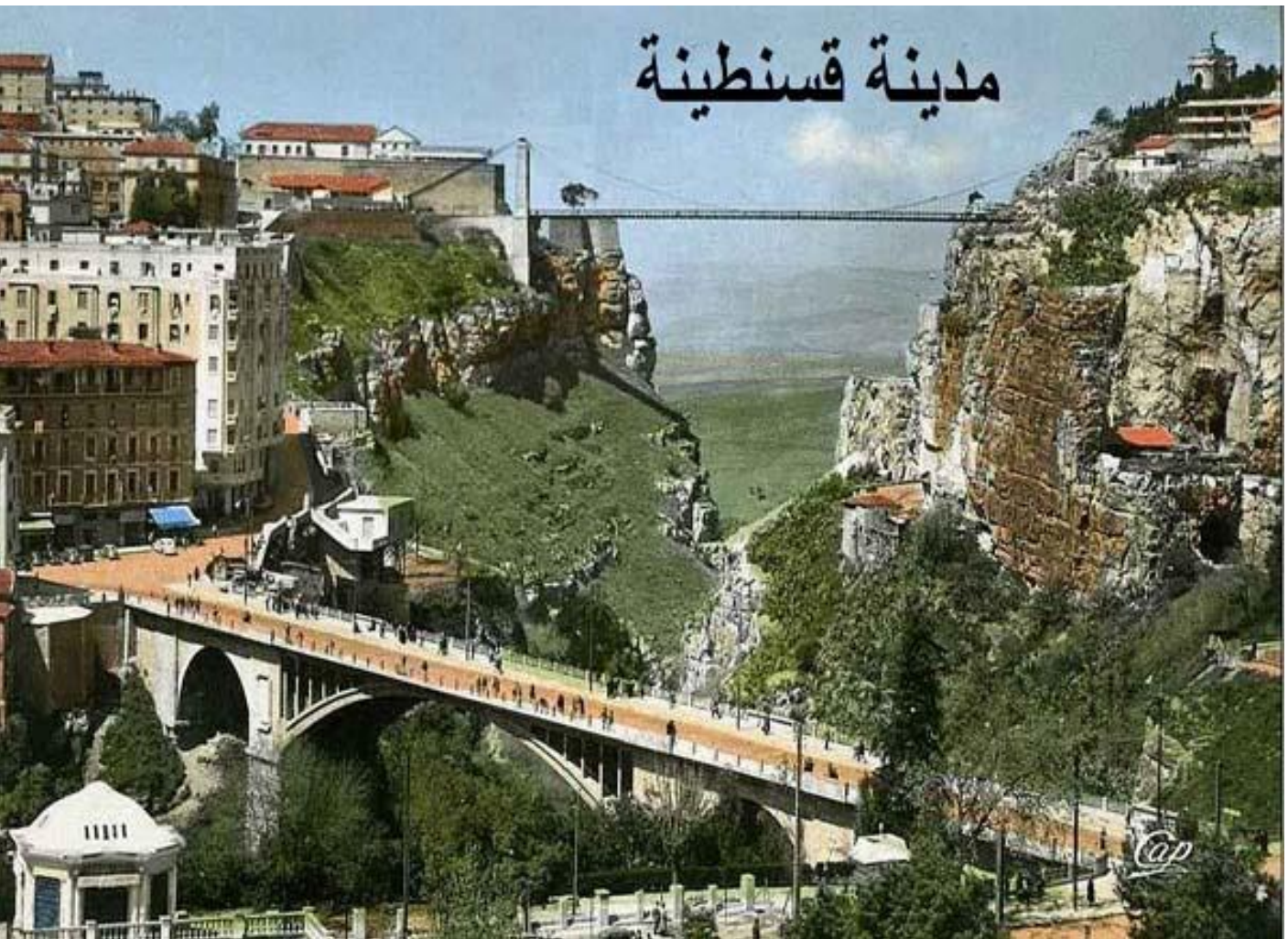
وبعد زيارات متكررة، ومساع حثيثة، قام بها هذا العالم الجليل لدى مسئولين في الدول العربية، تمكنت جمعية العلماء المسلمين

الجزائريين من إرسال بعثات من الطلاب الجزائريين إلى عدد من البلدان العربية لاستكمال دراستهم في جامعاتها.

مكثنا بضعة أيام في القاهرة في انتظار أن تحدد مواطن دراستنا وأعداد الوثائق الضرورية، ثم اجتمع بنا الشيخ الجليل ورحب بنا وأبلغنا بأن عدداً منا سيسافر إلى الكويت، وعدداً آخر إلى سوريا (وكنتم من بينهم) وعدداً سيبقى في القاهرة.



مدينة قسنطينة



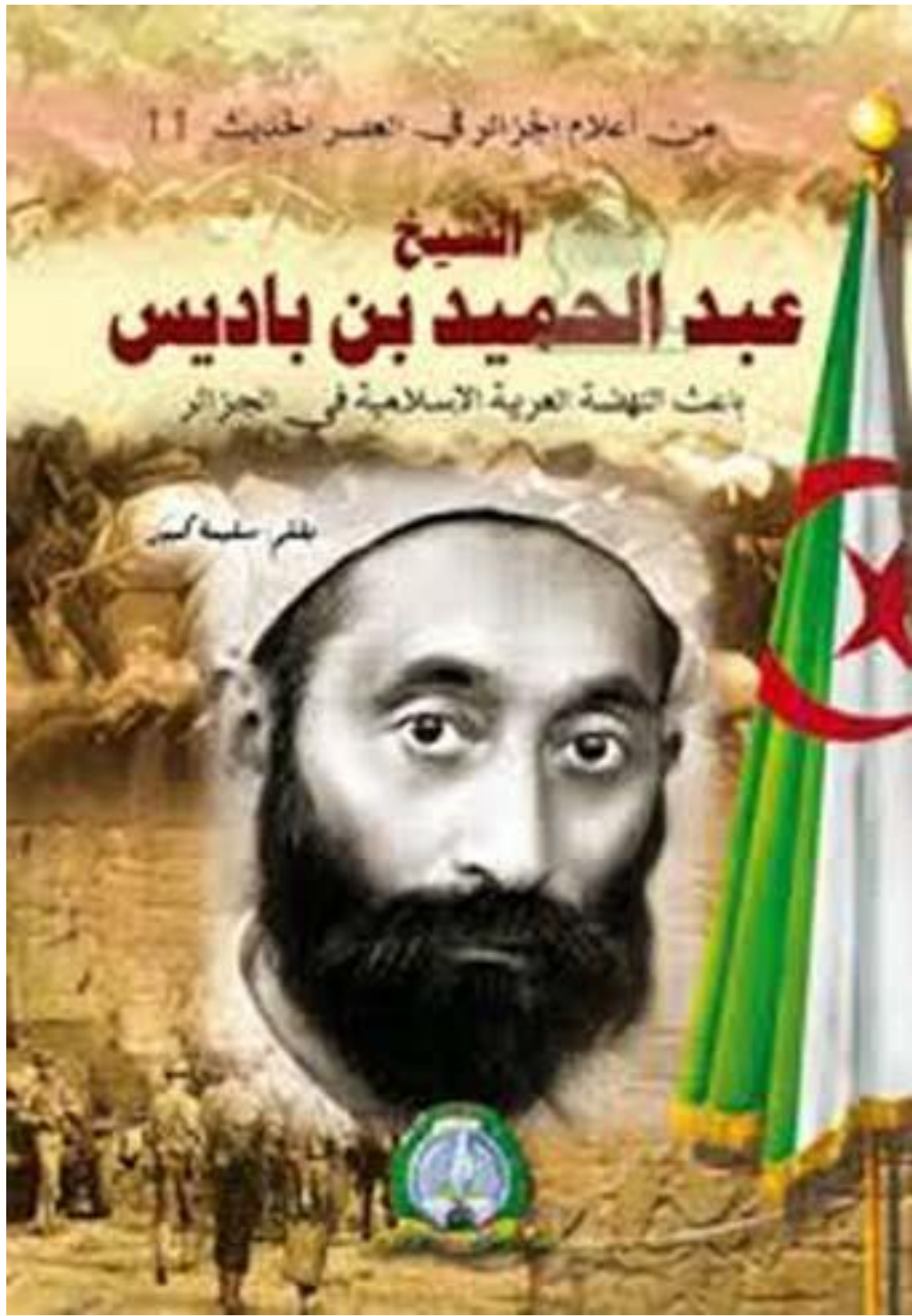
مدينة قسنطينة

من اعلام الجزائر في العصر الحديث 11

الشيخ عبد الحميد بن باديس

باعت النهضة العربية الإسلامية في الجزائر

بمقر كلية كبر

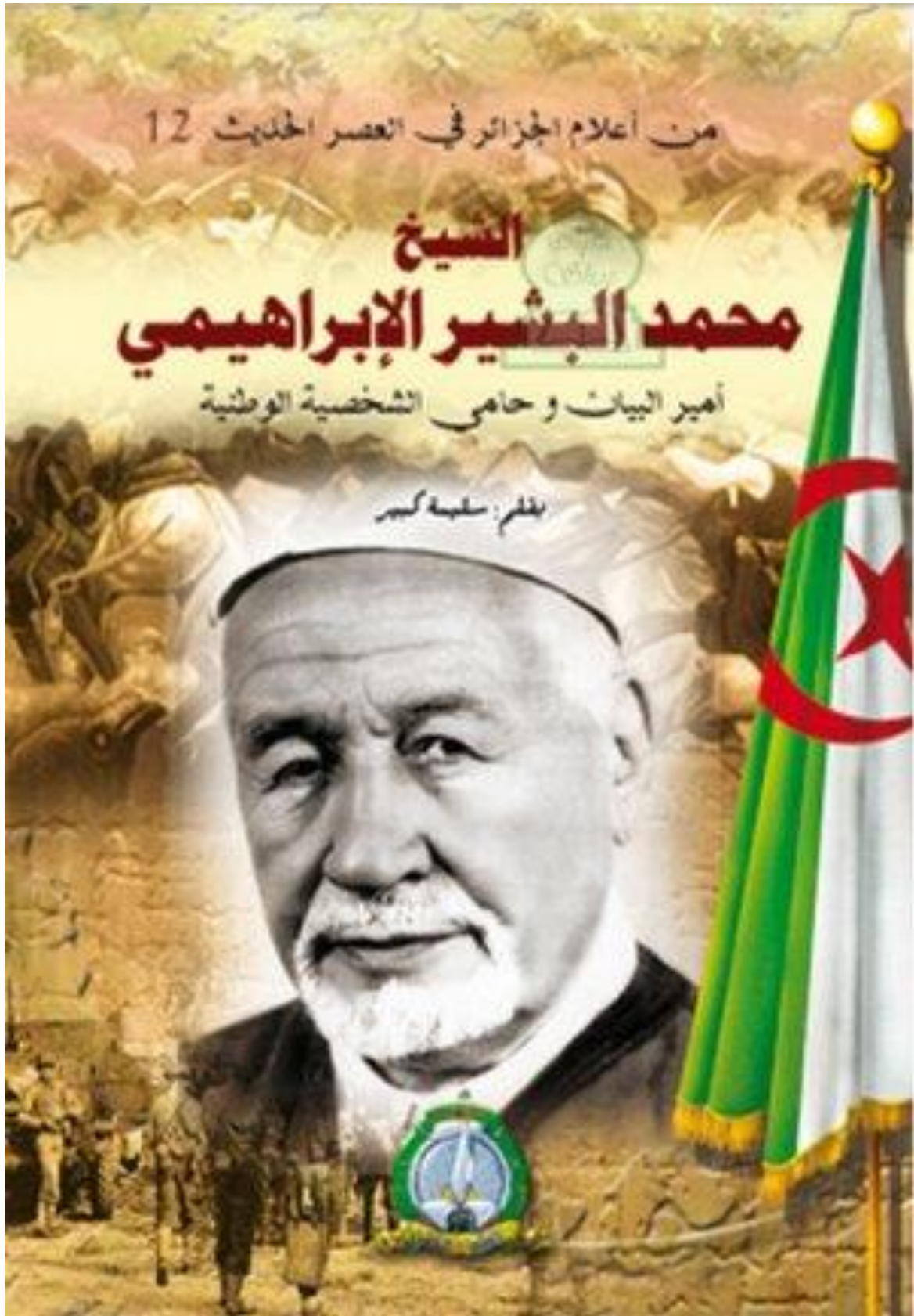


من اعلام الجزائر في العصر الحديث 12

الشيخ محمد البشير الإبراهيمي

أمير البيان و حامى الشخصية الوطنية

تأليف: سلمة كير



من اعلام الجزائر في العصر الحديث 13

الشيخ

العربي التبسي

شهيد الوطن و الإسلام

بقلم سلمة كسر





المرحلة الرابعة

سوريا



في مطار دمشق رحب بنا موظف من وزارة المعارف، ورافقنا إلى الفندق، في انتظار أن تحدد لنا المدرسة التي سنقيم بها. وفي الغد أبلغنا بأن نستعد للسفر إلى مدينة اللاذقية لأنها الوحيدة التي توجد بها أماكن شاغرة لإيواء عشرة طلاب (وهو عددنا) في النظام الدراسي الداخلي.

لقد كان في مخطط مسيرتي أن أواصل في جامعة الأزهر حتى أبلغ من العلم ما يمكنني من أن أصبح من العلماء الوعاظ المرشدين. فأصبح من الرعيل الذي يخلف الرعيل الأول من علماء جمعية العلماء لمواصلة أعمال الإصلاح والبناء في جزائر المستقبل. غير أنني إرسالي إلى سوريا غير كثيرًا من مخططي، وخاصة عندما علمت أن وزارة المعارف السورية قررت أن حَمَلَة شهادة الأهلية من جامعة الزيتونة ينبغي أن يحصلوا على البكالوريا قبل الانتساب إلى الجامعة، وكان بعض زملائنا الذين مكثوا في القاهرة أحسن حظًا منا إذ سمح لهم أن يدخلوا إلى الجامعة مباشرة. وشعرت بشيء من الخيبة لأن الإعداد لشهادة البكالوريا يعني ضياع ثلاث سنوات من حياتي.

كان الشعب السوري الشقيق قد حصل على استقلاله من

الاستعمار الفرنسي سنة 1946، وقد وصلت بعثتنا إلى سوريا عام 1954، ولاحظنا أن سوريا حققت تقدماً ملحوظاً في جميع ميادين التعليم، وكانت المواد تدرس باللغة العربية. وكانت البلاد قد مرت بعدد من الانقلابات العسكرية. وعند وصولنا كان الحكم مدنياً، وكانت الأحزاب السياسية تتمتع بحرية التعبير والإعلام كذلك، وكان معظم الطلاب، ويعدون بالملئات، ينتمون لهذا الحزب أو ذاك: حزب البعث العربي الاشتراكي، حزب الأخوان المسلمين، الحزب الشيوعي، الحزب القومي السوري... وكان الشباب السوريون يتمتعون بوعي وحماس عميقين حول القضايا العربية، وقد استفدنا منهم كثيراً عند المناقشات السياسية حول فلسطين، وثورة الضباط الأحرار في مصر، وسياسة عبد الناصر لتحرر من سيطرة العرب. وكانت ثورة التحرير قد اندلعت في الجزائر وكان طلاب مدرستنا ينظمون مظاهرات مطالبين بدعم هذه الثورة والشعب الجزائري في كفاحه ضد الاستعمار الفرنسي.

وتجدر الإشارة إلى أن هذه الحوادث السياسية لم تكن تشغلنا عن هدفنا الأول وهو الدراسة وتحصيل العلم والنجاح. وكانت أخبار الثورة الجزائرية تجمعنا كل مساء أمام المذياع لنستمع إلى إذاعة القاهرة وصوت العرب وتعليق الصحفي أحمد سعيد الذي كان يهز المشاعر. وقد سبقت الإشارة إلى مدى وعي الطلاب السوريين السياسي فيما يتعلق بقضايا الأمة العربية، ومدى حماسهم لمبادئ أحزابهم، وقد استفدنا كثيراً من مناقشتنا معهم حول مختلف الموضوعات التي كانت آنئذ تشغل الرأي العام العربي. ولاحظنا أن الروابط الحزبية كانت لدى معظم الطلاب أقوى من الروابط العقائدية

ذكريات وبصمات

التي يعتبرونها مسائل شخصية، وذلك باستثناء جماعة الإخوان المسلمين الذين تتبع مبادئهم من صميم عقائدهم.

وكان مستوانا في علوم اللغة والأدب والفقه والتاريخ بصورة عامة أعلى من مستوى الطلبة السوريين، أما مستوانا في علوم الكيمياء، والفيزياء، والرياضيات فكان دون المطلوب بكثير، هذا بالإضافة إلى أننا وصلنا إلى قاعات الدراسة متأخرين بنحو شهر ونصف . لذلك ينبغي التتويه والإشادة بما لقيناه من مساعدة من الأساتذة السوريين في جميع الظروف، وكانوا يعاملوننا بكثير من اللباقة والتسامح وكرم النفس.

كانت ظروف الحياة في هذه المدرسة (ثانوية البنين) مريحة، فغرف النوم واسعة، والأسرة مريحة، وهناك غرف مخصصة لمراجعة الدروس في المساء، وكانت وجبات الطعام منتظمة.... والأساتذة أكفاء وملتزمون، ولم يبق على من غادر من بلاده لطلب العلم إلا أن يحقق الهدف من رحلته. ولم يكن في وسعنا نحن العشرة في مدينة اللاذقية أن نقدم خدمات ملموسة للبلاد باستثناء المشارك في المظاهرة التي ينظمها الطلبة السوريون لدعم الثورة الجزائرية .

وعندما أمم الزعيم جمال عبد الناصر قناة السويس سنة 1956، قامت إسرائيل مدعومة من إيطاليا وفرنسا بشن حرب على مصر في شهر أكتوبر من تلك السنة. وسرعان ما هاجمت قوات هاتين الدولتين مصر ، وهو ما يعرف بالعدوان الثلاثي. وكان على سوريا أن تستعد لاحتمال توسع رقعة الحرب، وعلى مستوى طلاب المدارس طلب منا أن نتطوع للتدريب العسكري فكنا نذهب إلى ثكنات التدريب مرتين في الأسبوع ، وكانت الطالبات تتدربن على عمليات الإسعاف. وأذكر أنني

تطوعت كذلك في قوات رجال المطافئ ، غير أنهم عفوني من ذلك بعد أسبوعين لمشقة العمل، ولكن واصلت التدريب في الثكنة.

وخلال الشهر التي سبقت امتحانات شهادة البكالوريا ساد جو من الجد والاجتهاد استعداداً للحدث الهام. والواقع أن معظم المواد الدراسية كانت سهلة بالنسبة لي، ومنها مواد اللغة والأدب والتاريخ والجغرافيا والتربية الدينية... وكنت أجد بعض الصعوبة في مادة الكيمياء والفيزياء، ويبدو هذا في وثيقة العلامات التي تحصلت عليها الامتحان وهي 7 ، 16 من 20.

عندما حصلنا على وثيقة شهادة البكالوريا قررنا أن نتقل إلى دمشق حيث التقينا بعدد من الطلبة الجزائريين الذين جاؤوا من الكويت والعراق والقاهرة لقضاء عطلة الصيف في دمشق. واتفقنا على أن نؤجر منزلاً واسعاً وكان عدداً نحو 18 جزائرياً ممن قرروا الالتحاق بالجامعة. وكونا لجنة للطلبة تعمل تحت رعاية منظمة الطلبة الجزائريين (UGEMA).

وأثناء ذلك وصل إلى دمشق من تونس عدد من الطلبة الجزائريين ممن تلقوا منحاً دراسية، كانوا يحملون شهادات الأهلية من جامعة الزيتونة بتونس. وانتدبتني اللجنة لأسافر إلى بيروت لأحمل هذه الشهادات إلى القنصلية التونسية للمصادقة عليها. وأذكر أنني وجدت صعوبة في بيروت من أجل التنقل من الحي الذي يسكنه المسلمون إلى الحي الذي يسكنه المسيحيون بسبب انتفاضة عدد كبير من اللبنانيين ضد رئيس الجمهورية كميل شمعون الموالي للغرب ، ولأنه معادياً لاتجاهات الوحدة العربية والأفكار الناصرية.

ذكريات وبصمات —

سجلت في كلية الاقتصاد، وبدأت دائرة أصدقائي تتسع. وأذكر أن الأستاذ طلب مني أن أعد ورقة عن أهمية إنتاج الزيتون وتجارته في تونس. وتطورت علاقاتي مع عدد من الطلبة، وساعدني بعضهم على جمع بعض المراجع الخاصة بالبحث المطلوب.

واستبشرنا خيراً بدخول العام الجديد 1958 وكان النشاط السياسي للأحزاب على أشده، واتسعت حركة القومية العربية، وكان في طليعتها حزب البعث العربي الاشتراكي. وقد سبقت الإشارة أثناء الحديث عن الموضوعات التي كانت محور النقاش بين الطلاب، إلى مدى إعجابهم (وإعجابنا جميعاً) بثورة الضباط الأحرار في مصر، وبالزعيم العظيم جمال عبد الناصر، وانتشرت الدعوة إلى الوحدة بين سوريا ومصر.

وكانت سوريا تواجه مشاكل داخلية ومؤامرات سياسية من الخارج، خاصة بعد أن نجحت بريطانيا وأمريكا في إنشاء (حلف بغداد) الذي ضم تركيا والعراق وإيران، وازداد الضغط من جميع الجهات على سوريا للانضمام إلى هذا الحلف الاستعماري الذي كان هدفه التضييق على الاتحاد السوفيتي من الجنوب، وكانت تركيا آنئذ تتحرش بسوريا من الشمال، وكان الأردن يتقرب من سوريا لتنفيذ مشروع سوريا الكبرى، فرأى بعض الضباط السوريين (معظمهم من حزب البعث فيما أذكر) أن الحل لعزلة سوريا يكون بالدخول في وحدة مع مصر، وبعد مفاوضات وإلحاح من طرف الجانب السوري وافق الرئيس جمال عبد الناصر، وتحققت الوحدة بعد أن وقع البلدان على اتفاقية الوحدة في شهر فبراير من عام 1958.

نظم طلاب الكلية رحلة إلى منطقة الجولان السورية، كنا حوالي خمسين طالبًا ، وقضينا ساعات مسلية فوق الهضبة التي تطل على شمال إسرائيل، وكانت حناجر الطلبة والطالبات تتطلق بالأناشيد والأغاني المسلية أثناء رحلة الذهاب والإياب .

وجاء موعد معرض دمشق الدولي في شهر يوليو (جويلية)، وقرر مندوب الجزائر في دمشق أن ينظم جناحًا للجزائر فطلب من عدد منا أن نساعد في ذلك فَسُررنا وتطوعنا للحضور إلى جناح الجزائر قبل الافتتاح، ونشطنا لتنظيم ما توفر من المعروضات ومعظمها يتمثل في صور المجاهدين، وبعض الأسلحة، ومصنوعات يدوية متواضعة، وملصقات تفضح جرائم الجيش الفرنسي في الجزائر وغيرها .

وفي شهر سبتمبر من 1958، أي في الأسبوع الأول لعودتنا إلى قاعات الدراسة، حدث تطور عظيم في مسيرة الثورة الجزائرية، إذ أعلنت جبهة التحرير إنشاء حكومة مؤقتة للجمهورية الجزائرية، حدث هذا التطور العظيم في 19 سبتمبر (أيلول) 1958، الموافق لـ 5 ربيع الأول 1378 من التوقيت الهجري، وكان يرأس تلك الحكومة الزعيم الشهير فرحات عباس. وعلى الرغم من أن حكام فرنسا ظلوا يقللون من أهمية ثورة التحرير ، فقد عمل إنشاء الحكومة المؤقتة على ازدياد الوعي الدولي بحق الشعب الجزائري في الاستقلال .

وفي شهر أكتوبر زار دمشق مسؤول من الحكومة الجزائرية، واجتمع بالطلاب الجزائريين. اذكر أنه قال لنا في بداية حديثه: أن ثورة التحرير داخل الجزائر تحتاج إلى عدد من أبنائها الموجودين خارج الوطن ، فهل بينكم من متطوعين؟

ذكريات وبصمات

فأجاب جميعنا (بصوت واحد تقريباً) : نحن جنود الثورة، نحن على استعداد، نحتاج إلى بعض التدريب العسكري... أطرق المسؤول لحظة ثم أضاف: كلا، كلا، الثورة بخير، والجزائر تحتاج إلى جيل من المعلمين، والأطباء، والمهندسين عندما تتال استقلالها... وما عليكم الآن إلا الاستعداد للمستقبل . ثم أضاف بأن حكومة يوغسلافيا قدمت للجزائر عددًا من المنح الدراسية، وعلى من يرغب في الذهاب إلى بلغراد أن يقدم نسخة من جواز سفره إلى ممثل الجزائر في دمشق، وأثناء الحديث لم ينس أن ينوّه بالدور الذي تضطلع به مصر في دعم الثورة الجزائرية مادياً (بتوفير السلاح) ومعنوياً بالدعوة لمساندة الجزائر في المحافل الدولية وما تقدمه إذاعة القاهرة (صوت العرب) من بيانات ترفع معنويات الجزائريين وتدحض أكاذيب الاستعمار الفرنسي، وأضاف: إن شاء الله سنرفع تمثالاً للرئيس جمال عبدالناصر.

وبخصوص الانتقال إلى يوغسلافيا سارعت بتقديم نسخة من جواز سفري إلى مكتب ممثل الجزائر، غير أن موجات من التردد ظلت تحوم حول موضوع الرحيل: هل من الأفضل لمستقبل دراستي أن أبقى في دمشق، أم أسافر إلى بلغراد؟ هل أترك الأصدقاء، والأحباء، ودمشق الفيحاء، والسنة الدراسية التي أتممتها بنجاح؟ وأذهب إلى بلغراد لأبدأ حياة مختلفة؟ ولكن هناك سأعيش في بيئة مختلفة، بيئة أوروبية، دولة اشتراكية/ شيوعية، لغة جديدة، تقاليد مختلفة، وجوه، كتب، أساتذة، فنون جديدة.



الأستاذ الأزرق بن علو



صورة مع أستاذ الأدب العربي



الجامع الأموي بدمشق



سوق الحميدية





مجموعة من الطلبة الجزائريين
جامعة دمشق ١٩٥٨



حفلة مع طلبة سوريين بمناسبة تكوين
الحكومة الجزائرية المؤقتة

المرحلة الخامسة

من سوريا إلى بلغراد



كان الترتيب أن نساfer إلى القاهرة أولاً، فقام ممثل الجزائر بتوفير تذاكر السفر، وهناك اكتمل عددنا عشرة، ثلاثة من دمشق وسبعة من دول أخرى.

وبعد بضعة أيام يسرت لنا القنصلية تأشيرات السفر إلى بلغراد، وذلك بفضل مساعد مسؤول جزائري في الحكومة المؤقتة.

وحلقت بنا الطائرة نحو بلغراد، نحو أوروبا. كانت تتناوبني مشاعر السرور باكتشاف أسلوب حياة جديدة في دولة شيوعية وسط شعب سلافي لا تمت لغته بصلة إلى اللغات اللاتينية.

ومن المفيد تقديم نبذة عن هذا البلد الجميل الذي سنقضي فيه بضع سنوات. عبارو (يوغوسلافيا) تعني (سلاف الجنوب)، وهم قبائل هاجروا من روسيا وبولونيا في القرن الخامس والسادس بعد الميلاد.

أثناء الحرب العالمية الثانية انضمت يوغوسلافيا (حكومتها) إلى جانب دول المحور (ألمانيا، إيطاليا)، فأدى ذلك إلى إثارة الجيش ضد العرش (كان الحكم ملكياً).

اجتاح الجيش الألماني يوغوسلافيا سنة 1941، فهرب الملك بيتر وحكومته إلى لندن.

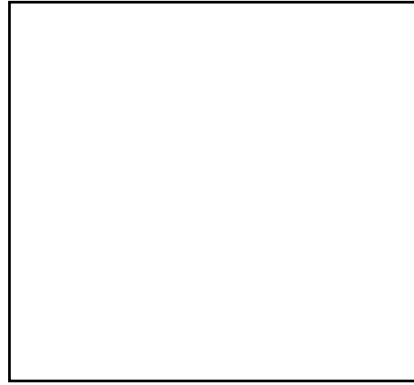
وانتشرت حركة المقاومة ضد جيوش الاحتلال يقودها جوزيف بروز تيتو والحزب الشيوعي، وكانوا يهدفون إلى تشكيل حكومة شيوعية، وكانت هناك حركة مقاومة أخرى قوية تؤيد عودة الملك. وكان الحلفاء يناصرون هذه الحركة، ثم تبين لهم أن تيتو سيكسب المعركة فنصروه.

استطاعت قوة الشيوعيين، بمساعدة الحلفاء أن يحرروا العاصمة بلغراد وأن يحكموا قبضتهم على البلاد سنة 1945، وأصبحت يوغوسلافيا جمهورية اتحادية في نوفمبر من السنة المذكورة. وأصبح الحزب الشيوعي هو الحزب الوحيد الذي سمح له بالعمل. واستولت الحكومة على المزارع والمصانع، وجميع محلات العمل.

وقد نظم دستور 1946 وضع يوغوسلافيا على أنها دولة اتحادية، أي أن الجمهوريات تكون مسؤولة عن إدارة شؤونها الخاصة، مع منح مقاطعتي كوسوفو وفويفودينا حكماً ذاتياً داخل صربيا.

ورفض الزعيم تيتو للاتحاد السوفياتي الهيمنة على يوغوسلافيا، فقطع السوفيت علاقاتهم مع يوغوسلافيا سنة 1948، وقطعت عنها جميع المساعدات، فاتجه تيتو إلى الدول الغربية والولايات المتحدة لطلب المساعدة.

وفي سنة 1955، بعد وفاة ستالين، أعاد الزعماء السوفيت العلاقات مع يوغوسلافيا، ولكن تيتو رفض الدخول في الحرب الباردة بين الدول الشيوعية والدول الغربية، وأصبح في مقدمة الدول غير المنحازة.



خريطة يوغوسلافيا قبل الانقسام

كان مسؤول من وزارة التعليم ينتظرنا في المطار. كانت الغيوم تغطي السماء، فقلت في نفسي هل ارتحنا من الحر الشديد، وسنواجه شتاء بلغراد البارد.

رافقنا المسؤول إلى فندق جميل في وسط المدينة يدعى (غراند-أوتيل) حيث مكثنا أيام في انتظار أن تعد لنا سكنى في مدينة الطلاب التي تمجد خارج بلغراد بنحو عشرة كيلو مترات. كان الفندق ينظم حفلتين في نهاية الأسبوع، فيمتلأ بالزبائن. بدأت أتمتع بألحان ونغمات موسيقية مختلفة عما تعودت عليه. لاحظت بداية نوعاً من الموسيقى الهادئة (slow) تشتهر بطول نغماتها (أشبهه بالموال)، وهي

ذكريات وبصمات —

تتبع بالحنان وتفويض بمشاعر الحب والشوق، وبذكريات الأحباب في اجتماعهم وفراقهم. ومنها النغام الخفيفة السريعة التي تهز المشاعر وتحفز على الرقصات السريعة (أشبه بالدبكة في بلاد الشام) .

انتقلنا إلى مدينة الطلاب التي كانت تتكون من خمس عمارات ضخمة، أربعة للطلاب وعمارة للطالبات، ومن كافيتيريا واسعة لإطعام مئات الطلبة، ومن عدد من المرافق، دكاكين، وسينما وغير ذلك. وكانت التعليمات أن يسكن كل طالب أجنبي مع طالب يوغوسلافي لدواعي التبادل اللغوي والثقافي، وكان حظي أن سكنت مع طالب من الجبل الأسود يدرس الطب .

كان حرصي على تعلم اللغة الصربوكرواتية شديداً. وتفضل المسؤولون بأن عينوا لنا سيدة من عائلة كبيرة كانت تتقن اللغة الفرنسية لتعلمنا لغة البلاد، فحددت لنا ثلاث حصص في الأسبوع، كل حصة ساعتان . وبقي على كل واحد منا أن يبذل جهوده الخاصة لتعلم هذه اللغة .

وتجدر الإشارة إلى أن اللغة الصربية الكرواتية الرسمية كانت تكتب إما بالحروف اللاتينية، وإما بالحروف السيريلية، نسبة إلى القديس سيريل (Cyril)، وهي نفس الحروف الهجائية التي تستعملها اللغات السلافية كما هو الحال في روسيا، وأوكرانيا، وبلغاريا وصربيا. ويفضل الطلاب الأجانب مثلنا استعمال الحروف اللاتينية للسهولة.

سبق أن يوغوسلافيا كانت ، بعد سنة 1945، تنتمي إلى دول

الحياد الإيجابي، كما أصبحت بعد نجاح ثورة الزعيم تيتو تطبق النظام الاقتصادي الشيوعي الذي من مميزاتة الأساسية القضاء على تقسيم المجتمع إلى طبقات، وعلى استغلال الإنسان للإنسان، والقضاء على الملكية الخاصة، وتحقيق العدالة الاجتماعية... إلخ. وترى الاشتراكية الشيوعية أن الدولة هي التي ينبغي أن تدير وسائل الإنتاج الزراعي والصناعي لأن الملكية الفردية هي باب المظالم وعدم المساواة، كما يحدث في النظام الشيوعي.

أما النظام الشيوعي عند ماركس وإنجلس فيعنى وضع قوانين للاشتراكية العلمية تدير الحياة الاجتماعية في جميع الميادين، وتحدد مراحل التطور الاجتماعي، والكفاح الطبقي الذي يؤدي في نهاية المطاف إلى القضاء على النظام الرأسمالي.

وقد ساد النظام الشيوعي عملياً في روسيا (التي أصبحت تعرف بالاتحاد السوفياتي) بعد عام 1917 عندما استولى لينين على السلطة. ثم انتشر هذا النظام في أوروبا الشرقية بعد الحرب العالمية الثانية، وانتشر في الصين ابتداء من سنة 1949، واستمر النظام الشيوعي في الاتحاد السوفياتي وبلدان أوروبا الشرقية حتى الفترة 1990-1991 عندما بدأ ينهار.

استأنفنا بجد وحماس دروسنا في اللغة الصربية الكرواتية، وبعد بضعة أسابيع عقد مدير الحي الجامعي اجتماعاً للطلبة الأجانب فحضر ستين طالباً من مختلف البلدان: السودان، أثيوبيا، سوريا، المغرب، الجزائر، الأردن، الصومال... إلخ.

ذكريات وبصمات

رحب المدير بالطلاب، قائلاً: أرجو أن يتمتع الطلاب بصداقة زملائهم اليوغوسلاف، وأن يستغلوا وجودهم لطلب العلم والعودة إلى بلدانهم لبناء مجتمعات قوية مزدهرة.. وأضاف أن الإدارة ستوسع مساحة الكافتيريا، وستحاول إنشاء مركز طبي للحالات المستعجلة، وزيادة عدد الحافلات المتجهة إلى مدينة بلغراد...

ثم فتح باب الملاحظات فاشتكى البعض من انعدام المراجع باللغة الفرنسية، والبعض من أنهم يتعرضون لملاحظات عنصرية من الطلاب اليوغوسلاف، والبعض من أن الكافتيريا تستعمل كثيراً من لحم الخنزير... وطلبت الكلمة فشكرت السلطات اليوغوسلافيا علىكرمها وحسن استقبالها ورعايتها لنا جميعاً ، وعلى ما وفرته لنا من تسهيلات في المنحة الشهرية، ومن مسكن، ومن مبالغ كريمة سخية لشراء الملابس الشتوية. (واسمحوا لي أن أتوجه بالشكر، باسمنا جميعاً، إلى الرئيس والزعيم العظيم تيتو على ما يبذل من جهود لدعم نضال الشعوب الأفريقية في كفاحها ضد الاستعمار... كما أوجه شكري إلى السيد مدير الحي الجامعي، وإلى جميع المسؤولين في الإدارات التي جعلت إقامتنا في هذا البلد المناضل مريحة، وساعدتنا على التركيز على دراستنا.

ولنا رجاء لدى السيد المدير هو أن يفتح لنا نادياً صغيراً في الحي نلتقي فيه بزملائنا اليوغوسلاف في أوقات الراحة، ولنوسع ونعمق علاقاتنا بشباب الثورة اليوغوسلافية..) كان لهذه الكلمة المرتجلة القصيرة أثر في نفوس المسؤولين، وعند ختام اللقاء شكرني

المدير قائلاً: أحسنت، بل أجدت، أنها عبارات لا تأتي إلا من شاب من أبناء الثورة الجزائرية العظيمة.

وصدق المدير ، فقد سجل اسمي لدى المسؤولين بأنني طالب مجد ومناضل .

وذات يوم ذهبت إلى كلية علم الاجتماع وحظيت بمقابلة مساعد العميد، فأخبرته بأنني درست سنة كاملة في كلية الاقتصاد بجامعة دمشق، وأعربت له عن رغبتي في أن ألتحق بالسنة الثانية في كليتهم، طلب مني المسؤول أن آتيهم بوثيقة تتضمن جميع المواد التي درستها ليعرض الموضوع على الأساتذة ذوي الاختصاص. فزرت دمشق وحصلت على الوثيقة وترجمتها لدى السفارة اليوغوسلافيا، وعدت إلى بلغراد وفي حقيبتي كتاب عزيز على نفسي وهو (مقدمة ابن خلدون). قدمت طلباً إلى الكلية مرفوقاً بالوثيقة راجياً الموافقة على دخولي السنة الثانية بدلاً من الأولى. وفي زيارة تالية طلب مني أستاذ علم الاجتماع أن أعد له بحثاً عن تاريخ علم الاجتماع.

وفي شهر جوان 1959 أنهت معلمة اللغة دروسها، فركزت جهدي على البحث في المكتبة العامة، وكان من الحظ أن وجدت عدداً من المراجع باللغة الفرنسية.

واستأذنت الأستاذ أن أكتب بحثي بهذه اللغة فوافق. وقررت أثناء تلك العطلة أن أركز على ما جمعت من مراجع .

وكم سعدت أثناء تلك الفترة أن أتخذ من مقدمة ابن خلدون، ذلك العالم العظيم، صديقاً يؤنسني ويرشدني ويعلمني.

وقد أذهلني ما وجدت فيها من أفكار وملاحظات عميقة وجديدة حول التاريخ، والسياسة، والاقتصاد، والتعليم... وقد قرأت لأحد كبار العلماء انئذ أن الباب الأول من المقدمة يلخص نظريات علم الاجتماع، والبابين الثاني والثالث يلخصان علم الاجتماع السياسي، والباب الرابع يلخص علم الحياة المدنية، والباب الخامس علم الاجتماع الاقتصادي، والباب السادس علم الاجتماع المعرفي. وبناء على ما توفر لدي من مراجع انئذ بدأت في كتابة البحث المطلوب.

انقضت عطلة الصيف، وبدا الطلاب والطالبات يتوافدون على مدينة الطلاب. وكذلك حان موعد تقديم البحث الذي طلب مني، فطلب مني الأستاذ أن أراجع بعد أسبوع، وعند الموعد المحدد رافقني إلى مكتب مساعد عميد الكلية، وقدمني إليه قائلاً هذا هو الطالب الجزائري الذي حدثتك عنه، وقد قدم لنا بحثاً مفيداً أرى أنه مؤهل لنرحب به بين طلبة السنة الثانية، كان ابتهاجي عظيماً، فقد ربحت سنة دراسية وسأسجل حالا في السنة الثانية، ولكن سرعان ما عدت إلى نفسي وتذكرت أن المهمة عسيرة تتطلب جهوداً كبيرة، خاصة أن الامتحانات والبحوث ستكون باللغة الوطنية لا بالفرنسية، والحل هو مضاعفة الجهد للسيطرة على أسلوب لغة علم الاجتماع وتعاييره، والاستعانة بزملائي الطلبة.

وجاء فصل الشتاء وبرده القارس، وتلاه فصل الربيع وازدهرت بلغراد بأشجارها وحدائقها، وتقنا اللغة الصربو-كرواتية، وحقق جميع الطلاب الجزائريين تقدماً مشجعاً في دروسهم، ونظم مسؤولو الحزب لقاء مع الطلبة اليوغوسلافيين للتعارف القيت فيه كلمة عن الثورة

الجزائرية، وتحدثت فيه طالبة يوغوسلافية عن دور المرأة في الكفاح في بلادها وفي الجزائر. وطلبت مدرسة أن يزورها عدد من الطلبة الجزائريين للتعارف، فاغتنمت الفرصة لإلقاء نفس الكلمة (المكتوبة) التي ألقيتها في اللقاء الأول .

واستضافت بلغراد عددًا من الجرحى المجاهدين للعلاج فذهبنا لزيارتهم. وزار رئيس الحكومة المؤقتة السيد فرحات عباس يوغوسلافيا فلقى ترحيبًا حارًا. ونظمت الإدارة لنا فرصة لزيارته في مقر إقامته. ويجدر التنويه بمواقف الرئيس تيتو المشرف من الثورة الجزائرية ودعمه لها على الرغم من علاقة بلغراد الطيبة بفرنسا.

ومرت الشهور والفصول. ورغبت في تعلم اللغة الإنكليزية فسجلت في كلية اللغات، وحرصت على إعطاء الأولوية دائمًا للاختصاص الأول. وأعجبت بمبادئ الاشتراكية لأنها بدت لي أكثر إنسانية من النظام الرأسمالي. وإذا كان من حق الطالب في أي مكان وزمان أن يطلع على مختلف العلوم والنظريات والمبادئ... ليتمكن من فهمها وقبولها أو رفضها والرد عليها، فإن الطالب الذي يعيش في بلد شيوعي ملزم بأن يعرف الكثير عن نظام البلد الاجتماعي والاقتصادي، خاصة بالنسبة لطالب يدرس علم الاجتماع، هذا العلم يضم فروعًا كثيرة منها علم الاجتماع الاقتصادي.

أشرت إلى إعجابي بالاشتراكية لأنها تحقق العدالة الاجتماعية التي تعني قبل كل شيء توفير المسكن والغذاء وضروريات الحياة الكريمة. كنت وأنا أسير في مدينة غليزان، ومدينة قسنطينة أشاهد

ذكريات وبصمات

بعض الأشخاص ينامون على الرصيف في برد الشتاء القارس. وما
زلنا نمر بهذه المشاهد المؤسفة في الليل والنهار .

والواقع أن الاشتراكية مبادئ ونظريات ومشروعات مختلفة تطبق
في بلدان كثيرة بأساليب متنوعة وعلى مستويات مختلفة. غير أن
معناها العام، كما عرفها قاموس العلوم الاجتماعية، وهي: (مجموعة
متكاملة من المفاهيم، والمناهج، والتنظيمات، والوسائل السياسية التي
تشارك في رفض المجتمع الرأسمالي، وتؤمن بالتقدم الحتمي للحياة
الاجتماعي، وتؤكد إرادتها في إقامة مجتمع أكثر كفاية وعدلاً، عن
طريق العمل الجماعي الواعي بغية تحقيق المساواة الفعلية بين جميع
الناس، وبين جميع الأمم.

كنا طوال هذه السنوات نتتبع أخبار الجزائر المناضلة وكفاح جيش
التحرير من الجرائد وحيثما وجدنا إذاعة تقدم الأخبار، خاصة بعد
انطلاق (مفاوضات إيفيان الأولى والثانية). وقد حاولت فرنسا إثارة
مشكلات عديدة أمام المفاوضين الجزائريين، وعرضت مطالب كثيرة
تتعارض مع سيادة الجزائر، ولكن وحدة كلمة الوفد المفاوض الجزائري،
وإيمانه العميق بالقضية الجزائرية حال دون المناورات الفرنسية.

وانتهت الثورة بتوقيع وثيقة إيفيان، وإعلان وقف إطلاق النار في
19 مارس 1962ن وتحديد يوم أول جويلية موعد للاستفتاء حول
تقرير المصير، وأعلنت النتائج يوم 3 جويلية، بينما أعلن الاستقلال
رسمياً يوم 5 جويلية 1962.



مدينة بلغراد



مدينة بلغراد



الأزرق بن علو



صورة للأزرق في غرفته



الرئيس تيتو

صورة لاحدى العمارات في مدينة الطلبة



الأزرق بن علو



بعد أن صادق المجلس الوطني للثورة الجزائرية على مسودة لي روس أعلنت الحكومة المؤقتة رغبتها في مواصلة المفاوضات رسميا في مدينة ايفيان الفرنسية أين التقى كريم بلقاسم وسعد دحلب ومحمد الصديق بن يحي، ولخضر بن طوبال وامحمد يزيد وعمار بن عودة رضا مالكوالصغير مصطفى بالوفد الفرنسي: لوي جوكس وروبير بيرون، وبرنار تريكو وبرينو دو لوس وكلود شايي والجنرال دو كماس، في جولة أخيرة من المفاوضات امتدت ما بين 7- 18 مارس 1962. توجت ^{باعلان} توقيع اتفاقيات ايفيان وإقرار وقف إطلاق النار، وإقرار مرحلة انتقالية وإجراء استفتاء تقرير المصير. كما تضمنت هذه الاتفاقيات جملة من اتفاقيات التعاون في المجالات الاقتصادية والثقافية سارية المفعول لمدة 20 سنة. انتهت ثورة التحرير بتوقيع (وثيقة ايفيان) و اعلان وقف اطلاق النار في 19 مارس 1962 و تحديد يوم أول جويلية موعد للاستفتاء حول تقرير المصير و أعلنت النتائج يوم 3 جويلية بينما أعلن الاستقلال رسميا يوم 5 جويلية 1962.

المرحلة السادسة

العودة إلى الوطن



كانت الفرحة كبيرة، ركبنا الطائرة إلى تونس، ومنها توجه كل طالب إلى قريته أو مدينته، وعمت البهجة الأهل والأصدقاء... وكان لسان حالي يردد قول ابن الرومي:

ولي وطن آليت أن لا أبيعـه	وألا أرى غيري له الدهر مالكا
عهدت به شرخ الشباب ونعمة	كنعمة قوم أصبحوا في ظلالكا
فقد أفتته النفس حتى كأنه	لها جسد لولاه غودرت هالكا
وحببت أوطان الرجال إليهم	مأرب قضأها الشباب هنالكا
إذا ذكروا أوطانهم ذكرتهم	عهود الصبا فيها فحنوا لذلك

أجل عدنا إلى الوطن وقد أصبح حراً، ولكن سرعان ما انتابني شعور بالحزن والألم، إذ بدأت أسمع أخبار الشهداء (ومنهم أخي) الذين قتلهم فرنسا.

توجهت إلى العاصمة لأبحث عن عمل، وكان بين الجهات التي اتصلت بها وزارة الخارجية. ولم يمض أسبوعان حتى توجهت لأتسلم عملي في إدارة المراسم (البروتوكول)، كانت مكاتب الوزارة عندنا في حي حيدرة.

ذكريات وبصمات

ومن الأعمال والنشاطات المناطة بإدارة البروتوكول، في كل من رئاسة الجمهورية ووزارة الخارجية تنظيم استقبال الوفود والشخصيات الرسمية من رؤساء، ووزراء، وسفراء... والسهر على ما يتعلق بالحصانة والامتيازات التي يتمتع السلك الدبلوماسي المقيم في الجزائر.

كان وزير الخارجية عندئذ السيد محمد خميستي، وكان النشاط الدبلوماسي في قمته في الأشهر الأولى من استقلال الجزائر. كانت الشخصيات والوفود السياسية والاقتصادية والثقافية تتوالى لزيارة الجزائر.

وفي 11 من شهر إبريل 1963 وقع حادث مؤلم هز الحكومة والشعب الجزائري، فبينما كان الوزير الشاب محمد خميستي خارجاً من مبنى المجلس الوطني وقع ضحية لرصاصة من يد قاتل مجرم، فنقل إلى المستشفى وهو في حالة خطيرة. وأذكر أن السلطة طلبت أطباء من الاتحاد السوفياتي ومن فرنسا. وطلب مني مدير المراسم أن أرافق الطبيبين الذين حضرا من موسكو في تنقلاتهما، وأن أسهر على راحتهما. ظل الوزير الشاب في غيبوبة إلى أن انتقل إلى رحمة الله بتاريخ 1963/4/04 .

بما أنني سأنتقل في عملي من العاصمة إلى مدينة دار السلام، عاصمة جمهورية تنزانيا، لعله من المفيد الإشارة إلى بعض مهام البعثة

الدبلوماسية. فمنها أنها تمثل الدولة التي تعتمدها لدى الدولة المضيضة، وتكون مسؤولة عن متابعة الحوادث والتطورات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وتسهر على إعداد ما يجرى من محادثات بين البلدين، وعلى تحقيق مصالح البلد الذي اعتمدها، ورعاية مصالح مواطنيها. وتعمل على تحقيق التفاهم والتعاون بين الدولتين في القضايا والمصالح المشتركة... وغير ذلك. وقد قيل إن الدبلوماسية هي استغلال أساليب السياسة الخارجية لإدارة المحادثات والمفاوضات بين الأشخاص والمجموعات من أجل حل المشاكل الدولية دون اللجوء إلى القوة. واتبع هذا بفكرة موجزة عن الحصانة الدبلوماسية.

الحصانة الدبلوماسية: هي نوع من الحصانة القانونية وسياسة متبعة بين الحكومات تضمن عدم ملاحقة ومحاكمة الدبلوماسيين تحت طائلة قوانين الدولة المضيضة تم الاتفاق على الحصانة الدبلوماسية كقانون دولي في مؤتمر فيينا للعلاقات الدبلوماسية الذي عقد في 1961.

الحصانة الدبلوماسية مصطلح قانوني للامتياز الذي يمنح إلى بعض الناس الذين يعيشون في البلاد الأجنبية. وهو يسمح لهم أن يظلوا خاضعين لسلطة القوانين في بلادهم. فالسفراء أو الوزراء والوكلاء الدبلوماسيون الآخرون يمنحون هذا الامتياز. ومثل هؤلاء الوكلاء لا يمكن القبض عليهم لمخالفة قوانين البلاد التي يرسلون إليها ولكن إذا خالفوا القوانين المحلية فإن حكوماتهم قد تطالب باستدعائهم، وهناك اتفاقات دولية تنظم معاملة الوكلاء الدبلوماسيين

ذكريات وبصمات

والمكان الطبيعي الذي تشغله السفارات وأماكن المندوبين الرسميين،
والقنصليات في البلاد الأجنبية.

ذكريات من تنزانيا

وفي سنة 1954 كون السكان (اتحاد تنجانيقا الأفريقي) بقيادة
جوليوس نيريري. ونال هذا الاتحاد استقلال تنجانيقا عام 1961 من
الاستعمار البريطاني، كما منحت هذه الأخيرة الاستقلال لدولة زنجبار
عام 1963.

ثم قام رئيس الحزب (الأفروشيرازي) الشيخ عبيد أماني كرومي
عام 1964 بانقلاب ضد السلطان سعيد جمشيد، وأعلن زنجبار
جمهورية، وأصبح رئيساً لها، وأعلن الاتحاد مع تنجانيقا الذي أصبح
يعرف باسم (تنزانيا). وفي تلك الأثناء أتت لي فرصة زيارة جزيرة
زنجبار الجميلة برفقة سعادة السفير السيد نور الدين جودي. ومن
ذكريات الحقبة الجميلة أنني سافرت من مدينة دار السلام إلى
(كيليمانجارو) أعلى قمة في أفريقيا. وفي الطريق شاهدت عدداً من
الحيوانات البرية منها حمار الوحش، والزرافات، وشاهدت أفعى
ضخمة جداً تقطع الطريق في هدوء... إلخ. وفي إحدى المناسبات
زرت مدينة كامبالا عاصمة أوغندا في مهمة غير سياحية، ولكن
الوزارة خصت لي سيارة وسائقاً ليطوف بي حول معالم المدينة.

ومن أجمل الذكريات زيارتي لمحمية (سرينغتي) SERENGATY،

وهي محمية واسعة في شمال تنزانيا تمتد على مساحة أكثر من أربعة عشر ألف كيلو متر، وكانت عندئذ (1964) تضم نحو أربعة ملايين نوع من الحيوانات. وهذه المحمية مشهورة بهجرتين في كل سنة تقوم بها حيوانات نوع () وهي نوع من البقر الوحشي، وبالإضافة إلى هذه الحيوانات يوجد الأسود والنمور، والأفيال، وحمار الوحش، والغزلان، وبقر (البيسون)، ووحيد القرن، والضباع، والطيور الجارحة... وغيرها. وتستغل هذه المحمية كمصدر للسياحة الأيكولوجية.

ومن الذكريات الجميلة أن وزارة الخارجية اقترحت ذات يوم تنظيم مباراة لكرة القدم يكون أبطالها الوزراء من جهة، والسفراء من الجهة الأخرى. وفي اليوم الموعود أخذت آلة التصوير وذهبت لأسجل الحدث الفريد. وكان الرئيس جوليس نيريري يقوم بدور الحكم. ولاحظت أن السفراء أكثر نشاطاً من فريق الوزراء، وقد انتصروا بثلاثة أهداف مقابل هدفين، ولكن المباراة توقفت بعد الشوط الأول بعد أن تعب اللاعبون. ومن الواضح أن الهدف كان للتسلية. وما زالت أحتفظ بذلك الفيلم. وبعد المباراة دعانا الرئيس إلى حفلة عشاء.

ومن المفيد أن أسجل كلمة عن اللغة السواحلية، أو اللسان السواحلي، وهي لغة كينيا وتنزانيا الرسمية. وهي من لغات لابانتو، غير أنها تأثرت كثيراً باللغة العربية، ويقال أنها تتضمن نحو 40/0 من كلمات العربية في لهجاتها المختلفة. وقد كان اللسان السواحلي انئذ لغة الأم لبضعة ملايين من السكان، وكان يتعلمونه نحو ستين مليون نسمة. غير أن اللغة الانكليزية كانت هي لغة المعاملات الرسمية مع الأجانب.

ذكريات وبصمات

وتجدر الإشارة إلى أن الرئيس نيريري كان من زعماء مجموعة الحياض الإيجابي في السياسة الدولية، تلك المجموعة التي كان من أشهر زعمائها الرؤساء جمال عبد الناصر، ونهرو، وتيتو، وسوكارنو، وبين بلة، وكاسترو، وغيرهم. وكانت علاقة التعاون والتشاور وثيقة بين الرئيسين نيريري وبين بلة، وأذكر أن الجزائر أرسلت اثني عشر سيارة إسعاف عام 1964. وقد أحسنت وزراء الخارجية الاختيار عندما أرسلت الأستاذ الشاب الناشط نور الدين جودي كأول سفير أتي جمهورية تنزانيا، وقد سعدت بمرافقته خلال فترة سنتين.





الأزرق بن علو

جماعة من قبيلة الماساي



محمية سيرنغاتي



محمية سيرنغاتي

محمية سيرنغاتي



محمية سيرنغاتي



محمية سيرنغاتي



محمية سيرنغاتي



محمية سيرنغاتي



محمية سيرنغاتي





Greetings from



Zanzibar



سلطان جزيرة زنجبار 1964

تابل القرنفل



جوزة الطيب





القرفة



مجموعة من التوابل

مجموعة من التوابل



المرحلة السابعة

في واشنطن



كان الانتقال من مدينة دار السلام الهادئة إلى مدينة واشنطن، عاصمة الولايات المتحدة يمثل حدثاً هاماً في مسيرة حياتي العملية والثقافية. وتتضمن هذه الورقات بعض الذكريات التي علقت بالذاكرة بعد مرور نحو نصف قرن. وبما أنه لا يمكنني أن أحشد ذكريات وحوادث سبع سنوات في بعض صفحات، سأكتفي بالإشارة بدلاً من التفصيل.

كان عملي في البداية القيام (بالشؤون القنصلية). من ذلك توفير تأشيرة السفر لرجال الأعمال الأمريكيين، ورعاية شؤون عدد من المواطنين والطلبة الجزائريين. وكان عملي كذلك متابعة ما تكتبه الصحف والمجلات عن كل ما يهم الجزائر، وعن العلاقات الجزائرية مع الولايات المتحدة أو مع الدول الأخرى. كما عملت، بمساعدة السيد السفير شريف قلال، على إصدار مجلة شهرية محدودة لتقديم ما يتوفر لنا من معلومات اقتصادية وثقافية واجتماعية أخرى للإدارات والشركات الأمريكية المعنية. غير أن هذه المجلة لم تعمر طويلاً لارتفاع تكاليفها.

وقمت بزيارة لعدد من المسؤولين عن الشؤون السياسية والثقافية في الإدارة الخاصة بشمال أفريقيا بوزارة الخارجية. كما سعت لزيارة

ذكريات وبصمات

عدد من الدبلوماسيين لتكوين قاعدة من المعارف والاتصالات وتبادل المعلومات.

وتجدر الإشارة إلى أن الدول، منذ القديم، تفتح السفارات، وترسل السفراء لدى الدول الأخرى، وتتفق على ذلك مبالغ طائلة بهدف تسهيل الاتصالات، وتوثيق العلاقات، ورعاية مصالحها السياسية، والعسكرية، والاقتصادية، والثقافية... ويتكون الفريق الذي يرافق السفير من عدد من المواطنين (الدبلوماسيين)، ويكون هذا العدد كبيراً أو صغيراً، هاماً أو أقل من ذلك، بناء على أهمية الدولة التي يرسل إليها. فقد يتكون الفريق من مائة موظف أو يزيد، وقد يتكون من ثلاثة أو أربعة أشخاص، وقد يعتمد سفير واحد لدى دولتين أو ثلاثة. ويتكون الفريق عادة من سفير، ومستشار، وملحق تجاري، وآخر ثقافي، وملحق عسكري إذا دعت الحاجة، ومن موظف خاص بفك البرقيات المشفرة، ومن محاسب... الخ.

كنت أحرص على حضور حفلات الاستقبال التي تنظمها السفارات في الأعياد الوطنية والمناسبات الأخرى. وكان يوجد في واشنطن عدد كبير من السفارات والقنصليات، فكثير عدد الحفلات، وهي فرصة للتعرف على الشخصيات الهامة. وأذكر أنني التقيت مرة بوزير الخارجية الأمريكي دين راسك، وسألته: هل أنت متفائل بمستقبل غزو الفضاء في ظل المنافسة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي؟ فأجاب بالتأكيد، وأضاف (في هذه اللحظات يحلق قمر صناعي فوق سماط شمال أفريقيا) .

وأذكر أنه عقد مؤتمر في واشنطن لمناقشة المبادئ والأعمال المتعلقة باكتشاف الفضاء الخارجي واستغلاله، وطلب مني السفير أن أنضم إلى الوفد الذي جاء من الجزائر، فاعتكفت قبل ذلك بأسبوع على مطالعة ما كتبه الجرائد والمجلات حول هذا الموضوع.

وفي نهاية المؤتمر نظمت وزارة الخارجية الأمريكية رحلة إلى ولاية فلوريدا التي توجد محطة (كاب كندي) التي تنطلق منها الأقمار الصناعية، ومكتنا داخل تلك المحطة الضخمة يطوف بنا مرشد حول الآلات والتجيزات العظيمة، ويشرح لنا طريقة عملها بالقدر الموجز الذي يناسب ظروفنا. وسألته هل ممكن أن أخذ بعض الصور.. فأجاب مازحاً (أجل، تفضل ولكن ليس أكثر من تسعين صورة) .

وعندما علمت أن الجامعة الأمريكية تقدم دورات تدريبية لتعليم اللغة الإنكليزية، لمدة سنة سارعت، بمجرد وصولي إلى واشنطن، بالمشاركة في هذه الدروس، وبعد سنة حصلت على شهادة من الجامعة، وعندئذ عجلت بالتسجيل في الجامعة نفسها في البرنامج الدراسي الخاص بشهادة الماجستير.

وأذكر أنه وصل إلى واشنطن وفد جزائري من (ديوان الحبوب..) لشراء القمح، وطلب مني السفير أن أرافق هذا الوفد في محادثاته مع وزير الزراعة.

أثناء الموعد المحدد لتوقيع على (الاتفاق) قال لنا المسؤول في الوزارة (هل اطلعتم على البيان الذي صدر أثر زيارة الرئيس بومدين

ذكريات وبصمات —

لموسكو)؟ وعلمنا أن وزارة الخارجية الأمريكية غير راضية عن ذلك البيان، وتأجل التوقيع على اتفاق شراء القمح بضعة أيام.

ومرت الأيام والشهور، وتوالت في تلك العاصمة العظيمة، وحول العالم الحوادث، ولا يمكنني وأنا أتحدث إليكم بعد مرور أكثر من نصف قرن، أن أستحضر تفاصيل الستينات. ولكن من بين الحوادث التي لا تنسى، وهي (حرب الستة أيام)، وتعرف كذلك بـ (نكسة حزيران)، ودارت هذه الحرب بين إسرائيل من جهة، ومصر، والأردن، وسوريا من جهة أخرى، واستمرت من يوم 5 حزيران (جوان) إلى يوم 10 منه سنة 1967. وكانت النتيجة كارثة كبيرة على الدول الثلاثة وعلى الغرب والمسلمين جميعاً. فقد احتلت إسرائيل سيناء، وقطاع غزة، والجولان، والقدس الشرقية، والضفة الغربية.

قررت الدول العربية، ومن بينها الجزائر قطع علاقاتها الدبلوماسية مع الولايات المتحدة وسحبت الجزائر سفيرها السيد شريف قلال من واشنطن، وقرر السيد بوتفليقة، وزير الخارجية آنئذ، بناء على استشارة السفير الجزائري في واشنطن، وممثل الجزائر في الأمم المتحدة أن يعهد لي بالبقاء في واشنطن لرعاية المصالح الجزائرية (قائم بالأعمال).

ومن الحوادث التي ما زالت عالقة بالذاكرة حكاية شخص يدعى مويز تشومبي (Tchombe) فبينما كان مسافراً في طائرة سياحية في يوم 30 جوان، حول أحد مساعديه هذه الطائرة إلى مطار الجزائر، فوضعه السلطات تحت الإقامة الجبرية. وكانت المحكمة الكونغولية

قد حكمت عليه غيابياً بالإعدام، لارتكابه جرائم منها خيانة الوطن، وإعلانه انفصال مقاطعة (كاتانغا) الغنية عن الكونغو وتأمير مع الاستعمار البلجيكي، ومسؤوليته عن قتل الزعيم الوطني (لومومبا).

وأثناء احتجازه في الجزائر، تلقت عدة مكالمات تليفونية كانت في البداية تعد بتقديم مبالغ مالية كبيرة للجزائر مقابل إطلاق سراحه، ثم تحولت المكالمات إلى التهديد والانتقام من أي سفارة جزائرية. وبقي الخائن تشومبي سجيناً في الجزائر إلى أن توفي في شهر جوان 1969 بأزمة قلبية. ويجدر التنويه في هذا الصدد بأن الجزائر كانت في الستينات حصناً منيعاً للشوار الأحرار الذين يحاربون الاستعمار .

وحدث أن عرضت بعض دور السينما الفيلم الشهير (معركة الجزائر العاصمة)، فأبلغني أستاذ من الجامعة الأمريكية (وكان من جملة أساتذتي) أن طلبته يدعوني إلى الغداء ويرغبون في طرح عدد من الأسئلة حول الثورة الجزائرية، فلبيت الدعوة وأظهر اللقاء مدى اهتمام الطلبة بسياسة الجزائر في دعمها للحركات الوطنية في أفريقيا .

ويسعدني أن أقدم للأجيال الجديدة فكرة موجزة عن إنتاج هذا الفيلم العظيم ومدى ما حظي من نجاح ليذكر الناس بكفاح رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه.

معركة الجزائر (بالإيطالية LA- battaglia di Algerie) هو فيلم جزائري أنتجه المخرج الكبير الإيطالي والراحل جيلو بونتيكورفو عام

ذكريات وبصمات —

1966 بالأبيض والأسود، ويعتبر أضخم فيلم من ناحية التكلفة إذ أن الفيلم كلف مبلغ مليون جنيه ويعتبر مبلغ كبير آنذاك، وقد حقق وقتها نجاحاً كبيراً ولسنوات لاحقة رغم منع عرضه في فرنسا طوال 40 سنة، اكتسب شهرة أكبر مع معطيات واقعنا الحالية، والفيلم يروي فترة من فترات كفاح الشعب الجزائري في العاصمة الجزائرية إبان ثورة التحرير الوطني الكبرى من بطولات شعبية ضد الاستعمار الفرنسي، نال الفيلم جائزة الأسد الذهبي في مهرجان البندقية عام 1966، وجائزة النقد خلال مهرجان كان في نفس السنة، كما حصد ثلاثة أوسكارات سنتي 1967 و 1969 كأحسن فيلم وأحسن إخراج وأفضل سيناريو .

ومن ذكريات تلك السنين أنني سعدت بلقاء السيدة مريم مكيبا ، وهي مشهورة وناشطة سياسية أفريقية (من جنوب أفريقية). وقد حصلت على الجنسية الجزائرية الغينية، والجنسية الجزائرية، ثم على الجنسية الشرفية الفرنسية. وهي تلقبت كذلك باسم (ماما أفريقية). تعرفت عليها وأخذت معها صورة تذكارية أثناء حفلة نظمتها سفارة غينيا على شرفها .

وفي حفلة نظمتها وزارة الخارجية الأمريكية بمناسبة استقلال الولايات المتحدة، يوم 4 جوليت تعرفت على الدبلوماسي الشهير، هنري كسنجر، الذي شغل منصب وزير للخارجية في عهد الرئيسين نيكسون وجيرارد فورد. وقد لعب كسينجر دوراً هاماً أثناء فترة الحرب الباردة، وكان من دعاة سياسة الانفراج مع الاتحاد السوفياتي .

ولد كسينجر سنة 1923 لأسرة يهودية في ألمانيا، وهاجر إلى الولايات المتحدة عام 1938 حيث حصل على الجنسية الأمريكية سنة 1943. درس في جامعة هارفارد، وتولى مناصب عديدة إلى أن أصبح وزيراً للخارجية، حصل على جائزة للسلام مكافأة له على الدور الذي اضطلع به حل حرب فيتنام، وفي حرب 1973 بين مصر وإسرائيل. غير أن سياسته الخارجية خلقت له أعداء كثيرين لدرجة أن كثيراً من الدول والأحزاب تطالب بمحاكمته.

التقيت به في إحدى الحفلات سنة 1969، وعندما تقدم مصور ليأخذ لنا صورة قال لي: ألا ينزعج الرئيس بومدين إذا علم بهذه الصورة؟ فأجبت أن الرئيس أكبر من ذلك بكثير... وله ثقة في رجاله. وحوّلنا الحديث إلى موضوعات أخرى.

وفي تلك الفترة زار الملك حسين واشنطن، واجتمع بالدبلوماسيين العرب، ودار الحديث حول قضية فلسطين وكانت خلاصة كلامه رحمه الله أن الحل في يد أمريكا، غير أن دور اللوبي اليهودي من جهة، وحرص كل من الحزبين الجمهوري والديمقراطي على البقاء في البيت الأبيض من الجهة الأخرى يجعل ميزان اليهود وتأثيرهم على الانتخابات هو المسيطر .

ولا يحق لي وأنا أتحدث عن ذكرياتي، وعن الحوادث التي عشتها في الولايات المتحدة دون أن أشير ولو بإيجاز إلى ذلك اليوم المشهود، يوم 21 يوليو (جويلية) الذي خطا فيه أول إنسان أول خطوة على سطح القمر، وقال (خطوة صغيرة لرجل، ولكنها خطوة عظيمة

ذكريات وبصمات —

للإنسانية). ولعلك لو سألت كثيراً من شبابنا اليوم: متى كانت تلك الخطوة؟ من كان صاحبها؟ ومن كان برفقته؟ لتردد في الجواب.

كنت انئذ (21 جويلية 1969) جالساً بالقرب من المسيح (كنت أسكن في الفيلة الفخمة التي اشترتها الحكومة لتكون إقامة السفير)، وإلى جانبي المسؤول عن شؤون الجزائر في وزارة الخارجية وزوجته، وكنا نستمع باهتمام إلى الإذاعة منتظرين الهبوط على سطح القمر.

حقق العلم المعجزة، وكان الهبوط في منطقة تدعى بحر الهدوء، وخطا نيل أرمسترونغ أول خطوة على سطح القمر، ثم تلاه رفيقه بز الدرر... وجمع الرجلان نحو 21 كيلو من صخور القمر وعينات من التراب، وعاد رواد الفضاء الثلاثة إلى الأرض، وكان ثالثهم مايكل كولينز يقود المركبة الفضائية الرئيسية التي ظلت تدور حول القمر في انتظار الرجلين اللذين هبطا على سطح القمر. وعمت البهجة السكان والعلماء.. وتحقق حلم الرئيس كندي الذي وعد في مطلع الستينات بأن أمريكا ستسبق الاتحاد السوفياتي في رحلاتها إلى الفضاء الخارجي.

خلال السنوات الأخيرة من الستينات زار واشنطن عدد من الرؤساء والزعماء العرب من بينهم الرئيس الحبيب بورقيبة، والملك فيصل بن عبد العزيز آل سعود، ووصل السفير الليبي الجديد إلى واشنطن بعد الانقلاب الذي قام به معمر القذافي، وجاء لزيارتي للتعارف. وزار واشنطن الوزير الجزائري محمد يزيد، وفضل أن يقيم في الفندق، ودخل إلى المطبخ يسأل عما يوجد مما يطيب أكله. وحضر

إلى واشنطن الوزير شريف بلقاسم على رأس وفد للمشاركة في اجتماعات صندوق النقد الدولي، وطلب مني أن أبقى على اتصال بهم أثناء الاجتماعات.

وأود أن أجعل ختام هذه الذكريات مسكاً وعنبراً، بل علمًا ومعرفة، فأشير إلى بعض المعالم الثقافية والحضارية التي تزخر بها مدينة واشنطن.

مؤسسة SMITHSONIAN - التي تشمل على عدد كبير من المتاحف، والمعارض ومراكز البحث العلمي، كما تضم متاحف ومعارض منتشرة في الهواء الطلق، وتتبعها حديقة الحيوانات الواسعة. وأذكر منها:

- متحف التاريخ الأفرو - أمريكي.

- متحف الحضارة.

- متحف تاريخ الولايات المتحدة.

- متحف الهنود الأمريكيان.

- متحف فنون البناء.

- حديقة فنون النحت.

- متحف التاريخ الطبيعي.

- معرض اللوحات الفنية.

- متحف الفنون الأفريقية .

- متحف تاريخ الطيران والفضاء .

- متحف الفنون الأمريكية .

- متحف تاريخ البريد .

وغير ذلك كثير، مع العلم أن تاريخ الولايات المتحدة لا يتجاوز
235 سنة .

والمعلم الثاني هو :

مركز كندي:

هو مركز ضخم لفنون المسرح، والموسيقى الكلاسيكية والحديثة،
والرقص... ويقدم نحو 2000 عمل فني في السنة، ويدعم الفنانين
لإنتاج أعمال جديدة. يزور هذا المركز جماهير عديد من جميع الطبقات.

مكتبة الكونغرس:

تأسست سنة 1800، وتعتبر أقدم مؤسسة فيدرالية في الولايات
المتحدة، وأهم مؤسسة ثقافية في العالم. يوجد فيها أكثر من مائة
وخمسين مليون من الكتب، والبحوث، والوثائق والوسائل الحديثة
الأخرى التي تهدف إلى تدعيم المعرفة.

وبجدر بنا عندما نذكر هذه الكنوز الحضارية والثقافية أن نتذكر
أن تاريخ الولايات المتحدة لا يتجاوز 235، وأنها عندما استقلت عن

بريطانيا عام 1776 لم يتجاوز عدد ولاياتها 13 ولاية ثم توسعت حتى أصبحت 50 ولاية. ألا نعتبر بما حققه الاتحاد، والعلم والعمل لدى من كانوا ينعنون (برعاة البقر). وأذكر أن نسبة السكان الذين كانوا يشتغلون في الزراعة، سنة 1970 كانت لا تتجاوز أربعة في المائة، وكانوا، ولا يزالون ينتجون ما يكفي جميع الولايات المتحدة. أما نحن في البلدان العربية حيث تتجاوز نسبة العاملين في الزراعة لدينا 80%، فكثيراً ما نضطر إلى استيراد غذائنا من أمريكا وغيرها.

وأذكر في هذا الصدد مقولة لأديب فرنسي: (من يملك لغته كمن يملك مفتاح سجنه)، فما عسانا نقول عن شعوب لا تنتج غذائها، هل (تملك مفتاح استقلالها) .

وفي نهاية سنة 1970، جاء دوري للعودة إلى الجزائر، بعد ست سنوات من الوصول إلى مدينة واشنطن في شهر فبراير من عام 1965.





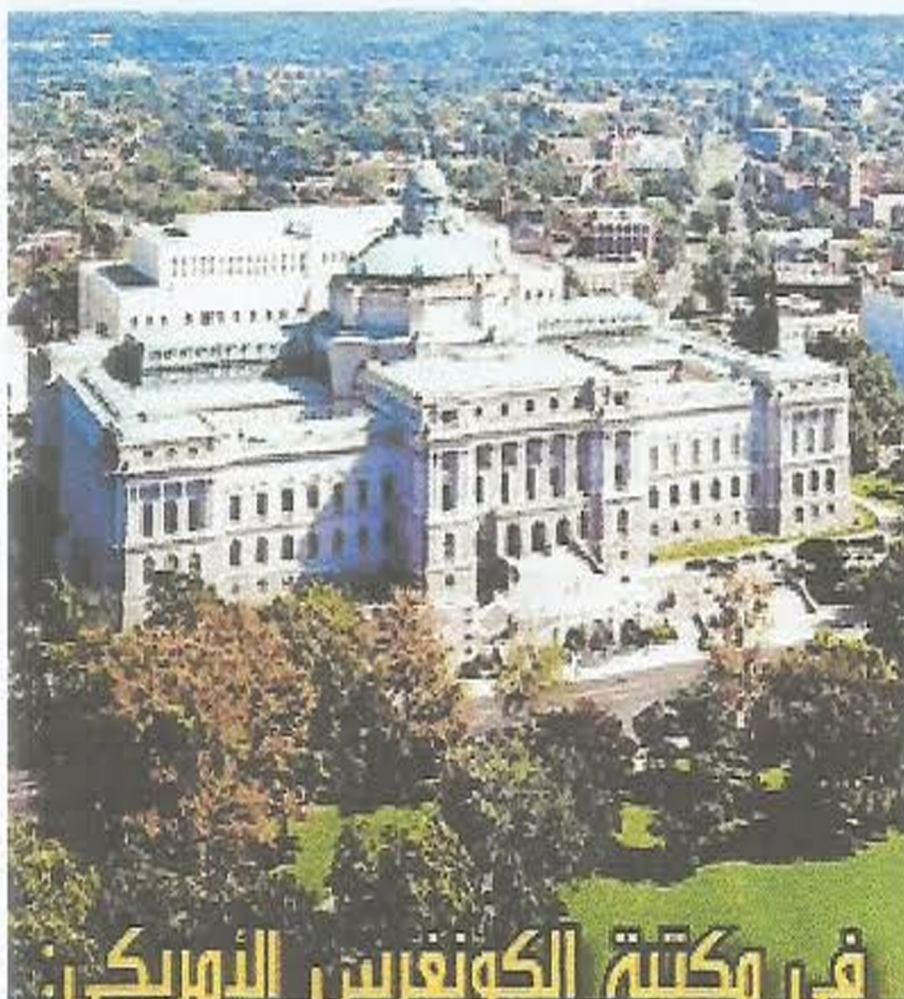
مكتبة الكونغرس



الأستاذ الأزرق بن علو



مكتبة الكونغرس



في مكتبة الكونغرس الأمريكي:

نسخ قيّمة من القرآن الكريم
ومخطوطات عربية في الفقه الإسلامي
وجروبات نادرة من جلود الكتب
تجسّد فن التجليد الإسلامي



تعد أكبر مكتبة في

العالم ، وتقع في ثلاثة مباني مختلفة ويحتوي على حوالي 120 مليون

قطعة ، منها 22 مليون كتاب ، بالإضافة إلى المخطوطات والخرائط والصور الفوتوغرافية والأفلام
والمطبوعات. كما تضم أول خريطة لأمريكا بالإضافة إلى مجموعة توماس جيفرسون الشخصية
أيضا.



مركز كندي الثقافي



مركز سمتونيان الثقافي



The American University

INCORPORATED BY ACT OF THE CONGRESS OF
THE UNITED STATES OF AMERICA
February twenty fourth, eighteen hundred and ninety three

In recognition of the successful completion of the prescribed course of study in the

School of International Service

and by virtue of authority granted by the Congress of the United States of America

has conferred upon
Ben-Allou Lazreg

the degree of
Master of Arts

with all the rights, privileges, responsibilities and honors thereto appertaining.

In Witness Whereof, the Seal of the University and the signatures of duly authorized officers are affixed to this diploma. Given in the City of Washington, District of Columbia, this 25th day of January in the year of our Lord nineteen hundred and sixty nine.

Charles C. Parlin
Chairman of the Board of Trustees
Ly H. Williams
President



Sumner O. Buckner
Dean of Graduate Studies

Frederick Pierson

1969

نسخة من دبلوم الماجستير

معجزة 1969 نزل الإنسان على سطح القمر



المهمة أبولو 11 هي الأولى من نوعها التي تقود إنسان إلى النزول على سطح القمر. كان ذلك في 21 يوليو 1969 ، بعد مهمتين سابقتين لأبولو 8 وأبولو 10 اقتربتا من القمر ودارتا في مدار حوله قبل العودة إلى الأرض. عاد رواد الفضاء إلى الأرض واحضروا معهم نحو 21 كيلوجرام منصخور القمر وعينات من تربته لدراستها في المعامل على الأرض.

- Module Lunar ربان المركبة القمرية - إدوين ألدن .
- القمر القائد) - أول إنسان يمشي على سطح) نيل أرمسترونج .
- Command Module ربان المركبة الرئيسية - مايكل كولينز .

المرحلة الثامنة

العودة إلى واشنطن



في سنة 1971 قررت أن أواصل الدراسة بهدف الحصول على دكتوراه في ميادين (العلاقات الدولية). قدمت استقالتني إلى وزارة الخارجية، وعدت إلى الولايات المتحدة، وانتسبت إلى جامعة جونز هوبكينز (JOHNS HOPKINS) في واشنطن.

اشتريت منزلاً، فأجرت الطابق العلوي، وسكنت في الطابق الأرضي، وجدت بعض العلاقات مع عدد من الأصدقاء، منهم لبناني كان مديراً لقسم الشرق الأوسط في مكتبة الكونغرس الشهيرة. وكنت في أوقات فراغي أقوم ببحوث في مكتبة الكونغرس حول موضوع سلوك الإنسان، ومما يؤثر على حياته من مشاعر وانفعالات سلبية، وأدى هذا البحث إلى تأليف كتاب (الإنسان والقلق).

وبعد مرور سنة طرأت ظروف منعتني من مواصلة الدراسة. وبعد حين حصلت على عمل في شركة أمريكية للتصدير والاستيراد. وقمت بعمل مواز فركزت اهتمامي على كتابة مقالات في موضوعات تهمني هي (العلاقات الدولية). ونشرت قسماً من هذه المقالات في جريدة (الشعب) الجزائرية، وعدد آخر في مجلة (المجاهد).

ومن الموضوعات التي تناولتها بالبحث انئذ: منظمة الأمم المتحدة، وصندوق النقد الدولي والمجموعة الاقتصادية الأوروبية، وسياسات الولايات المتحدة تجاه عدد من الدول مثل كندا اليابان، دول أمريكا الجنوبية، الصراع الدولي حول النفط، مشاكل التنمية في البلدان النامية سيطرة اليهود على سياسة أمريكا، حياة السكان السود في الولايات المتحدة، وقضايا أخرى متنوعة بلغت نحو ستين موضوعاً.

وقد لاحظت في السنوات الأخيرة أن المشاكل والبحوث التي تناولتها في السبعينات ما زالت ترافقنا في مطلع القرن الواحد والعشرين، وأن المحافل الدولية ووسائل الإعلام ما زالت تهتم بتطوراتها، فقررت أن أنشر عدداً منها في كتاب تحت عنوان (بحوث ومقالات من فضاء السبعينات).

ومرت الشهور والمواسم، وزرت بعض الولايات والمدن الأمريكية منها نيويورك، بوسطن، فيلادلفيا، ورتشموند... كما زرت صديقاً عزيزاً من سوريا تعرفت عليه أثناء وجودي بجامعة دمشق وكان أستاذاً في جامعة ولاية (إلينوي). وزرت مدينتي مونتريال، وتورنتو بكندا... إلخ.

ولكن في نهاية المطاف عاد الحنين إلى الوطن، وبدأت أشعر أنني، في هذا البلد الواسع (المتطور) لست سوى رقم في أجهزة الحاسوب. أجل بدأ الحنين، وألح علي العودة:

حنينا إلى أرض بها اخضر شاري وحلت بها عني عقود التمايم
وألطف قوم بالفتى أهل أرضه وأرعاهم للمرء حق التقادم
وقررت أن أتزود، قبل العودة، بأشياء قد لا أجدها في الجزائر،
فاشترت ثلاث موسوعات منها الموسوعة البريطانية، وأرسلتها بالبريد.

ذكريات وبصمات

وفي مطلع سنة 1976 وجدت نفسي معلماً للغة الإنكليزية في جامعة في مدينة بومرداس الجميلة حيث حصلت على فيلا رائعة، ومكثت هناك نحو عامين، ونشرت عدداً من المقالات في مجلة المجاهد.

وفي مطلع سنة 1978، بينما كنت أتصفح أحد دفاتري يرجع عهده إلى أيام معهد عبد الحميد بن باديس رحمه الله، عادت بي الذاكرة إلى الماضي، وتناولت ألبوم الصور واستعرضت في مخيلتي شريط الذكريات... وقرأت في دفترتي العتيق أشعاراً منها:

وإذا الكريم رأى الخمول نزيله في منزل فالحزم أن يترحلا
كالبدر لما أن تضاءل جد في طلب الكمال، فحازه متنقلا

وقول أبي تمام:

وطول مقام المرء في الحي مخلق لديباجتيه ، فاغترب تتجدد
وقول الطغراني:

إن العلا حدثتني ، وهي صادقة فيما تحدث، إن العز في النقل

وغير ذلك من الأشعار التي تحت على الطموح، وتشجع على السفر، وتعدد فوائده وتنتقد عادة الخمول، وتذكر بأن أرض الله واسعة ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ﴾ (الملك: 15) وكنت أنشد أشعر بشيء من الأسف على الاستقالة من الوزارة، فأثارت هذه الأفكار الرغبة في نفسي في السفر، فراسلت عدداً من المنظمات الدولية من بينها منظمة اليونسكو في باريس ومنظمة الأمم المتحدة للأغذية والزراعة في روما، فأجابت الأولى بعقد عمل مؤقت، وأجابت الثانية بعقد عمل طويل الأجل، فكانت الرحلة إلى مدينة روما في ربيع 1978.

المرحلة التاسعة

الرحيل إلى روما



يمتد تاريخ روما على أكثر من ألفين وخمسمائة سنة، وتعتبر من أماكن ولادة الحضارة الغربية، بعد الحضارة اليونانية. وقد ظلت الجمهورية الرومانية، وبعدها الإمبراطورية الرومانية مهيمنة في أوروبا الغربية، وفي الأراضي المطلة على البحر الأبيض المتوسط منذ القرن الأول قبل الميلاد حتى القرن السابع الميلادي. ومنذ القرن الأول الميلادي وروما مقر للبابوية. وفي سنة 1871 أصبحت روما عاصمة لمملكة إيطاليا، ثم عاصمة للجمهورية الإيطالية في عام 1946.

وتحتل روما المرتبة العاشرة بين المدن الأكثر زيارة في العالم، ويقع مركزها التاريخي على قائمة اليونسكو بين مواقع التراث العالمي.

لقد مثل الانتقال من عالم السياسة والعلاقات الدولية، وما درسته ونشرته عنها من مقالات إلى العمل في منظمة الأمم المتحدة للأغذية والزراعة (الفاو)، محطة جديدة في حياتي دامت نحو عشرين سنة، مثل مرحلة جديدة وهامة لأنها شغلت جزءاً كبيراً من حياتي، وجديدة لأن (الفاو) كانت تمثل مكتبة، بل موسوعة، عظيمة لعالم واسع يزخر بالوثائق والبحوث العملية المتعلقة بما تنتجه الأرض والبحار من

ذكريات وبصمات

غلال وغذاء. وتشغل منظمة (الفاو) 1800 موظف مهني متخصص وأكثر من 1800 من موظفي الدعم المهني.

تتولى منظمة الأغذية والزراعة للأمم المتحدة قيادة الجهود الدولية الرامية إلى دحر الجوع. وفي نطاق ما تقدمه من خدمات للبلدان المتقدمة والنامية على حد سواء، توفر المنظمة منتدى محايداً لتلقي فيه البلدان سواسية للتفاوض بشأن الاتفاقات ومناقشة السياسات. وفضلاً عن كونها مصدراً للمعارف والمعلومات، تقدم المنظمة المساعدة للبلدان النامية وبلدان مرحلة التحول لتحديث وتطوير الممارسات الخاصة بقطاعات الزراعة والغابات ومصايد الأسماك، وضمان مستوى جيد من التغذية للجميع. وقد أولت المنظمة منذ أن تأسست عام 1945، اهتماماً خاصاً للمناطق الريفية النامية التي تضم 70 في المائة من الفقراء في العالم .

كانت البلدان التي ترغب في إنجاز مشروع ما، وتشعر بحاجتها إلى المساعدة في مجالات الخبرة والتمويل... تبلغ منظمة (الفاو) بحاجتها، فترسل (الفاو) خبراءها إلى ذلك البلد ليبحثوا المشروع أو المشروعات من جميع النواحي مع المسؤولين، ثم يقدمون تقريرهم إلى الإدارات المعنية في المنظمة لدراسته والتأكد من جدواه وإمكانية إنجازه.

وتتعلق هذه المشروعات بموضوعات زراعية واقتصادية وغذائية مثل تحسين إنتاج أنواع الحبوب، وتحسين وسائل الري للاقتصاد في المياه، ومكافحة الأمراض التي تصيب الدواجن والأبقار، وتربية الأسماك وغيرها من الأحياء المائية في المياه العذبة، وتحسين وسائل

صيد الأسماك، وحماية الغابات والمنتجات الحرجية، وتحلية المياه، وحماية الواحات من زحف الرمال، ومكافحة انتشار الجراد... وكثير من الموضوعات الزراعية التي تتعلق بغذاء الإنسان والحيوان.

وكانت الإدارة التي أعمل فيها تتلقى أعداد كبيرة من الوثائق، والبحوث، والكتيبات والمشروعات التي يعدها الخبراء والمختصون باللغتين الانكليزية والفرنسية، وكان علينا أن نقلها إلى اللغة العربية لترسل إلى جميع وزارات الزراعة والاقتصادية في الدول العربية، كما تستغل هذه الوثائق أثناء المؤتمرات الإقليمية التي يعقدها الوزراء العرب، وكذلك عدد من البلدان المجاورة. وقد حضرت (كمترجم) عددًا من هذه المؤتمرات في قبرص، واسطنبول، وتونس، وأسبانيا، والجزائر... وغيرها. وأثناء العودة من قبرص إلى روما توقفت في أثينا في زيارة دامت أربعة أيام.

وأثناء إقامتي الطويلة في روما، التي تمثل نحو ربع مدة عمري، تعرفت على عدد كبير من الموظفين من بلدان مختلفة، لقد كانت العمارات الخمسة التي تشغلها الفاو (المنظمة) أشبه بمدينة عالمية صغيرة. فقد جهزتها إدارة المنظمة بجميع ما يحتاج إليه الموظف من خدمات مثل المطاعم والبريد، والبنك، ومحلات تجارية خاصة بالموظفين. وكنت أسمع أثناء تنقلاتي في أروقة العمارات الواسعة ومكاتبها ومحلاتها التجارية، وكذلك أثناء تناول وجبة الغداء، أسمع أصوات لغات مختلفة تشكل نوعًا من الضجيج عندما تختلط أحاديث المتحدثين.

ذكريات وبصمات —

وأثناء تلك السنوات الطويلة تعرفت على عدد من الموظفين من مختلف الجنسيات، من اليابان والفلبين إلى الأرجنتين وفنزويلا. غير أن علاقاتي توثقت مع الموظفين ينتمون إلى دول عربية وأفريقية. وكنت مع الأشقاء العرب ننظم لقاءات شبه أسبوعية، وسهرات عائلية خاصة في مناسبات الأعياد. كما كنا نخرج في رحلات ترفيهية أيام نهاية الأسابيع إلى ضواحي روما وشواطئها إذا كانت روما لا تبعد عن الشواطئ أكثر من عشرين كيلو متر .

وأثناء إقامتي اشترت منزلاً في مدينة تولوز في غرب فرنسا، فكنت أقوم برحلتين إليها، في عطلة الصيف وعطلة الشتاء كل عام، والمسافة بين روما وتولوز نحو 1350 كيلو متراً، فكنت أقضي يوماً أو يومين في مدينة نيس للاستراحة. والواقع أن كوني أحمل جواز سفر من منظمة الأمم المتحدة، وسيارة تحمل لوحة (روما) سهل على السفر إلى عدد من البلدان منها ألمانيا، وأسبانيا سويسرا، وبريطانيا وغيرها.

وكذلك قررت استغلال فرصة وجودي في إيطاليا لزيارة عدد من المدن والمواقع التاريخية ومنها :

جبل فيزوف الواقع في شرق مدينة نابولي ، وهو من أشهر الجبال البركانية في التاريخ وقد ثار ثورة مدمرة سنة 79 ميلادي، حدثت أثرها انفجارات نتجت عنها طفوحات بركانية غطت مدينة بومبي ودفنت السكان تحت الرماد الملتهب، كما غطت الطفوحات والغازات الملتهبة مدينة هيركوليوم المجاورة. وقد ظلت هاتان المدينتان مختفيتين تحت الرماد لمدة سبعة عشر قرناً.

وأثناء وجودي في نابولي زرت، برفقة أصدقاء من لبنان، جزيرة (كابري) الساحرة التي يحلم كثير من الشباب أن يقضوا فيها شهر العسل، وكثيراً ما يغني الفنانون بجمالها .

وفي مناسبة أخرى توجهت مع صديق من سوريا إلى الشمال فزرتنا مدينة (بيزا) التي تشتهر ببرجها المائل، وكاتدرائيتها الرخامية الشهيرة. ومن هناك إلى الساحل الإيطالي حيث زرتنا (البيا) وأثناء جولتنا السياحية في الجزيرة مررنا بالمنزل الذي أقام فيه نابليون أثناء نفيه إلى الجزيرة في شهر ماي 1814 .

وكنت أرغب في زيارة مدينة فينيسيا فتحقق لي ذلك سنة 1990 . وتعرف هذه المدينة باسم (مدينة المياه)، و(مدينة الجسور)، و(ملكة الأدرياتيكى)، أنها مبنية على 117 من الجزر الصغيرة التي تفصل بينها 150 قناة .

ومن الإنصاف قبل إنهاء هذا الموضوع أن أختتم بوصف بعض الآثار التاريخية التي تزخر بها روما . إنها توصف بأنها أكبر متحف مفتوح في أوروبا . ومن المعالم التي تجذب السياح إليها المسرح الروماني المعروف باسم (كولوسيوم) الذي يرتفع أربعة طوابق، ويتسع لـ 55 ألف متفرج وكان مركزاً للترفيه تحضره الجماهير لمشاهدة مباريات المبارزة حتى الموت .

وتضم روما ثماني مسلات مصرية قديمة، بالإضافة إلى خمس مسلات رومانية . وتشتهر روما بتوافير المياه التي تعبر عن مهارة نحت

ذكريات وبصمات

فنية رائعة، منها نافورة (تريفي)، وهي أكبر نافورة في روما، ونافورة الأنهار الأربعة التي تقع في ميدان نافونا، ويعبر نهر تايبير عدد من الجسور الرومانية يعود تاريخها إلى القرن الثاني الميلادي، ويزين أحد هذه الجسور ثمانية ملائكة من تصميم الفنان برنيتي.

ويحسن القول بأنه من الصعب على الزائر أن يحصى عدد المتاحف والمعارض الفنية. وتشتهر روما بأكلات (الباستا) (المعكرونة)، وغيرها. كما تشتهر المدينة بالحدائق العامة الواسعة وبالمساحات الخضراء، وغير ذلك كثير .

وأخيراً دق جرس الاستراحة (ولا أقول التقاعد)، أعني الاستراحة من الوظيفة لا من العمل. بدأت أفكر ماذا أفعل بعد مغادرة المنظمة؟ هل أتجول في الشوارع، ألجأ إلى المقاهي والحدائق؟ وطلب مني المدير أن أبقى على اتصال معه .. قد يدعوني من حين لآخر للقيام بعمل مؤقت عندما يتراكم العمل لديه في مواسم محددة.

مبنى المنظمة



持證人之外觀
DESCRIPTION OF BEARER
SIGNALEMENT DU PORTEUR
ПРИМЕТЫ ПЕРЕДАВШЕГО
DESCRIPCIÓN DEL PORTADOR

身軀: 5 FT., 5 IN., 1,65 M.
Height: 5 FT., 5 IN., 1,65 M.
Taille: 5 FT., 5 IN., 1,65 M.
Pocrt: 5 FT., 5 IN., 1,65 M.
Estatura: 5 FT., 5 IN., 1,65 M.

髮色: BLACK
Hair: BLACK
Cheveux: BLACK
Цвета волос: BLACK
Cabello: BLACK

出生日期: 24 DECEMBER, 1936
Date of birth: 24 DECEMBER, 1936
Date de naissance: 24 DECEMBER, 1936
Дата рождения: 24 DECEMBER, 1936
Fecha de nacimiento: 24 DECEMBER, 1936

特徵: NIL
Distinguishing marks or features: NIL
Signes particuliers: NIL
Особенности: NIL
Señas particulares: NIL

UNITED NATIONS
NATIONS UNIES
LAISSER-PASSER

UNITED NATIONS
NATIONS UNIES

SA 48711

UNESCO

نسخة من جواز السفر



الأزرق بن علو



(c) 2019 CHRISTOPHER CHAN

نافورة "الأنهار الأربعة" ساحة نافونا



صورة لعدد من الزملاء و الزميلات في العمل من مختلف
البلدان



الأزرق بن علو

صورة لزاوية من قاعة الجلوس في منزلي



صورة لزاوية من قاعة الجلوس في منزلي



مرحلة التقاعد تونس



كان كثير من الموظفين في المنظمة، بعد تقاعدهم، يفضلون أن يظلوا معتكفين في مكاتبهم للقيام بأعمال مؤقتة. وقد رفضت هذه العادة، بل فضلت أن انخرط في الحياة الاجتماعية والثقافية.

قررت أن أستغلّ وقتي في مجالات ثقافية، ولكن ترددت في أول الأمر حول موضوع البحث الذي أودّ أن أركز عليه هل يكون علم الاجتماع، علاقات دولية، حقبة تاريخية محددة، شخصية أدبية هامة، إحدى الشخصيات التي تركت بصماتها على الحوادث... أو غير ذلك؟ أم بدلاً من البحث العمق والمطول حول موضوع واحد، أتجه إلى الجمع بين موضوعات عديدة: أدبية، وتاريخية وأخلاقية، وعقائدية، من بلدان وقارات وأزمنة مختلفة ومتباعدة.

قررت أن أركز على هذا المنهاج الأخير، خاصة وأن ثقافتني ليست مركزة على موضوع متخصص. لذلك كانت بحوثي بعد التقاعد تتناول أعداداً كبيرة من الأدباء، والشعراء، والحكماء، والزعماء، والملوك، والحكايات، من مختلف الحقب والثقافات العالمية. وساعد على هذا الإتجاه أنني أحسن أربع لغات، وأن مكتبتي أصبحت مزدهرة بعشر موسوعات، ومئات الكتب بمختلف اللغات.

ومما شجعني على هذا المنهاج في الكتابة شعوري بأن معظم

ذكريات وبصمات

الناس، في عصر السرعة، أصبحوا يميلون إلى (المختصر المفيد)، هذا باستثناء أصحاب التخصص، لذلك اتبعت المقولة (خير الكلام ما قل ودل). واخترت لهذه المجموعة من الكتب اسم (سلسلة عالم الثقافة). وهي مؤلفة من اثني عشر كتاباً، تمّ طبعتها في القاهرة، بعد أن واجهت صعوبات وتهاوناً كبيراً من طرف دور الطباعة في الجزائر. وقد أسفت، بل وحزنت لذلك، وما زلت مستعداً لإعادة طباعة كتبتي في الجزائر إذا تعهدت إحدى دور الطباعة بطباعتها في مواعد محددة.

وللتدليل على ما تحتويه (سلسلة عالم الثقافة) من موضوعات ثقافية متنوعة ومفيدة وعالمية ومنها :

- ملخصات عن الأدب اليوناني، والروماني، والإنكليزي، والفرنسي، وموضوعات تاريخية وفلسفية.
- أخبار عن ملوك ، زعماء، وحكماء، وشخصيات، عاشوا في فترات تاريخية متباعدة.
- مقتبسات من الحكم ، والأمثال ، والأقوال المأثورة ، والحكايات التاريخية... وكلها تتعلق بالإنسان، وأخلاقه وأعماله.
- منتخبات من الشعر العربي والأجنبي تتحدث عن حياة الإنسان، وأخلاقه وعلاقاته مع المجتمع ومشاكله الحيوية.
- نصوص مقتبسة من القرآن عن أخلاق المسلم، ونصوص أخرى مقتبسة من الإنجيل والتوراة.

- كتاب عن القلق والانفعالات والمشاعر السلبية يتضمن نصائح عملية إيجابية.

- ملخصات حول فجر الإسلام، وعن الحضارة الإسلامية وعلمائها، ومقالات عن (اليوطوبيا) وعن الخير والشر، والطبيعة والقوانين، وموضوعات اجتماعية وفلسفية حول حياة الإنسان...

والخلاصة أن (سلسلة عالم الثقافة) ثروة ثقافية عالمية تتناول موضوعات عديدة حول التربية والتعليم، وبقايات من الحكم والأمثال والمواعظ، وتقدم نصوصاً أدبية، وتاريخية، واجتماعية تمثل إثراء إيجابياً للغة العربية، واكتفي بهذه الفكرة الموجزة لأنه لا يمكن تلخيص محتويات اثني عشر كتاباً في صفحة واحدة .

لقد كنت أثناء حياتي طالب علم، لذلك كان أعظم حدث في حياتي هو رحلتي الأولى نحو معهد عبد الحميد بن باديس رحمه الله. وكم كان سروري عظيماً عندما علمت بعد أربع سنوات أنني بين المجموعة التي وجهتها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين إلى بلدان الشرق العربي لمواصلة الدراسة. وما زلت أفخر بمن لقيت من علماء الجمعية المجاهدة المباركة أثناء دراستي بالمعهد الباديسي.

وأكرر شكري، واعترافي، واعتزازي، في كل مناسبة، بما قدمته الجمعية للشباب الجزائري من فرص التعلم والتعليم. وأخص بالذكر الجهود التي بذلها العلامة الشيخ إبراهيمي، رحمه الله أثناء زيارته المتكررة للدول العربية، واتصالاته بعلمائها وزعمائها ساعياً لتوفير

ذكريات وبصمات —

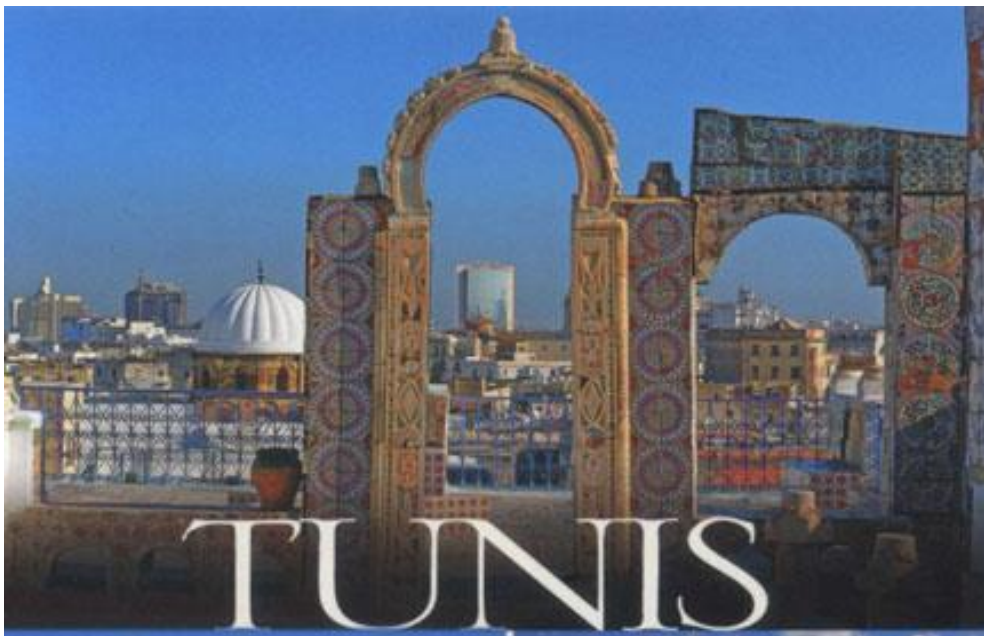
فرص للطلبة الجزائريين لمواصلة دراستهم في جامعاتها، والنتائج تحدث عن نفسها.

وأخيراً أقول للقارئ الكريم، وأنا في قمة الثمانينات، أن المال، والمركز، والسلطة.. قد تساعدك على تخفيف تكاليف الحياة، ولكن لا تحقق دائماً السعادة المرجوة، ولا تحقق لك الذكر الحسن بعد سفرك الأخير، ما لم تعمل أعمالاً صالحة للوطن وللمجتمع، بل سرعان ما تتغلب مشاغل الحياة ومطالبها وهمومها على الناس من بعدك، وعلى الأقرباء والأصدقاء... ويغطيك النسيان فتصبح كما قال الشاعر :

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس، ولم يسمربمكة سامر

أجل سيطويك النسيان ما لم تقدم لوطنك، ومواطنيك، ولآخرتك أعمالاً خيرية صالحة، وصدقات جارية عظيمة أو مادية، وأنتجت ما ينفع الأجيال التي تعمر الأرض بعد سفرك. فاعمل لحياتك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً. ﴿ وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ (التوبة : 105). صدق الله العظيم.





TUNIS

مشاهد من مدينة تونس



جامع (جامعة) الزيتونة





من رئيس الإتحاد التونسي للتضامن الإجتماعي
إلى
الأستاذ الأزرق بن علو

أما بعد ، فقد تلقينا منكم على سبيل الهبة خمسين
نسخة من كتابكم **الرحلة** ، أساطير ، تاريخ ، أدب ، حكايات ،
ونحن إذ نشكر لكم هذه المبادرة ، فإننا لعلى يقين بأن ذلك
يشكل دعما مهما لحملة جمع الكتب التي يتولاها الاتحاد التونسي
للتضامن الاجتماعي لفائدة التلاميذ والطلبة من ذوي الدخل
المحدود .

مع تجديد شكري وخالص تقديري . والسلام .

عن رئيس الإتحاد

مدير الشؤون الإدارية
والاجتماعية

جمال الدين عبد النظيف







فرضام في: 22 سبتمبر 1998
الرقم: 382 / 98

إلى السيد الأزرق برعلو

تحية طيبة وبعد .

يسعدني أن أتوجه إليكم بفتق عبارات الشكر وخالص مشاعر المودة لما قدمتموه من زاد معرفتكم وعلمكم لاثراء مكتبتنا، فهذه المجموعة النيرة من كتبكم ستفيد حتما قراء المجمع .

تفضلوا سيدي بقبول أسمى عبارات الشكر والتقدير .

والسلام

رئيس المجمع

عبد الوهاب بوحديبة



النجم الدستوري الديمقراطي

لجنة التنسيق بالمرسى

نهج عبد الحفيظ المكي - المرسى

الهاتف: 71.775.188 - الفاكس: 71.775.496

المرسى في: 19 ديسمبر 2005

عدد 25

رسالة شكر

من الكاتب العام لجامعة المرسى

الى الاخ

الازرق بن علو

تحية تليق بمهامكم الرفيع

إن خير ما أوصى به سيادة الرئيس **زين العابدين بن علي** هو إرساء مبدأ تبادل الثقافات بين المبدعين ورجالات الثقافة العربية .

أخي الكريم لقد وصلتنا مجموعة كتبكم القيمة وتقبلناها بكل أريحية وإذا دلت هذه فهي على حسنكم المرهف لنشر الثقافة العربية في سائر الأمم العربية .

بهذه المناسبة نتوجه إليكم بأسمى عبارات الشكر و التقدير ونتمنى أن يضلّ التعاون الثقافي قائماً بيننا .

وفي الختام تقبلوا منا أخي الكريم فائق الإحترام والتقدير .

والله

الكاتب العام

الاع الدين الزويبي





الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
أكاديمية المجتمع المدني الجزائري
Académie de la Société Civile Algérienne



شهادة شرفية

بمناسبة إنعقاد الندوة الألفية الثامنة لأكاديمية المجتمع المدني الجزائري لولاية غليزان
حول موضوع ثقافة الإنتماء و أسئلة الهوية يومي 14 و 15 ديسمبر 2008 .

يكرم السيد(ة) **بن علوزرث** عرفانا له بالمجهودات التي قدمها خدمة
للمجتمع المدني و المصلحة العامة.

رئيس المكتب الوطني للأكاديمية
الإسكندرية





كلمة إلى الجيل الجديد



يسعدني الشعور بأنني عشت، وما زلت، وسط ثلاثة أجيال، جيل الثلاثينات، جيل الستينات، وجيل التسعينات والذي تلّوهم من الشباب. وبما أن كلمتي هذه تقتصر وبإيجاز على موضوعي (العلم والعمل) افتتحها بقوله تعالى:

- ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الزمر: 9)؟

- ﴿وَقُلْ اْعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ (التوبة : 105).

- ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِّمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ (الأنعام:132).

- ﴿لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ (يس:35).

وجاء في الحديث الشريف :

- (اغتمت خمساً قبل خمس ، حياتك قبل موتك، وصحتك قبل سقمك، وفراغك قبل شغلك، وشبابك قبل هرمك، وغناك قبل فقرك).

الإنسان مستودع تكمن في نفسه طاقات هائلة لا يستغل إلا جزءاً قليلاً منها، مع أنها جاهزة للاستعمال لكل من يعرف كيف يستدعيها ويوجهها عند الحاجة، غير أن معظم الناس يعيشون على ما يلتقطون من فتاة طاقاتهم وقدراتهم القريبة من السطح دون الغوص إلى الأعماق.

ذكريات وبصمات —

جاء الإنسان إلى هذا العالم ليضيف إليه شيئاً جديداً مفيداً للبشرية، وليس فقط ليأخذ منه فماذا أضفت أيها الشاب، أيها الكهل، أيها الإنسان إلى هذه الحياة؟ ماذا قدمت لنفسك؟ لأسرتك؟ لبلدك، للبشرية من أعمال مفيدة؟ ولا تسأل ماذا قدمت لي بلادي، بل ماذا قدمت أنت لشعبك وبلادك؟.

ولا شك في أن مفتاح النجاح الأساسي هو العلم، وسبيله الأوحيد هو العمل. العلم والعمل! إنهما جناحا الطائر الذي لا يمكنه أن يحلق في سماء النجاح إلا بهما معاً. فالعلم بلا عمل كشجر بلا غلال، ونحل بلا عسل، وسحاب بلا مطر. فالعلم والعمل معاً هما اللذان نقلنا الإنسان من العصر الحجري إلى عصر غزو الفضاء.

العلم والعمل ركيزتان يَشِيدُ عليهما نجاح الأفراد وقوة الشعوب، هما أساس كل حضارة مزدهرة. ولكن ينبغي أن ترافقهما صفات أخلاقية تضمن بلوغ الأهداف المنشودة، ومنها الجِدُّ والمثابرة، والحماس، والطموح، وعلوُّ الهمة...

يقول الحكيم بوذا: عملي هو جنسي، وملجئ، هو الذي يجدد حياتي، ويتحكم في مصيري.

وسئل ديموستينيس: ما هو أهم شيء في الخطابة؟ فأجاب: (العمل) وكررها ثلاث مرات.

ويقول بعض الشباب: (الله غالب، انتظر حظي).

هل الحظ هو الذي بنى الأهرام، وألف الإلياذة، وأوحى إلى الأصفهاني بكتاب الأغاني، وألهم شكسبير بمسرحياته، وإلى أديسون باختراعاته... يقول هذا المخترع العظيم: لم أرَ ممّا رأيت رجلاً حسن الأخلاق، مجدّ في عمله، حازم في تصرفاته، يشكو من سوء الحظ.

ويقول الفيلسوف والأديب الكبير فولتير: إن أهم لغة هي تلك التي تزخر قواميسها بأكثر عدد من أسماء الحرف والمهن.

ويقول الشاعر الألماني غيته: إن تسعة أعشار العبقرية هي ثمرة الجِدِّ والاجتهاد والمثابرة.

وهل الحظ هو الذي دفع اليابان إلى ذلك التطور الرائع؟ وهل الحظ هو الذي أنزل البشر فوق القمر؟

العلم مصدر القوة، ولكنه لا يصبح قوة إلا إذا دخل مرحلة الإنجاز والإنتاج والتطبيق، فالعمل هو القوة الحقيقية إذا وجهه العلم .

فاعلم أيها الشاب أن أعظم قوة لم يتم استغلالها كاملة، كامنة تحت قبعتك أو (طربوشك). إن أشد ومضات العلم بريقاً لا تجدي شيئاً إذا لم تجد لها تطبيقاً عملياً في الحياة اليومية.

العلم يعطي صاحبه وزناً اجتماعياً، والعمل يضفي عليه إشعاعاً، والناس يشاهدون الإشعاع قبل مشاهدة الوزن . فالعلم لا يكون مفيداً إلا بالعمل، والعمل لا ينمو ولا يزدهر إلا بالعلم. وقد تطورت الزراعة، مثلاً، بفضل العلم في الولايات المتحدة، فأصبحت تنتج ما يكفيها

ذكريات وبصمات —

وتصدر لعدد من البلدان، مع أن نسبة العاملين في الزراعة لا يتجاوز ثلاثة في المائة.

ولا يمكن لبلد أن يتطور ويزدهر إلا إذا تيقن المواطن بأنه يوجد من الكرامة والفضل والتقدير والأرباح ... في خدمة الأرض بقدر ما يناله من إنتاج السيارات أو يؤلف كتاباً. ولعل هذا سيشجع شبابنا على التوجه لخدمة الأرض، فنقلل من الاعتماد على استيراد غذائنا من دول أخرى.

إن الحياة أمانة في عنقك أيها الشاب، فاحملها أيها الشاب، فاحملها كأمانة سماوية، وانهض تعلم واعمل وتقدم. فمهمتك ليست أن تتأمل المشروعات البعيدة، بل أن تنجز ما هو مائل أمامك. والحياة الحقيقية هي أن يتعلم الشاب شيئاً جديداً كل يوم، وأن ينتج شيئاً جديداً كل يوم، ومن لا يتعلم، ولا ينتج، ولا يطمح إلى شيء جديد فهو (لا شيء).

إن الشاب الذي يتعب، ولم يتألم، لا يقدر الملذات المادية والروحية. وإذا لم يعرف مرارة الفشل، لا يقدر حلاوة النجاح، وإذا لم يخطئ لا يقدر لذة التجارب، وإذا لم يذق مرارة الحيرة والمعانات لا يقدر متعة الهناء والاطمئنان، وإذا لم تهز نفسه مشاعر الشك والخوف والقلق فهو لا يعرف متعة النجاح والشجاعة. وعلى قدر أهل العزم تأتي العزائم، والجِدُّ في الجِدِّ والحرمان في الكسل.

ليست هذه الحياة بدرب معبد، ولا بملبس مزخرف، ولا مسكن

للكسالى والضعفاء... فعندما خلقت الحياة فوق هذه الكرة الجميلة ونطقت بأول كلمة، قالت: (البقاء للأصلح).

هناك فئتان من الناس، فئة تبني وترفع، وفئة تستند عليها، فهل تفضل أيها الشاب أن تكون من الفئة الأولى، أم ممن يستندون على غيرهم؟ وأن تعيش مثل الأعشاب الضارة المتطفلة التي تسرق الغذاء من تربة النباتات الجميلة؟ الجد في الجد، والحرمان في الكسل...

العلم يبني بيوتاً لا عماد لها والجهل يهدم بيت العز والشرف وليس من المهم أن تولد سيداً، أو من (أشراف القوم)، بل الأهم أن تسود بعلمك وبما تنتج مما ينفع البلاد والعباد:

لا تقل أصلي وفصلي يا فتى إنما أصل الفتى ما قد حصل ولا تسأل: ماذا قدمت لي بلادي، بل اسأل نفسك ماذا قدمت أنت لبلادك.

وإذا لم تستطع أن تقود الحوادث، فلا أقل من أن تواكبها، وإذا لم تستطع أن تكون ريان السفينة، فكن نائبه، أو عاملاً ناشطاً فيها. وإذا لم تتمكن من مواصلة تعليمك، فعليك أن تتعرف على أحسن مواهبك ومهاراتك وميولك، وأن تتجه إلى ميدان المهن والحرف، وما أكثرها.

ألا نلاحظ أن المواطنين يبحثون عن يصلح الأجهزة الكهربائية والإلكترونية، وشبكات المياه؟

لقد أصبح من الصعب الحصول على لحام (سباك)، (بلومبي)

ذكريات وبصمات

ماهر؟ وأكرر: إذا لم تستطع أن تكون شمسًا، فكن نجمًا ساطعًا في ميدان المهن، وإذا لم تستطع أن تكون شجرة أرز على ربوة عالية، فكن شجيرة ريحان تعطر الحدائق.

ليس في وسعك أن تطيل حياتك ، ولكن يمكنك أن تجعلها حياة طيبة مفيدة ونبيلة. كن من المعريين القائلين:

فلا نزلت علي ولا بأرضي سحائب ليس تنتظم البلادا

ولا تكن من الفراسيين القائلين :

(إذا مت ظمآنًا فلا نزل القطر).

وهذه نصيحة إلى شباب الجيل الجديد، وإلى من سبقوهم: تعلموا لغتكم ، حافظوا عليها. فإن من يهمل لغته إنما يهمل جزءًا من شخصيته، ومن يملكها كمن يملك مفتاح سجنه. واذكر بمبادئ جمعية العلماء المسلمين الجزائريين:

- الإسلام ديننا .

- الجزائر وطننا .

- العربية لغتنا .



القسم الثاني

مقتطفات من كتب المؤلف



كلمات تنعش الحياة



السعادة

السعادة:

يروى عن كونفوشيوس أنه قال : «لا أشعر بالسعادة ما دام شخص واحد يعاني الشقاء» . فهو إذا يبحث عن الكمال. وإذا كان الكمال هو معيار السعادة، فهي إذا حلم يصعب تحقيقه، ولكن الإنسان تعود أن يسعى وراء الكمال والمثل العليا.

ونلاحظ في الحياة اليومية أن هناك حوادث كثيرة تجعل الناس يعربون أثناءها عن شعورهم بالسعادة، ولو أنها لا تدوم إلا ساعات أو أياماً. مثال سعادة الحبيب عند لقاء حبيبه؛ والأم التي يعود ابنها من ساحة الحرب؛ والمريض الذي يشفى من مرض خطير؛ والفقير الذي بلغه أنه ورث ثروة كبيرة... إلخ وهكذا تملأ السعادة النفس بالبهجة والانشراح والحب ولو مؤقتاً، وتجعل المرء يشعر بالمتعة والحيوية والانتعاش كأنه في حلم.

ألكسندر لويين (طبيب)

من صفات الرجل السعيد :

السعيد حقاً من لا يخضع لإرادة غيره؛ سلاحه هو تفكيره الحر النبيل؛ مهارته العظيمة هي الحقيقة البسيطة؛ لا تتحكم فيه انفعالاته؛ ولا تقيده رغبة في المال والشهرة؛ لا يحسد من ينالون الشهرة بالحظ أو بالرديلة.

ذكريات وبصمات

السعيد حقاً من يخضع لمبادئ الخير والفضيلة، لا لمبادئ السلطة.

لا يطعم من يمدحونه، ولا يحطم من ينتقدونه؛ مثل هذا الرجل لا يقلق إذا لم ينل السلطة والجاه؛ ولا يخشى أن يسقط منها.

إنه سيد غنيُّ بنفسه، وإن لم يكن صاحب الأملاك والسلطة.

سير هنري وتُن⁽¹⁾

السعادة؛

السعادة مثل إناء من البلور الثمين، انكسر وتبعثر منه مئات القطع الصغيرة في أماكن متعددة، فلا يستطيع شخص أن يلتقطها جميعها. قد يجد شخص قطعة منها ترمز للجمال، ويجد آخر قطعة تمثل الثروة، وثالث قطعة ترمز للصحة، أو الحب، أو السلطة... إلخ.

والحكيم من يحاول أن يجمع أثناء رحلة حياته، أكبر عدد من القطع المبعثرة، ويحاول أن يناغم بينها ويستغلها (أي المال، الصحة، الحب...)، لأنه لا يمكن لشخص واحد أن يعثر على جميع عناصر السعادة المبعثرة.

برسيلا ليونارد

(1) شاعر إنكليزي، 1568 - 1639.

نصائح خبير:

- السعادة ليست شعوراً يكتسب من المحيط، من الخارج فقط، بل إنها حالة داخلية تتبع من أحشاء الإنسان، من فكره؛ فحاول أن توجه تفكيرك وخيالك واهتمامك نحو الخير والجمال.
- لا تحاول أن تغيّر العالم لينسجم مع ظروفك، بل عدل تفكيرك ونشاطك لينسجم مع العالم من حولك.
- الفكر، مثل البدن، يحتاج إلى الغذاء، فحاول، مهما كان سنك، أن تقرأ شيئاً يقوي ثقتك بنفسك، ويوسع معارفك بالحياة، ويوجهك نحو الخير.
- ابدأ غيرك بالتحية، انطق بالكلمة الطيبة، كُفَّ عن انتقاد الناس.
- حسن مظهرك، نظم حياتك اليومية، وأعط جزءاً من وقتك لمشاركة الناس ومساعدتهم.
- خصص لنفسك نصف ساعة تختلي فيها بنفسك في عزلة وهدوء، لتسترخي وتسترخ من ضجيج الحياة، ولتشحن «بطاريتك» من أجل أن تستأنف نشاطك برغبة وحماس.
- لا تبخل على نفسك بالملذات البريئة، بل تمتع مع أهلك وأسرتك وأصدقائك بما ينعش النفس ويخفف من توترات الحياة.
- مجرد التفكير في الانتقام والحقد والكراهية يتعب الأعصاب؛

ذكريات وبصمات —

وهو مضيعة للوقت والطاقة، ومجلبة لمزيد من القلق والتوتر.
سامح، إعف، أصلح ذات البين... تنعم براحة البال.

دليل كارنيجي⁽¹⁾

سهم وأغنية :

رمى سهماً في الهواء، سقط بعيداً في مكان مجهول؛ غنيتُ
أغنية، انتشرت في المحيط. ومضيت أتجول، فوجدت السهم قد جرح
غصناً، ووجدت قلباً مرحاً يردد ألحان أغنيتي.

ه. و. لونغفيلو

من وسائل الحياة السعيدة :

إليك يا عزيزي ما أرى أنها من وسائل الحياة السعيدة: قطعة
أرض خصبة؛ سعي وراء الرزق دون إفراط ولا تفريط؛ جسم سليم
وفكر مطمئن ونفس راضية لا تؤرقها المقلقات؛ صديق عاقل لا يحسد
ولا يخاصم ولا يشتط في الجدل؛ حياة متواضعة تتسم بالاعتدال،
خالية من المظاهر البراقة المغرية؛ غذاء بسيط متزن؛ ليل هادئ تسوده
المودة، ولا تفسد فيه الخمرة صحوه الفكر؛ زوجة وفيّة بشوشة تتوج
العلاقات الأسرية بحبها.

هنري ه. إيرل أوف ساري⁽²⁾

(1) صاحب الكتاب الشهير «دع القلق واطلب الحياة».

(2) شاعر إنكليزي، 1517 - 1547.

قناعة : من شعر أبي العتاهية:

رغيفٌ خُبزِ يابسٍ تأكله في زاويه
وكوزٌ ماءٍ باردٍ تشربه من صافيه
وغُرْفَةٌ ضَيْقَةٌ نفسُك فيها خاليه
أو مسجدٌ بمعزلٍ عن الورى في ناحيه
تدرسُ فيه دفتراً مُستنداً لساريه
مُعتبراً بمنْ مَضَى من القرون الخاليه
خيرٌ من الساعاتِ في فيءِ القصورِ العاليه

انت وأنا :

أنتِ وأنا، بعيدين عن العالم، في هذه الزاوية إلى جانب قنديل
وبعض الكتب، وإبريق الشاي، السكون عميق، ولكنك تسمعيني
وأسمعك من غير كلام. وفي هذا البيت الصغير والمشهد البسيط
توجد جواهر من جميع ألوان اللطافة والرقّة والمحبة، بعيداً عن التكلف
والمكر والمظاهر الخداعة.

إننا لا نستطيع أن نغزو العالم، ولا أن نغيّر أدمغة المجانين، ولكننا
في هذه الزاوية نتمتع بالجمال والهدوء الصافي الممتع. وبوسعنا أن
نبني، ليلة بعد ليلة، وساعة بعد ساعة، منارة عالية يشع النور منها، من
حين لآخر، ليضيء سبيل الناس إلى منارتنا.

لودفخ لويزون

لا أنتظر شيئاً:

فلتأت السماء بالسحب، أو فلتكن صافية زرقاء؛ ولتأت الأيام بالمرح والبهجة أو بالدموع؛ لقد شربت من كل كأس، ضحكت وبكيت، أحببت وكرهت، وذقت من الحياة حلوها ومرها.

لا أنتظر شيئاً جديداً. ومهما سأواجه من مقلقات ومتاعب، لن تستطيع أن تنقص ذرة من ثروة ذاكرتي المليئة بالتجارب. لا يستطيع أيّ هم أو كرب أو ألم أن يطفئ شرارة الروح المشتعلة. وسواء كان أمامي سنوات طويلة أم قصيرة، لا أسأل متى النهاية، بل أستقبل كل يوم بتحية الشكر والبهجة والعرفان، كأنه يوم ميلاد جديد.

مجهول

عناصر السعادة:

ليكون المرء سعيداً ينبغي أن تكون فضائله أوسع من عمله؛ وصداقته أعمق من عطفه؛ وسلوكه أقوى من فكره؛ وصحته أسلم من تراثه؛ وأوقات راحته أكبر من أرباحه.

ك. بانار

ورشة العمل:

- أحبّ مهنتك، إنها أجلُّ شيء في الحياة؛ تساعدك على نسيان الهموم؛ وما أجمل أن تكون في ورشة عمل يسودها المرح، تسمع

الأصوات، تشاهد حركات العمال. يسود الهدوء حيناً، ثم تحدث إشارة أو حركة غير متوقعة، فيبتسم العمال أو يضحكون، وذلك مما يطرد ملل الحركات الروتينية.

ساشا غيتري⁽¹⁾

توازن:

الإناء المقلوب لا يمتلئ ماء. فإذا أسررت على أن تدير ظهرك للواقع وللحقيقة، فإن السعادة تنزلق على قلبك كما تنزلق مياه الشلالات على الصخور. ويبدو أن الإنسان يحتاج إلى قدر من السعادة، ومثله من الشقاء ليواصل مسيرته متوازناً.

جلبار سنوي⁽²⁾

أين أجد المتعة؟

أجد المتعة في الأشياء البسيطة: رغيف خبز ساخن من الدقيق الأسمر؛ كأس من اللبن والإبريق يغلي على النار؛ سقف يحمي رأسي، وأشعة الشمس تتخلل النوافذ.

(1) أديب فرنسي، 1885 - 1957.

(2) كاتب فرنسي معاصر (من أصل مصري).

ذكريات وبصمات

أجد بهجة ومنتعة في نسيمات الهواء التي تهزّ ستائر النافذة، وتراقص أغصان الزهور؛ وفي الجلوس قرب المدفأة وفي يدي كتاب. أقول لكل امرأة؛ لا تركضي بعيداً وراء المباهج الخيالية المحمومة، لأن المتعة الحقيقية الدائمة توجد في كثير من الأشياء التي تحيط بنا يومياً.

غريس فول كرويل

سعيد:

سعيد من يحب الإحراج والوديان والأعشاب والغابة، لا يذوق الحزن قلبه ولا تشيخ أعصابه. يبدأ يومه ويختمه مسترخياً، بوجه بشوش، مقتنعاً بحظه، ينعم بحاضره دون أن تكدر صفوه ظلال المستقبل.

ردشار غالين

القمة... والسهول:

- صعدتُ إلى القمة فلم أجد ملجأً بين سحب الجاه والسمعة.
قُدني أيها الرائد، قبل أن يغيب ضوء الشمس، إلى السهول الهادئة حيث ينمو زرع الحياة في أحضان الحكمة والاطمئنان.

طاغور⁽¹⁾

(1) شاعر هندي، 1861 - 1941.

المزايا الصغيرة:

- السعادة لا تجلبها لقاءات الحظ العظيمة التي نادراً ما تحدث، بل تحدثها المزايا الصغيرة التي نحظى بها كل يوم.

بن يامين فرانكلين⁽¹⁾

أعمى.. ولكن:

إنني لا أرى الزهرة تتفتح براعهمها، ولكن عطرها ينعشني؛ ولا أرى الربوة المخضرة، ولكن مشاعري تهتز للنسيم الذي ينبعث من قممها؛ ولا أشاهد الطيور المحلقة في السماء، ولكني أشعر بالسنونو يرفرف حول المنزل؛ وتهتز نفسي لألحان الطبيعة حفيف الأوراق ورقصات الأغصان.

لا أرى الأطفال وهم يمرون أمامي، ولكنني اغتبط بأصواتهم وضحكاتهم البريئة؛ ولا أشاهد روعة غروب الشمس، ولكنني أحس بنسمات السماء تصافح الأعشاب. لا أرى ضوء القمر ينسكب على سطح البحر، ولكنني أشعر بالأمواج وهي تداعب الشاطئ. هكذا أحتفل بأنعام الطبيعة، وأشكر الله على نعمه العديدة.

مجهول

(1) رجل دولة، كاتب وعالم أمريكي، 1706 - 1790

وصفة:

- عليك بالقناعة، فإنها نبع لا ينضب؛
- عليك أن تتمتع بلذة المسرات لتقدر جمال الحياة؛
- لا تنس أن كرم النفس، ودمائة الأخلاق تنعش المتع الحسية؛
- ثق بنفسك، ولكن اجعل فكرك مفتوحاً وقلبك متعاطفاً مع جميع الناس.
- لا بأس أن تحلم بمستقبل أفضل، ولكن يجب أن يكون هدفك واضحاً وخطتك واقعية.
- أشرك غيرك فيما أوتيت من خيرات؛ تعاون مع الناس؛ تجنب الغرور والأنانية، وثق بالله.

ألفرد غ. والتون

عطر السعادة:

السعادة عطر لا يمكن أن ترش به غيرك دون أن تصيبك منه قطرات.

ر.و. إمرسون

- من أسباب الشقاء أن يقضي المرء وقت فراغه مفكراً هل هو سعيد أم شقي.

برنارد شو⁽¹⁾

- الشتاء فوق رأسي، والربيع في قلبي.

فيكتور هوغو⁽²⁾

- ليس من حق المرء أن يستهلك السعادة من غير أن يساهم في إنتاجها.

أيها المحزون⁽³⁾

إن كنت تعلم أنك قد أخذت على الدهر عهداً أن يكون لك كما تريد في جميع شؤونك وأطوارك، وألا يعطيك ولا يمنعك إلا كما تحب وتشتهي؛ فجدير بك أن تطلق لنفسك في سبيل الحزن عنانها كلما فاتك مأرب، أو استعصى عليك مطلب، وإن كنت تعلم أخلاق الأيام في أخذها وردّها وعطائها ومنعها، وأنها لا تنام عن منحة تمنحها، حتى تكرر عليها راجعة فتستردّها، وأن هذه سنتها وتلك خلّتها في جميع أبناء آدم، سواءً في ذلك ساكن القصر وساكن الكوخ، ومن يظاً بنعله هامّ الجوزاء، ومن ينام على بساط الغبراء - فخفّض من حزنك وكفّف من دمك، فما أنت بأوّل غرض أصابهم سهم الزمان، وما مصابك بأوّل بدعة طريفة في جريدة المصائب والأحزان.

(1) أديب إنكليزي، 1856 - 1950 .

(2) شاعر، وكاتب روايات ومسرحيات، 1802 - 1885 .

(3) مصطفى لطفى المنفلوطي، من كتابه: النظرات (الجزء الأول).

ذكريات وبصمات

أنت حزينٌ لأن نجماً زاهراً من الأمل كان يتراءى لك في سماء حياتك فيملاً عينيك نوراً، وقلبك سروراً، وما هي إلا كَرَّةُ الطرف إن افتقدته، فما وجدته؛ ولو أنك أجملتَ في أملك، لما غَلَوْتَ في حُزنك؛ ولو أنت أنعمت نظرك فيما تراءى لك، لرأيت برقاً خاطفاً، ما تظنه نجماً زاهراً، وهنالك لا يبهرك طلوعه، فلا يفجعك أفرقه.

أسعد الناس في هذه الحياة من إذا وافته النعمة تتكر لها، ونظر إليها المستريب بها، وترقب في كل ساعة زوالها وفناءها؛ فإن بقيت في يده فذاك؛ وإلا فقد أعد لفراقها عُدته من قبل.

لولا السرور في ساعة الميلاد، ما كان البكاء في ساعة الموت؛ ولولا الوثوق بدوام الغنى، ما كان الجزع من الفقر، ولولا فرحة التلاق، ما كانت ترحة الفراق.

هل أشتكى؟

انتهت الحفلة، هداً الصخب، وانطفأت الأنوار؛ انتهت تلك المتع والمباهج والملذات، انتهى الحب الذي أنعش حياتي فترة، واختفت أحلام الماضي وآماله وتركت الباب مفتوحاً، فهل أشتكى؟

أجلس عند غروب الشمس، عندما تصبح المشاهد خليطاً من ضياء وظلام، واستمع إلى أصوات قديمة تهمس بنغمات رقيقة هادئة لذيذة، وأشاهد وجوهاً عزيزة مرحة تحييني، فتنتعش نفسي لتلك الذكريات البهيجة. فهل يشتكى من لا يزال يتمتع بنعمة هذه الذكريات اللذيذة؟

لويز شاندلر مولتون

الشعر والحياة



- المقدمة

- الإنسان

- الخير والشر

المقدمة



قال معاوية بن أبي سفيان «علموا أولادكم الشعر، فوالله ما ملكتُ الملك إلا به». وقال لي زميل ذات يوم: دعنا من الشعر، ماذا استفدنا منه؟ إنه كلام الأحلام والخيال، العلم هو أساس النجاح والحياة». أزعجتني هذه الملاحظة؛ غير أنها حفّزتني على قراءة الشعر، وإعداد هذا الكتاب الذي أسميته «الشعر والحياة»؟

من البديهي أن الحياة في أبسط أشكالها تتطلب الغذاء والهواء والماء والنور... ولكن في المخلوقات العليا، ومنها الإنسان، تحتاج الحياة الراقية كذلك إلى الحب والعمل والمال، والعلم والفن وغير ذلك؛ لأن الإنسان مادة وروح، منطق ومشاعر، معدة وفكر. والجواب على زميلي هو أن الشعر تناول جميع هذه الأمور ودواوين الشعراء، قديمهم وحديثهم، تزخر بالحديث عن حياة الإنسان، وعن الطبيعة بجوانبها المادية والمعنوية.

من يسأل «ما فائدة الشعر؟» كمن يسأل ما فائدة البحر، والسحاب، والغابات والطيور، والأعياد، والموسيقى. صحيح أن منافع العلم كثيرة ومزاياه لا تحصى، ولكن الشعر شريك له، وليس منافسًا. ومتى كان الفن مزاحمًا للعلم؟ وإذا أزلنا الفن من حياة الإنسان، لا تبقى إلا صورة اللحم والعظم والدم.

ذكريات وبصمات —

أقترح على من يستخف بمزايا الشعر العربي أن يقرأ التعريف العلمي للقمر، لغروب الشمس، لزهرة، أو للعين والشفاه، على سبيل المثال لا الحصر؛ ثم يقارن هذه التعاريف بما ورد في أقوال الشعراء من أوصاف لهذه الأشياء، وسيجد أن التعريفين متكاملان، وضروريان لحياة الإنسان وراحته المادية والمعنوية، وأن الأوصاف الشعرية أقرب إلى قلب الإنسان، وأشد تأثيراً على مشاعره وسلوكه، وأطول بقاءً في ذاكرته، وأكثر انتشاراً بين عامة الناس.

الشعر العربي تراث عريق، وثروة ثقافية تشمل جميع مجالات الحياة. إنه نبع فياض من تجارب الإنسان، وصور وشرائط تعرض علينا أساليب حياته ومنجزاته ونجاحه وفشله. والشعر مرآة تعكس لنا الظروف الاجتماعية، والتطورات التي مرَّ بها الإنسان العربي في حالة بدوه وحضره، ومجده وانحطاطه، وقوته وضعفه. ومرت القرون بأحداثها ومباهجها وآلامها، ولكن بقيت دواوين الشعر تعرض علينا سجلات ومشاهد ولوحات عن مختلف الحقب التي مرَّ بها المجتمع العربي في الشرق والغرب.

وتضم دواوين الشعر العربي، بين أحضانها الرحبة الثرية، أحاديث عن جميع أوجه النشاطات البشرية من العشق إلى الزهد، من المجون إلى دُرر الحكم والأمثال. ويحدثنا الشعراء عن الفرسان والصعاليك، والكرماء والبخلاء، والوفاء وإكرام الضيف واحترام الجار، وعن الطرب واللهو، والشباب والمشيب، وتقلبات الزمن، وعن الحياة والموت.

الشعر نضحة سحرية، ينفثها الشاعر الموهوب في الحوادث وفي الأشياء، فتنعش ويجري فيها ماء الحياة ونفْسُها. وينشئ لها من أفكاره خيوطاً وأنسجة توسع مجالاتها، وتربطها بحياة الإنسان ورغباته ومشاعره وآماله وطموحاته. الشعر نشيد الحياة وفاكهتها وعصيرها.

يرسم الشاعر لوحات فنية، فيعرض علينا الطبيعة كما يشاهدها بوعيه وإحساسه العميق، فنلمس فيها نبضات الطبيعة، وتقلبات فصولها في أجمل صورها وألوانها ومباهجها، ونسمع موسيقى الحياة الكامنة في حركات أشجارها وزهورها وحشراتنا وطيورها، نغمات وأصوات تتبعث من أعماق الطبيعة، تطمئن الإنسان، تنعش النفس، تطرب العاشق، تسلي الكئيب، تحيي الذكريات وتبعث الأمل في قلوب الجميع.

ولعله من المفيد أن نترك المجال لعدد من الشعراء، ليحدثونا عن بعض آرائهم في الشعر.

يرى حسان بن ثابت أن الشعر مرآة لشخصية صاحبه، وأن أجمل الشعر ما كتب له البقاء لصدقه وانسجامه مع مسيرة الحياة:

وإنما الشعر لب المرء يعرضه على المجالس إن كيساً وإن حمقا
وإن أشعر بيت أنت قائله بيت يقال إذا أنشدته صدقا

ويقول أبو تمام: إن من مزايا الشعر أنه أوضح لنا سبلا، وبيّن لنا معالم، تساعد الطامحين على تحقيق ما يهدفون إليه من إنجازات عظيمة:

ذكريات وبصمات —

ولولا خلا سَنها الشعرُ ما درى بناة العلى من أين تُؤتي المكارم
وفي البيت التالي: يرى البحتري أن الشعر ينبغي ألا يُقيّد بحدود
المنطق والواقعية الضيقة:

كلفتمونا حدود منطقكم في الشعر، يكفي عن صدقه
وعندما تومض المعاني في فكر السري الرفاء، لا يبقى عليه إلا
أن يلبسها أحلى العبارات لتظهر القصيدة مثل الجواهر المضيئة على
صدر الحسناء:

إذا ما المعاني أومضت لي بروقها وساعدها وشي الكلام المنمنم
رأيت التهاب الحلي في جيد غادة ترائبها من تحته تتبسم

وجمع الأبيوردي بعض صفات الشعر في بيت فقال:

مؤيس مُطمع، قريب بعيد فهو أنس المقيم، وزاد الرفاق
ويرى الجرجاني أن الشعر الجيد يحرك مشاعر الممدوح، ويسلي
المشتاق، ويهدئ ثورة الغاضب:
وما الشعر إلا ما استفز مُمدّحا وأطرب مشتاقا وأرضى مغاضبا
تجد النفوس في الشعر متعة تفوق ما تجده في زهور الربيع
ورياضه ومروجه، لأن مباحج الشعر ونفحاته باقية ومتاحة لمن يطلبها
في جميع الفصول.

يقول أحمد شوقي:

أين نُورُ الربيع من زهر الشعر إذا ما استوى على أفنانه

سرمدُ الحسن والبشاشة مهما

تلتمسسه تجده في إبانه

ويقول حافظ إبراهيم إن الشعر يلبي رغبات الناس، فهو يحفز همم الطامحين، كما يستجيب لورع الزاهدين:

ففي الشعر حثُّ الطامحين إلى العُلا

وفي الشعر زهدُ الناسك المتورِّع

وفي الشعر إحياءُ النفوس ورئُها

وأنت لريِّ النفسِ أعذب منبع

ويلاحظ قارئ الأبيات التالية مدى الالتحام بين الشاعر الفتى أبي القاسم الشابي وشعره. إنه قطعة من أحشائه، ونشيد مشاعره، وعصير حياته:

أنت يا شعر فلذة من فؤادي تتغنى، وقطعة من وجودي
فيك ما في جوانحي من حنينٍ أبديٍّ إلى صميم الوجود
فيك ما في خواطري من بكاءٍ فيك ما في عواطفي من نشيد
والشعر، كما يراه الرصافي، لا بدَّ أن يذكر المشاعر، ويهيج لواعج
الوجد، فلنسمه في دمة العاشق، ونظرة العيون الساحرة، ونغمات
المطرب، وصراخ الثكالي، وسجع الحمام؛ يقول الشاعر:

ومن ضحكاتِ الشَّعرِ دَمعةُ عاشقٍ

بها قد شكا للوصلِ ما فَعَلَ الهَجْرُ

ومن لمعاتِ الشَّعرِ نَظرةُ غَاذةٍ

بنجلاءٍ تسبي القلبَ في طَرْفِها فترُ

ذكريات وبصمات

ومن جَمَرَاتِ الشَّعْرِ زَنْةٌ تَأْكُلُ
مُفْجَعَةً أَوْدَى بِوَاحِدِهَا الدَّهْرُ
ومن نَفَحَاتِ الشَّعْرِ تَرْجِيْعُ مُطْرِبِ
تَعَاوَرَ مَجْرَى صَوْتِهِ الْخَفِضِ وَالنَّبْرِ

ويرى محمد مهدي الجواهري أن الشعر، على الرغم من رقة ألفاظه وسلاسة أسلوبه، يجب أن يتحول إلى سلاح فتاك في يد المناضلين من أجل الحق والعدل وردع العدوان :

ومن عَجَبٍ أَنْ الْقَوَافِي سَوَائِلًا
إِذَا شَحِدَتْ لِلْحَصْدِ فَهِيَ مَنَاجِلُ
وَهُنَّ كَمَاءِ الْمِزْنِ لُطْفًا وَرِقَّةً
وَهُنَّ إِذَا جَدَّ النَّضَالُ مَعَاوِلُ

ويتساءل إيليا أبو ماضي: هل الشعر إلهام، وحي، أم مجرد نفثات شياطين؟ ثم يجيب: كلا، بل منبع الشعر هو الإنسان بما ينسج من أفكار ولوحات شعرية هدية لأخيه الإنسان:

مَا هُوَ الشَّعْرُ؟ إِنِّي مَا رَأَيْتُ اثْنَيْنِ إِلَّا وَفِيهِ يَخْتَصِمَانِ
قَالَ قَوْمٌ: "وَحْيٌ يَنْزِلُهُ اللهُ، وَقَوْمٌ: "نَفْثٌ مِنَ الشَّيْطَانِ"
ضَلَّ هَذَا وَذَا، فَمَا حَفَزَ الْإِنْسَانَ شَيْءٌ لِلشَّعْرِ كَالْإِنْسَانِ

الأزرق بن علو

حول الإنسان



للذئب سمعة سيئة لدى كثير من الناس، ولكن أهل المعرفة يعلمون أن الإنسان أشد وحشية وفساداً في الأرض من الذئب وغيره من الحيوانات المفترسة. فالذئب لا يعتدي على غيره إلا دفاعاً عن النفس أو عندما يجوع، والإنسان يعتدي في حالات الشبع والجوع، والغنى والفقر، وهو عالم أو جاهل.

وإليك قول شاعر يؤنسه عواء الذئب ويرعبه صوت الإنسان:

عوى الذئب ، فاستأنستُ بالذئب إذ عوى

وصوَّتَ إنسان فكدتُ أطيْرُ

ويقول الإمام الشافعي في هذا الصدد:

يعـاف الذئب يأكل لحم ذئب

ويأكل بعضنا بعضاً عياناً

ويحذر شاعر آخر الإنسان من شرور الإنسان، مقارناً ذلك

بسلوك الذئب، فيقول:

فإن تلقَ ذئباً فاطلب الخيرَ عنده

وإن تلقَ إنساناً فقل ربِّ سَلِّمِ

ذكريات وبصمات —

ويبدو أن كثيراً من الناس، ومنهم الشعراء، يركزون أحياناً، في ظروف خاصة، على الجوانب السلبية من سلوك الإنسان، وما أكثرها، فنجد على سبيل المثال أن المتبني لم ير في الناس إلا المخادعة والنفاق: فلم أرُ ودَّهم إلا خداعاً ولم أر دينهم إلا نفاقاً

ولا تقلّ نظرة المعري عن ذلك عندما يقول:

فأميرهم نال الإمارة بالخنى

وتقيُّهم بصالاته يتصيدُ

وللشاعر فوزي المعلوف أبيات معبرة يتحدث فيها عن الإنسان الذي نسي الخير، وأوغل في الشرور والطمع والأنانية، فيقول في قصيدة عنوانها «ارتقاء الإنسان»:

نسي الخير، ثم أوغل في الشرِّ فداس الضمير في عصيانه
فاذا بالأذى وليد حجاه وإذا بالشرور بنت لسانه
عاث في أرضه فحالت جحيماً فأتى الخلد عاثثاً في جنانه

أما إيليا أبو ماضي فيذكر الإنسان بأنه كتلة من الطين، تمردت وتجبرت لأنه لبس الخبز وجمع المال. ويؤكد له أنه مجرد حيوان مُسيَّر ستبلى ملابسه ويتحطم طغيانه:

أيها الطينُ لست أنقى وأسمى

من تراب تدوس أو تتوسدُ

سُدَّتْ أو لم تسدَّ فما أنت إلا

حيوانٌ مُسيَّرٌ مستعبدُ

إن قَصْرًا سَمَكْتَهُ سَوْفَ يَنْدُكُ

وثوبًا حَبِكَتَهُ سَوْفَ يَنْقُدُ

ومن الشعراء الذين تحدّثوا بعمق وتمعن عن أخلاق الناس
وطبائعتهم أبو العلاء المعري. وكثيرًا ما جاء حكمه قاسيا كما في قوله:
ما فيهم بَرٌّ ولا ناسك إلا إلى نفع له يجذب
وأفضل من أفضلهم صخرة لا تظلم الناس ولا تكذب
ويرى أن الفساد والشور تزداد بتكاثر عدد سكان الأرض، ولا
يمكن أن تستعيد الأرض طهارتها الأولى إلا إذا اختفى البشر من على
ظهرها:

هل يغسل الناس عن وجه الثرى مطر،

فما بقوا لم يبارح وجهه دنسُ

والأرض ليس بمرجـو طهارتها

إلا إذا زال عن آفاقها الأَنسُ

هل ينبغي للمرء أن يظل على حذر في معاملاته، وأن يتوجس
خيفة، ويشك في نوايا الناس؟ وهل أصبح الناس حقًا كما قال
الطغرائي:

غاض الوفاء، وفاض الغدر، وانفجرت

مسافة الخلف بين القول والعمل

ذكريات وبصمات

ولنستمع إلى عبید بن أيوب العنبري، وهو يؤكد لنا هذا الاتجاه.
لقد أصبح ينفر من الناس، ويخشى مناورات الأصدقاء؛ بل تكاد
الموازن تنقلب في ظنونه، فتبدو له أقاويل الخير خديعة.

يقول هذا الشاعر:

لقد خفتُ حتى لو تمرَّ حمامةٌ * * لقلتُ عدوُّ أو طليعةُ معشرِ
وخفتُ خليلي ذا الصفاءِ ورأبني * * وقيل فلانٌ أو فلانةُ فاحذرِ
فأصبحتُ كالوحشيِّ يتبعُ ما خلا * * ويتركُ مانوسَ البلادِ المدعثرِ
إذا قيل خيرٌ قلتُ هذي خديعةٌ * * وإن قيل شرٌّ قلتُ حقٌّ فشمرِ

الخير والشر



في قصيدة عنوانها: «الشر الكبير والخير الكبير» يتساءل الشاعر القروي، رشيد سليم الخوري، هل الشر هو أن يهجرنا الحبيب، أن يموت شخص عزيز، أن يغدر بنا الصديق، أن يستولى علينا الشقاء واليأس؟ وهل الخير هو التمتع بملذات الحياة، نجمع ثروة كبيرة، نقرأ كتاباً ممتعاً، يرجع إلينا شخص عزيز من الحرب، ننتصر على البؤس والشقاء..؟

إليكم رأي الشاعر:

أمزقتَ الجيوبَ على فقيدٍ * أذقتَ مرارةَ الهجرِ البعيدِ
وهل أرخى عليكِ البأسُ ليلاً * يشيبُ لهوله رأسُ الوليدِ
وهل مدَّ الشقاءُ إليكِ كفًّا * أصابعها كقضبان الحديدِ
وهل أصماكِ سهمُ الغدرِ ممن * أراكِ تعطفُ الخلَّ الودودِ
وهل قاسيتِ ظلمَ التركِ قدماً * وهل أشفقتِ من ظلمِ جديدِ؟
لعمركِ كلُّ هذا الشرِّ خيرٌ * إذا ما قيسَ بالشرِّ الكبيرِ
أشدُّ بليّةً ذنبٌ طفيفٌ * يجرُّ عليكِ تبيكيتِ الضميرِ!!

أذقتَ أحبَّ لذاتِ الشَّبَابِ * وهل فكَّهتِ نفسكِ في كتابِ
بظلِّ خميلةٍ غنَّاءٍ فاظتِ * بها الغدرانُ كالشهدِ المذابِ

وهل نلت الغنى من بعد فقر ** مرغت له جبينك في التراب
وهل بددت بالآمال يأساً ** تلبّد حول نفسك كالضباب
وهل وافتك بعد الحرب بُشرى ** سلامة من تُحبُّ من العذاب؟
لعمرك كلُّ هذا الخير شرٌّ ** إذا ما قيسَ بالخير الكبير
ألذُّ ملذّة صنع جميلٌ ** تنامُ لديه مرتاح الضمير!!

وراح إيليا أبو ماضي يسأل عن أفضل عمل يقوم به الإنسان، فكانت ردود الناس مختلفة. فرأى أحدهم أن أفضل عمل هو ما يمحو الخطايا؛ وقال ثانيهم هو نصره الحق؛ وأجاب ثالثهم أنه التمتع بملذات الحياة؛ وقال غيرهم إنه الحب، أو انتشار العدل، أو ما يجلب الشهرة.

أما رأي أبي ماضي فكان غير ذلك:

ذهبتُ مسألاً عن خير شيء ** لأعرفَ كنهَ أخلاقِ البريةِ
فَقَالَتْ لي الكَنيسةُ خيرُ شيءٍ ** هُوَ الزُّهدُ الذي يَمْحُو الخطيئةَ
وَقَالَتْ لي الشَّرِيعَةُ: خيرُ شيءٍ ** شُمُولُ العَدْلِ أَبْنَاءِ الرَّعيَّةِ
وَقَالَ الشُّهْرَةُ، الجُنْدِيُّ خَيْرٌ ** وَإِنْ كَانَتْ تَقُودُ إِلَى المَنِيَّةِ
وَقَالَ أَخُو الحَصَافَةِ: خيرُ شيءٍ ** هُوَ الحَقُّ المُبِينُ بلا مَـرِيَّةِ
وَقَالَ أَخُو الجَهَالَةِ: خيرُ شيءٍ ** سُرُورُ النَّفْسِ فِي الدُّنْيَا الدُّنْيَا
وَقَالَ لي الفَتَى وَصَلُ الصَّبَايا ** وَقَالَتْ لي الهوى البنتُ الصَّبِيَّةِ
وَمَا أَنْ خَلَوْتُ سَأَلْتُ نَفْسِي ** لِأَعْرِفَ رَأْيَهَا فِي ذِي القَضِيَّةِ
فَقَالَتْ لَا أرى خَيْرًا وَأَبْقَى ** مِنَ الإِحْسَانِ لِلنَّفْسِ الشَّقِيَّةِ

ويوضح لنا أبو العلاء المعري بصراحته المعتادة أن الخير لا ينحصر في الصوم والصلاة والتقشف، بل هو كل شيء في تجنب الشر: ما الخيرُ صومٌ يذوبُ الصائمون له ** ولا صلاةٌ ولا صُوف على الجسد وإنما هو ترك الشرِّ مُطَّرِحاً ** وَنَفْضُكَ الصِّدْرَ مِنْ غِلٍّ وَمِنْ حَسَدٍ وَمَنْ الْوَاضِحُ أَنَّ الشُّعْرَاءَ، كغيرهم من الناس، يختلفون في تحديد ما هو خير وما هو شر، مثلما يختلف الناس في تحديد ما هو باطل (كتعريف بعض الدول للإرهاب بما يتفق مع مصالحها). ونلاحظ أن بعض الشعراء يرون أن الشر لا يدفع إلا بشر مثله.

ومن بين هؤلاء عبد الله بن قيس الرقيات الذي يقول:
بَغِيضٌ إِلَى الشَّرِّ حَتَّى إِذَا أَتَى ** فَحَلَّ بِدَارِي قُلْتُ لِلشَّرِّ مَرْحَبًا
وَأَرْكَبُ ظَهَرَ الْأَمْرِ حَتَّى يَلِينَ لِي

إذا لم أجِدْ إلا على الشرِّ مَرَكِبًا

ومنهم هديبة بن خشرم في قوله:

ولا أبتغي شرًّا، إذا الشرُّ تاركِي

ولكن متى أُحْمَلْ على الشرِّ أركبِ

ولنستمتع إلى رأي الشاعر الفيلسوف أبي العلاء المعري وهو يؤكد أن الشر ينفع دائمًا:

وجدت الشرَّ ينفع كل حين ** ومن نفع به حمل الحسام
وليس الخيرُ في وسع الليالي ** فكيف نسومها ما لا يسام

ويسلك أوس بن حبناء رأي من ذكروا فيقول:
وَإِنِّي لِأَجْزِي بِالْمُودَةِ أَهْلَهَا ** وَبِالشَّرِّ حَتَّى يَسْأَمَ الشَّرَّ حَافِرُهُ
وهذا شاعر يعبر بقوة عن استعداده ليجازي أهل الخير بالخير،
ومواجهة من يريد به شرًا بمثله:
وَلِي فَرَسٌ بِالْخَيْرِ لِلْخَيْرِ مَسْرُجٌ ** وَلِي فَرَسٌ بِالشَّرِّ لِلشَّرِّ مَسْرُجٌ
فَمَنْ رَامَ تَقْوِيْمِي فَإِنِّي مَقْوَمٌ ** وَمَنْ رَامَ تَعْوِيْجِي فَإِنِّي مَعْوُجٌ
هذا مبدأ السنّ بالسنّ، وهو قديم جداً. وقد لا يرتضيه بعض
الشعراء، وكثير من الناس، ولكن من يطبق اليوم قول المسيح (عليه
السلام): إذا صفعك شخص على الخد الأيمن، فأدر له خدك الأيسر؟
ثم ماذا يفعل الإنسان إذا لم ينجه الإحسان إلى أهل الشر؟ ألا يصفق
لقول شهل بن شيبان:

وفي الشر نجاة حين لا ينجيك إحسان

وهذا أمير الشعراء أحمد شوقي يتبنى هذا المبدأ فيقول:
وَالشَّرُّ إِن تَلَّقَهُ بِالْخَيْرِ ضِيقَتْ ** ذَرَعًا وَإِن تَلَّقَهُ بِالشَّرِّ يَنْحَسِمُ
وما ذلك إلا لأن فعل الشر مسجل في «جينات» كثير من أبناء
آدم، كما قال المعري:

والشرُّ في الجسد القديم غريزة

في كل نفسٍ منه عرق ضاربٌ

حصاد الأيام



المقدمة

المقدمة



سواء كتب المرء عن التاريخ أو الأدب، عن الجغرافيا أو الكيمياء أو الطب، أو عالج علوماً وفنوناً أخرى، فإن موضوع الاهتمام الأول هو «الإنسان». هذا المخلوق الذى تتصارع في نفسه نزعات الخير والشر؛ والحب والكراهية؛ ويغلب على طبيعه الأنانية والعدوانية؛ تغريه الملذات، ويزعجه الألم، ويقلقه الخوف من الفناء. قيل إنه سيد المخلوقات، ولكنه أشدها تدميراً للحياة وفساداً في الأرض.

عندما أنبأ الله الملائكة بأنه سينشئ مخلوقات أخرى على الأرض قالوا:

﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ﴾ (البقرة: 30)

ثم أمر الله آدم عليه السلام وزوجه ألا يقريا شجرة محددة من أشجار الجنة. غير أن الشيطان أغراهما فخالفا أمر الله، فأخرجهما من الجنة:

﴿ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ .

ثم طلب آدم عليه السلام من ابنه قابيل أن يتزوج البنت توأم أخيه هابيل، وأمر هذا الأخير أن يتزوج من البنت توأم قابيل. ولكن هذا الأخير رفض طلب أبيه، وأبى إلا أن يتزوج الفتاة توأمه، ولعلها

ذكريات وبصمات —

كانت أطف وأجمل من أختها. ولم يوافق آدم على طلب قابيل، بل أمر كلا من ولديه أن يقدم قرباناً لله، وكان أن تقبل الله قربان هابيل، فملأت الغيرة قلب أخيه، وحسده على فوزه برضى الله وأبيه، وبالفتاة الجميلة، واضطربت نار الحقد والعدوانية، فقتل قابيل أخاه، وكانت الأنانية سبباً في إزهاق روح بريئة، وبدأت مأساة البشرية، ودخل الإنسان دوامة الظلم والعدوان.

وسواء رفع قابيل حجرة أو هراوة ليهشم رأس أخيه، فقد استمر الإنسان، عبر القرون في وحشيته وعدوانه، وراح يطوّر وسائل العنف والدمار، وانتشر الفساد في البرّ والبحر، واستشرى الصراع بين الخير والشر.

وقد ظل موضوع الخير والشر والإنسان هو اللبنة الأساسية في الكتب السماوية وفي تعاليم الديانات الأخرى. وتقول تعاليم زرادشت (ZARATHISTRA) الذي عاش في القرن السادس ق.م. تقريباً، بأنه توجد روحان أساسيتان في العالم: روح النور والحكمة والخير، وروح الظلام والفساد والشر؛ وأن الصراع بين هاتين القوتين يتركز في الإنسان. ولذلك أصبح العالم منقسماً إلى مملكتين: مملكة أهل الخير، ومملكة أهل الشر، واشتعلت نيران الصراع والحروب بين المخيمين، وستظل كذلك إلى يوم الحساب.

ومن المعلوم أن هناك وجهات نظر أخرى تخالف ما جاءت به الديانات السماوية في موضوع نشأة الإنسان وتطوره لا يحتاج إلى أية تفسيرات تختلف عن تفسير تطور الحيوانات الأخرى. يقول داروين ما

مفاده: ينبغي لنا أن نعترف بأن الإنسان بماله من صفات نبيلة، وما يملك من ذكاء وتفكير، نفذ بعقله إلى حركات النظام الشمسي وتكوينه، ولكن على الرغم من ذلك ما زال يحمل في طياته جهازه العصبي طابع نشأته الوضيعة الأولى.

ويرى هذا العالم أنه ينبغي للإنسان ألا يخجل إذا عرف أن دماء حيوانات متواضعة ما زالت تجري في عروقه: «أما ما يخصني شخصياً فأفضل أن أنحدر من ذلك القرد الصغير الذي تحدى أعداءه الأقوياء ليصون صغاره؛ أو من ذلك السعدان الشجعان، على أن أنتمي إلى الإنسان المتوحش الذي يجد متعة في تعذيب أعدائه وإراقة دماء ضحاياهم».

لقد كانت احتياجات الإنسان البدائي محدودة، تنحصر في سعيه للحصول على الغذاء وتأمين وجوده. وعندما تطورت حياته زادت احتياجاته وتعددت رغباته وتنوعت طموحاته وزادت مشاكله. يقول روسو 1719-1778: إن أول رجل حدد قطعة من الأرض، وقال للناس: «لا تقتربوا منها» وضع أول لبنة في تكوين المجتمع. ويضيف «ثم جاء رجل آخر فقال» لا تصدقوه... إنه محتال، الأرض ليست ملكاً لأحد...، وثمارها ملك لنا جميعاً، فنجم بين الرجلين شجار، تلتته نزاعات وجرائم وحروب ما زالت البشرية تعاني من ويلاتها».

وشعر الإنسان بلذة الملكية والثروة وما تجلبه من قوة وسيطرة على الناس، فأصبح جشعاً وأنانياً، وزاد ظلمه واستبداده. ويقول لوكريتيوس LICRETIUS 99-55 ما معناه: إن جشع الإنسان، وتلهفه

على السلطة وسعيه وراء ملذات الحياة دفعه إلى ارتكاب الجرائم في حق أخيه الإنسان. ولكن رغم ذلك فهو لا يشعر بالأمن والاطمئنان، ما دام شبح الموت يلاحقه. ويتمادى في مغالطة نفسه، محاولاً أن يخفي هوة العدم التي تنتظره في نهاية المطاف، فينغمس في الاحتيال والكذب والغش والقتل ليقوى مركزه ويوسع سلطانه، عساه أن يبعد عن نفسه شيئاً من الخوف والقلق.

ويلطف أفلاطون 427 - 348 ق.م. قليلاً من النظرة التشاؤمية إلى الإنسان عندما يقول: أهل الخير قلة، وأهل الشر قلة. ولو أنك وازنت بين أفخم الأشياء وأصغرهما، وبين أسرعها وأبطئها، وبين أشدها بياضاً وأشدها سواداً...، لوجدت أن نسبة التطرف في كلا الاتجاهين قليلة. وكذلك لو أجريت منافسة في ميدان الشرور لوجدت أن أشد الناس فساداً قليلون.

وكان ديمقريطس DEMOCRITUS (ولد نحو 460 ق.م) يرى أن حالة البشر تثير السخرية، لما يحمل الإنسان في نفسه من غرور. وكان دائم الابتسام عندما يفكر في ظروف حياة البشر، أو يتحدث عن مشاكلهم، ولذلك عرف بالفيلسوف الضاحك. وكان ليهيراقليطس HERACLITUS النظرة نفسها، ولكنه كان حزيناً على حالة الإنسان وظروف حياته، ولذلك عرف بالفيلسوف الحزين. أما ديوجينيس المتقشف DIPGEMES (ولد نحو 412 ق.م) فيرى أن البشر ليسوا أفضل من الذباب، ويشبههم بأكياس منتفخة بالهواء. وكان لا يرى لأي إنسان تأثيراً على حياته المتقشفة. ولم يكن يكره الناس، بل كان في نظره كثير من الواقعية والحكمة،

وهناك رجل يدعى تيمون من أثينا (TIMON OF ATHEN) اشتهر بكراهيته للبشر وحقده على الناس، وكان يرى أن الإنسان مخلوق خطير وشرير لا يستحق الحياة. وقد أنفق هذا الرجل جميع ثروته على أصدقائه، وعندما أحتاج إلى مساعدتهم تجاهلوه وهجروه، وتكلم ذات يوم في حفل فقال: «أيها الناس، أملك قطعة أرض فيها شجرة تين قوية. وقد شقق عدد من الناس أنفسهم على أغصانها. وبما أنني قررت أن أبنى منزلاً فوق الأرض، يسعدني أن أبلغكم أنه على كل من يرغب في شقق نفسه أن يسارع في التنفيذ قبل أن أقطع تلك الشجرة.

ويرى مونتاني MONTAIGNE (1533 - 1592) أن التصرفات السيئة، مثل الغيرة والحسد وحب الانتقام والأنانية والعدوانية، هي الإسمت الذي يدعم شخصية الإنسان. ويضيف: «وكثيراً ما نشعر بشيء من اللذة الخفية عندما نشاهد الناس يتخبطون في المشاكل». ويورد الكاتب أمثلة على أنانية الإنسان واحتياله فيقول: يتاجر الإنسان في الخمور والمخدرات فيكون ربحه على حساب خسارة الآخرين؛ وعندما تنقص السلع يرفع التاجر الأسعار فيزيد ربحه ويخسرون؛ وبطبيعة الحال لا يرغب المحامون في أن يخلو مجتمعهم من النزاعات والمحتالين والمجرمين، لأنهم يتاجرون في مشاكل الناس؛ ولا تمتلئ جيوب الأطباء إذا ختفت الأمراض من مدينتهم؛ وينتفش ضباط الجيش في ظروف تسودها المصادمات الداخلية والخارجية. وهكذا يصدق القول: مصائب قوم عند قوم فوائد.

ومن أشهر من تحدث عن مساوئ سلوك الإنسان، ورسم لنا صورة قاتمة لما ينبغي أن يفعله الحاكم ليحتفظ بسلطته، والأمير ليبقى على عرشه، الكاتب الإيطالي ماكيافيلي -MACHIA- (1469 - 1527) VELLI. فهو يقول إن سلوك الإنسان يتسم بعدم الوفاء بالوعد، وبالمخادعة والجبن والغدر والعدوانية، فإذا نجحت التفّ الناس حولك، وإذا فشلت تخلوا عنك.

ويقول ماكيافيلي هناك طريقتان لحل النزاعات: القانون والقوة. وينصح الأمير بأن يعتمد على القوة لأنه ثبت أن القانون وحده لا يكفي. ويضيف: على الأمير أن يلبس جلد الأسد حيناً وجلد الثعلب تارة. فبدور الأول يخيف الذئب، وبدور الثاني يتجنب الوقوع في حبال المؤامرات. وينصح الأمير بأن يتظاهر دائماً بالإخلاص والسلوك القويم والأخلاق الفاضلة، «مع العلم أنه لا يمكنه أن يراعي في معاملاته الأخلاق الحميدة، ولا أن يلتزم بواجبات الصداقة، ولا بشرائع الأديان والإنسانية، إذا أراد (أي الأمير) أن يحافظ على الملك.

وليست نصائح ميكيافيلي للأخلاقية بالشيء الجديد في ديوان الأنانية والعنف والتناحر بين البشر. وقد عثرت على كلمة لأحد ملوك مصر هي أمينمحييت الأول يوصي فيها ولده (قبل أربعة آلاف عام) بما يلي: «كن قاسياً على جميع من هم دونك! ولا تملأ قلبك بالمودة لأخ؛ ولا تثق بصديق، لأن الإنسان لا صديق له في أيام المحنة».

ويعجبني من الكتاب الذي انتقدوا سلوك الجنس البشري، الكاتب الإنكليزي سويفت SWIFT (1667 - 1745) صاحب حكاية رحلات

جاليفار (GULLIVER'S TRAVELS). لقد سخر هذا الكاتب من ضيق تفكير البشر وغباوتهم ونفاقهم وأنانيتهم وتناحرهم وجرائمهم ووحشيتهم. وقد جعل بطل رحلاته، بعد عودته إلى وطنه، لا يتحمل أن يعيش وسط الناس، بل اشترى حصانين وعاش بجوارهما عيشة راضية. ومن أقواله: «إنني أكره ذلك الحيوان الذي نسميه الإنسان، وإن كنت أحبّ زيداً وعمراً وسعيداً».

ولم لا يسخر سويقت وغيره من حماقات الإنسان وقد عجزت الديانات السماوية وغير السماوية، وعجز الرسل والحكماء عن إصلاح أمره وتقويم سلوكه؟! وكيف لا يسخط هذا الكاتب أو ذاك الشاعر عندما يشاهد الإنسان يحرق المدن ويدمر الحياة ويفسد في الأرض ويبيع نفسه للشيطان من أجل السيطرة على غيره، أو لمتعة ينالها أو ثروة أو عرض يضيفه إلى مكاسبه.

وتصور لنا مسرحية MARLOWE (1564 - 1593) التي تحمل عنوان «الدكتور فاوستوس» حياة شخص قرر أن يبيع روحه للشيطان مقابل أن يلبي جميع رغباته ويشبع شهواته. وفي النهاية يقبض الشيطان روحه ويضعها في النار. هكذا يبدو الإنسان وكأن في داخله قوتين متصارعتين، توجهه إحداهما نحو فعل الخير، وتدفعه الأخرى نحو الفساد والإجرام؛ أو كأن له نفساً طيبة خيرة مسالمة، وأخرى شريرة متوحشة. وكم يسوء من يتتع تصرفات الناس ويقراً أخبارهم أن يلاحظ أن كثيراً ما تكون الغلبة لنوازع الشر.

ونقرأ في قصة DR. JEKYLL AND MR. HYDE للكاتب R.L. STEVENSON أن الصراع بين الخير والشر في نفس الدكتور

ذكريات وبصمات —

جيكيل أدى إلى خلق أزواج في شخصيته، فكان جيكيل يمثل الإنسان الطيب، المواطن اللطيف المحسن، وأصبح السيد هايد يمثل الرجل العنيف الشرير، كل ذلك داخل شخص واحد. وأدى به هذا الصراع في النهاية إلى الانتحار.

ويشير كل من فولتير VOLTAIRE (1694 - 1778) في قصته الشهيرة CANDIDE، والكاتب الانكليزي الدكتور جونسون DR. S. JOHNSON (1709 - 1784) في قصته RASELAS إلى أن دوافع الشر لدى الإنسان أكثر قوة وعمقاً من منابع الخير. وكم روى لنا الشاعر العظيم شكسبير (1564 - 1616) في مسرحياته من أخبار الغدر والخيانة والمؤامرات، وكم قدم لنا من أمثلة عن ظلم الإنسان وعدوانيته وأنانيته وجشعه ونكرانه للجميل.

أما الفيلسوف هوبز HOBBS (1588 - 1679) فيحدثنا عن مبدئين يتعلقان بحياة الإنسان. يشير الأول إلى حق الإنسان في استخدام الوسائل التي يراها صالحة وفعالة للمحافظة على حياته. وهذا يعني أن الإنسان حرّ في اللجوء إلى الأعمال التي توفر له حاجياته وتضمن حقه في الحياة. ويسمى المبدأ الثاني «قانون الطبيعة» الذي يمنع الإنسان من تدمير الحياة، أي أنه يقيّد حريته المطلقة ليجعله فرداً مسؤولاً عن تصرفاته السيئة.

سألت ابني الصغير مرة أن يضيف صفة إلى تعريف الإنسان بأنه: «حيوان ناطق»، فاختر من بين الصفات الشعر التي قدمتها له، صفة «أحمق». وعلل ذلك بقوله: «إن المخلوق الذي يلوث الهواء والماء، ويقطع الأشجار، مخلوق أحمق». ويتصرف الناس عامة، وحتى العظماء

منهم بحماقة أثناء الظروف القاسية والمفاجآت المزعجة، وفي حالات الفشل والغضب. فمن الناس من يلجأ إلى التدخين أو تعاطي الكحول أو المخدرات الأخرى؛ ومن يكسر الأواني، أو يضرب الأطفال. ويذكر MONTAIGNE حالة الملك الذي «جلد» البحر بسياطه؛ والملك قورش الذي استخدم جيشه للانتقام من النهر؛ وملك آخر نزلت به كارثة فمنع المواطنين من أن يصلوا للإله؛ وقدماء سكان THRACE الذين كانوا يرمون السماء، عندما تبرق وترعد، بالسهام رغبة في أن يعود الإله إلى صوابه.

ومن آراء فرويد FREUD (1856 - 1939) الشهيرة قوله بأن ما يوجه سلوك الإنسان هو مبدأ اللذة والألم. أي أن الإنسان أثناء سعيه لإشباع احتياجاته وتجنب الآلام والمزعجات يواجه عراقيل وصعوبات كثيرة. وبذلك يدخل في صراع، خفيف أو شديد، مع أبويه، وفي المدرسة والشارع ومكان العمل وغيرها. ومما يزيد الطين بلة أنه، في معظم الحالات، لا يقنع بالحصول على الاحتياجات الأساسية، بل ينافس ويصارع ويقا تل ليصبح ثرياً وقويًا مسيطرًا.

ويشير فرويد إلى بعض الوسائل التي تساعد على التخفيف من مزعجات الحياة ومتاعبها وآلامها فيذكر:

- 1 - اعتزال الناس، التخلي عن الطموح الجامح، والابتعاد عن مصدر المتاعب، والبحث عن السلام والطمأنينة.
- 2 - الاندماج في المجتمع والتعاون مع الناس بالاعتماد على المرونة في السلوك.

3 - اللجوء إلى المتع الفكرية والروحية والدينية والتسامي عن المغريات المادية.

4 - اللجوء إلى الكحول والمخدرات، وهو أسوأ الحلول.

لم تجد تحاليل فرويد ونصائحه، لأنها وإن زادت وعي الإنسان ببعض مشاكله، لم تقض عليها ولم تجعله أسعد مما كان. وترك لنا عشرات الحكماء والفلاسفة، قبل فرويد، تراثاً غنياً بالمواعظ والإرشادات والحكم. وجاء الأنبياء والرسول بتعاليم الترغيب والترهيب. فلم ينته البشر عن ارتكاب الجرائم، ولم يخل العالم من العنف والفساد والقتل والحروب.

ويواصل الإنسان توغله في أعماق العلوم، ويتوسع في ميدان الاختراعات التي لا حصر لها. فهل حسن هذا التقدم في ميادين المعرفة من سلوك الإنسان تجاه أخيه الإنسان وتجاه الطبيعة؟ وهل أصبح الفرد اليوم أقل جشعاً وأنانية ووحشية مما كان عليه في العهود الغابرة؟ أم أن نزعته نحو الشر ستؤدي به في النهاية إلى تدمير الحياة؟ بسبب أنانيته وحماقته وإخلاله بسنن الطبيعة وبالأمانة التي تحملها.

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ (الأحزاب: 72)

صدق الله العظيم.

الإنسان والقلق



المقدمة

المقدمة



يأتي الإنسان إلى هذا العالم في شكل مادة خام، تشتمل على استعدادات عظيمة وقدرات كبيرة، تساعد على الحصول على حاجته. وأثناء نموه، تتطور هذه الإمكانيات والمواهب الكامنة، وتتفاعل مع عوامل عديدة، مثل الأسرة والمجتمع والثقافة والتعليم. فتزدهر هذه القدرات والمؤهلات وتتفتح وتتفتح، إن لاقى ظروفًا ملائمة، وتتخلص وتتكمش وتختق أو تتحرف، إن لاقى في طريق نموها عراقيل شديدة وتجارب قاسية، وما أشبه هذه المادة الخام، في هذه الحالة، بالبذور التي تزدهر إذا وجدت الماء والنور والتربة الصالحة، وتذبل أو تموت إن فقدتها.

ويسخر الإنسان منذ ولادته إمكانياته وطاقاته، لتحقيق حاجاته المادية مثل الأمن والغذاء، وحاجاته المعنوية مثل الحب والتقدير والتفوق. ولهذا يمكن تفسير سلوكه على ضوء استغلاله لما يملك من مواهب وقدرات للحصول على حاجاته المتنوعة، في إطار قدرته على التكيف مع الظروف، والمناورة للتغلب على الصعوبات والعراقيل التي تواجه سبيله.

فالحياة سعي مستمر في سبيل البقاء والتطور والانسجام والمتعة، والاستعداد لمواجهة أزمات الحياة وتقلباتها. وتبدو ضرورة التغيير

ذكريات وبصمات

والتلاؤم في جميع المخلوقات من الحشرات حتى الإنسان. فالمخلوقات الجديرة بالحياة، هي تلك الكائنات التي تملك من القوة والمرونة ما يساعدها على الحصول على حاجاتها، والتكيف مع متطلبات الحياة ومسايرة مقتضياتها.

وما ينفك الإنسان يسعى وراء هدف ما؛ وهو أثناء سعيه يمر بمراحل مختلفة. فقد يعقب الأمل صعوبات غير متوقعة، فتزداد الشكوك ويشتد القلق، وقد تتأرجح الكفة نحو الأمل أو اليأس، حسب شدة صعوبة العراقيل، وقساوة الظروف التي تعترض سبيل الإنسان. وقد يكون القلق زائراً خفيف الظل كسحابة صيف سرعان ما تتبدد، وربما يكون عميقاً مستديماً. وكل ذلك يتوقف على الهدف المنشود، والفرصة الضائعة، والأمل المفقود؛ وعلى حزم المرء وسعة أفقه ومدى تمرسه بالحوادث، وما لديه من قدرات على مواجهة الشدائد والعوائق.

وليس هناك موقف أو أسلوب محدد، يقال عنه إنه أنسب أنواع السلوك وأصلحها، في جميع المراحل والمواقف، سواء كان الوضع يتعلق بشخص أو جماعة أو شعب. ثم إن الناس طبائع ومعادن، منهم من يتمتع بشخصية قوية واستعدادات كبيرة، ومنهم من هو أقل حظاً. منهم من يلتزم بالواقعية، ويبتعد عن الشبهات والمغالاة في تصرفاته، ويتجنب من السلوك ما يؤدي إلى هدر طاقته، والتفسير الخاطئ للحوادث. وتكون معاناة هؤلاء من القلق أقل من غيرهم، لأنهم يواجهونه بصفة واقعية مباشرة.

وليس جميع أنواع القلق مضرّة، بل إن قدرة الإنسان على الشعور

بالقلق عملية بيولوجية ضرورية للحياة. وهذا هو القلق الإيجابي المفيد، الذي ينبه الإنسان إلى وشك حدوث تغيرات غير ملائمة في محيطه. أما القلق السلبي المضر فهو ما تجاوز الحدود، واستمر حتى في حالة عدم وجود أي خطر حقيقي على الإنسان.

إن الإنسان طاقة نفسية وبدنية دينامية، لا يمكن أن يحقق ذاته إلا بالتفاعل مع الناس، ولا أن يحكم على نفسه إلا وهو مندمج ضمن البيئة الاجتماعية. فالمعايير التي يزن بها نجاحه أو إخفاقه، ويحكم بها على تصرفاته، تأتي بالمقارنة بما يفعله الآخرون.

ومهما طغى الوجود المادي على الإنسان، فإنه يظل واعياً أن لسلوكه وتصرفاته جوانب نفسية واجتماعية وأخلاقية هامة. وإذا كانت حياة معظم الناس تتسم بالسعي الدائم لحيازة المركز المرموق، والكفاح من أجل الرفاه المادي، دون أن يعيروا الاهتمام الكافي للجوانب النفسية والمعنوية في الحياة، فالنضال المضني لتحقيق النجاح المادي يقتل الحياة الراضية المطمئنة في نفوسنا. وكلما زادت دوافع الإنسان وطموحاته نحو الكسب المادي والرقى في السلم الاجتماعي، زاد ضغط الحياة عليه، إلى أن تثقل نفسه وبدنه أعباء التوتر والضغط المتواصلة. ولكن النجاح الحقيقي أشمل من ذلك وأعمق، فهو يتمثل كذلك في تحقيق الرضى النفسي والتوازن العاطفي.

وتهيمن الانفعالات، سواء كانت سلبية أو إيجابية، خفيفة أو عنيفة، على حياة الإنسان وتوجه تصرفاته وسلوكه. والمرء بدونها لا يمكن أن يظل إنساناً، لأنه لا يمكننا أن نتصور إنساناً لا يخاف ولا

ذكريات وبصمات —

يأمل، ولا يحب ولا يكره، سواء كان الحب والخوف يتعلقان بأمور الدنيا، أو بحياة الجنة أو الجحيم في الآخرة. وقد كانت الانفعالات وما زالت تتحكم في وتيرة الحياة، وتؤثر في ما يبذل الإنسان من أعمال جليلة، وما يقترب من أعمال شريرة. ولهذه الانفعالات فضل في قدرة الإنسان على مواجهة مصاعب الحياة وأخطارها، بل لولاها لما استطاع أن يصمد في العهود الغابرة أمام الحيوانات المفترسة التي كانت منتشرة آنئذ. فانفعال الخوف مثلاً هو الذي يؤدي إلى عمليات كيميائية داخل البدن. فتزداد قوة العضلات وسرعة الأرجل وعمق التنفس، وكل ذلك يساعد المرء على مواجهة الخطر أو النجاة بنفسه .

والانفعالات هي استجابة البدن أمام مؤثرات البيئة. وإذا كان بوسع الإنسان أن يعبر عن انفعالاته أو يخفيها، فهو غير قادر على تغييرها كلياً. وعندما يحاول المرء أن ينكرها فهو ينكر نفسه وشخصيته، ولهذا كان الحل السليم هو قبول هذه الانفعالات والرضا بها، ومحاولة تخفيف وطأتها، وتوجيهها واستغلالها .

إن الخبرات الانفعالية في مستوياتها العادية جزء لا يتجزأ من حياة الإنسان. فهي تحفز صاحبها على النشاط، وتدفعه نحو الهدف المنشود بقوة وحماس. فهي للإنسان مثل الزيت والملح والتوابل للطعام، بل أشد من ذلك تأثيراً. غير أنها إذا تجاوزت درجات معقولة وطالت مدتها، تصبح مثل السوسة التي تنخر الحياة وتحطمها تدريجياً. فقد يعاني المرء من القلق، والكآبة، والخيبة لحظة، وربما صحبته سنوات طويلة. وللإنسان في الحياة مطالب ورغبات، وحاجات ، وأهداف

وآمال، ودوافع، تحركه نحو الارتقاء وتحسين وضعه الفكري والمادي. وهو أثناء سعيه يواجه العراقيل والكوارث، ويعاني الأزمات والأمراض.

ويهدر المرء جزءاً كبيراً من طاقته، إذا كان يعاني من القلق والتوتر والارتياب والصراع، ويشعر بالتعب، ويفقد الاهتمام بعمله وبما يجري حوله، وبالحياة بصورة عامة. وربما أصبح عاجزاً عن اتخاذ القرارات اليومية، فيصاب بالحيرة والارتباك، ويصبح غير قادر على مواجهة متطلبات الحياة ومشاكلها، فينطوي على نفسه، ويزداد سخطه على العالم من حوله. ومتى وجدت هذه السمات في شخص، فهي دليل على نشوء المشاكل الانفعالية التي ينبغي البحث عن مصادرها، ومعالجتها قبل أن تحطم حياة الإنسان.

ولابد من الإشارة إلى بعض الحقائق ومنها أن الإنسان وحدة متكاملة لا تتجزأ، تتمثل في بدنه وتفكيره وانفعالاته. كما ينبغي التأكيد على التأثير المتبادل بين انفعالاته وبدنه، ومنها كون هذه الانفعالات، مهما تعددت وتنوعت، متداخلة متشابكة فيما بينها، وأنا يفصل بعضها عن بعض لتسهيل دراستها وتحليلها. ومنها اختلاف درجات الاستجابة للمثيرات، وردود أفعال الناس في المواقف المبهجة والمزعجة. فالإهانة التي تراق من أجلها الدماء في بلد ما، قد لا تثير إلا تعليقاً ساخراً في بلد آخر. وهذا يدل على مدى نسبية القيم الأخلاقية، واختلاف أحكامها من مكان إلى آخر. ولهذا ينبغي عدم المبالغة في التعميم، لأن لكل إنسان شخصيته المتميزة، كما لكل منطقة أو قبيلة حضارتها وثقافتها وتقاليدها.

ذكريات وبصمات —

ومع ذلك فإن كثيراً من الناس لا ينتهبون إلى هذه الحقيقة، حقيقة الارتباط الوثيق بين الفشل والقلق والتوتر مثلاً، وبين ما يعانون من أعراض مرضية بدنية. ولكن الأطباء يؤكدون أن الذين يعانون اضطرابات بدنية، نتيجة المشاكل النفسية، يتجاوز عددهم نسبة 50 في المئة بكثير. وتشير جميع الوقائع إلى أن المرض العضوي يؤثر على حياة الإنسان العاطفية والفكرية، كما أن الانفعالات العاطفية السلبية العنيفة، تؤثر على صحة الإنسان تأثيراً سلبياً. فالشخص القلق، مثل الشخص الذي يعاني القرحة المعدية أو الصداع، كلاهما يشعر بألمه ويواجهه بجسده وفكره معاً.

وما أشد الفرق بين الإنسان القوي السليم والرجل الصالح النشط الذي يخدم نفسه وأسرته والمجتمع، والشخص العليل المضطرب الذي يعيش وهو عبء على الجميع، يصاحبه الشعور بالخيبة والفشل. وتشير الإحصاءات إلى الخسائر الكبيرة التي يتحملها المجتمع، سواء كان المرض نتيجة أسباب عضوية أو نفسية. فإذا تغيب عن العمل خمسمائة ألف عامل في بلد ما مدة عشرة أيام في السنة فقط، يقل الإنتاج بمقدار خمسة ملايين يوم عمل. هذا بالإضافة إلى تكاليف الأطباء والأدوية والمستشفيات، وما تسببه الأمراض من اضطرابات في حياة الفرد وأسرته، وفي أنشطته الاجتماعية بصفة عامة.

وما لم يؤكد الطبيب بطريقة لا تدع مجالاً للشك، أن سبب الخلل البدني هو مرض عضوي، فلا ريب أن السبب هو مجموعة من العادات

الانفعالية السيئة، التي تمكنت من الإنسان بمرور الزمن، وأصبحت تسيطر عليه. وهناك إشارات عديدة تنذر الإنسان بأنه ينحرف عن السلوك الصحي، مثل الشعور بالمفرط بالقلق والتعب والتوتر والكآبة أو العدوانية والفسل. ومما يؤسف له أن كثيراً من الناس يخفون اضطراباتهم النفسية، لأن المجتمع لا ينظر إليهم بعين العطف والاحترام، مثلما ينظر إلى أن من كسرت رجله أو أجريت له عملية جراحية.

ولهذا فإنه من الأساسي ، أن يكون الطبيب قادراً على التمييز بين المريض الذي يعاني من الانفعالات السلبية ، والمريض الذي يعاني أماً عضوياً . ومن الضروري كذلك أن يركز على وحدة الإنسان بدناً وفكراً، وأن يكون ملمّاً بالتغيرات التي تحدث في البدن، ومدى تأثيرها على الفكر، والعلاقات بين العمليات العضوية والنفسية. وقد أثبتت البحوث والتجارب لما لا يدع مجالاً للشك، مدى الارتباط بين الأزمات التي تجابه الإنسان في الحياة، وما تحدثه من هزات نفسية تقلق الإنسان، وتضعف مقاومته وتجعله عرضة للمرض. وأصبح من المؤكد الآن، أن الارتباط وثيق بين الانفعالات وما تحدثه من تغييرات فسيولوجية، وما ينجم عن هذه الأخيرة من اضطرابات مرضية عضوية. وقد أسهب الأطباء في الحديث عن طرق معالجتها، وهذا ما يدعى بالطب النفسي العضوي.

فالإنسان يتعلم منذ ولادته، بفعل ما يتعرض له من تجارب ، التمييز بين المواقف التي تهدد أمنه وسلامته، والتي تجلب له الراحة والاطمئنان. وعندما يجد نفسه أمام مواقف خطيرة، يحصل توتر في

ذكريات وبصمات —

بدنه، تنتج عنه استعدادات نفسية فسيولوجية تساعد على مواجهة الخطر أو الفرار منه . ولا يختلف الحيوان كثيراً عن الإنسان في مواقف الخطر. وذلك لأن الإنسان ما زال يحمل في رأسه ذلك الجزء البدائي من الدماغ التي يشترك فيه مع معظم الحيوانات. وهذا الدماغ البدائي هو مركز الانفعالات، والمسيطر عليها والمحرك لها. أما الدماغ الحديث الذي يشغل معظم حجم الجمجمة، والذي تميز به الإنسان عن الحيوانات، فقد نما وتطور تدريجياً، إلى أن بلغ الحجم الذي نعرفه اليوم .

وعندما يشعر المرء بالاطمئنان والابتهاج، أو بالحزن والكآبة والخوف والعدوانية، يكون منبع جميع هذه الانفعالات هو الدماغ البدائي، وهو الجهاز الذي يعمل على حفظ التوازن الحيوي بين مختلف المواد الكيماوية الموجودة في الدم، وهذا التوازن أساسي لاستمرار الحياة. إن الدماغ البدائي هو الذي ينظم عمليات التنفس، والهضم، ودقات القلب، وضغط الدم، ويحافظ على حرارة البدن في مستواها الطبيعي. وعندما يشعر المرء بالخطر، فإن هذا الدماغ البدائي هو الذي يدفع الغدد الأدرينالية لتصب مادة الأدرينالين في مجرى الدم، بهدف تحفيز الكبد على زيادة إفرازاته، والعضلات على مضاعفة نشاطها، كما يزيد سرعة التنفس ودقات القلب، لإمداد العضلات بالكميات اللازمة من الأوكسجين، والطاقة الضرورية التي تمكن الإنسان من مواجهة الخطر، والاستعداد للطوارئ، أو الهروب والنجاة منه إذا حتمت الظروف ذلك.

وليس من الضروري أن تتمثل مصادر الخطر في حيوان مفترس، أو عدو يحمل خنجرًا، أو سيارة تتجه نحوك بسرعة مرعبة. فالإنسان قوة دينامية تتفاعل مع قوى البيئة والأسرة والمجتمع، وتتأثر بما يتعرض له من تجارب وخبرات، وهو يخضع لما في بيئته من تقاليد وقوانين وأنظمة، أو يثور عليها. وهو أثناء حياته يتعرض لحوافز ومثبطات، وينال حظًا من التقدير أو العقاب، ويواجه كثيرًا من المثيرات والمقلقات، والأوامر والنواهي، والعراقيل التي تقف أمام إشباع غرائزه، وتمنعه من بلوغ أهدافه. وهو في سعيه لتحقيق أمنه وسلامته، والحصول على السمعة والمركز، قد يلاقي المنافسة والصعوبات. وجميع هذه الظروف والمواقف تعرضه لأنواع ومستويات مختلفة من الانفعالات الإيجابية، إن كلل سعيه بالنجاح، أو الانفعالات السلبية، إن كان مصيره الإخفاق. ولا شك في أن الإنسان في عصرنا يعاني من أخطار عديدة، تتمثل انعكاساتها في العدوانية والخيبة والقلق والعصاب وفقدان الأمن.

وما دام الإنسان علق بالحياة وعلقت به ، فمن الحكمة أن يبذل جهده، ويعمل من أجل إصلاح حاله، واستغلال طاقته على أحسن ما يرام. والخطوة الأولى هي أن يتعرف على نفسه وإمكانياته وقدراته، ومصادر قوته ونقاط ضعفه، ويعترف بأن تعرض طوال حياته لعدد من الانفعالات السيئة، والعادات المضرة التي سيطرت على تصرفاته، ونغصت حياته وأنهكت قواه البدنية والمعنوية. وسواء انتبه المرء لهذه الحقيقة بعد عشر سنوات أو ثلاثين سنة، فإنه إما أن يستلسم لتلك العادات السلبية، ويرضى بنصيبه من الشقاء والتوتر وسوء المصير، أو

ذكريات وبصمات

ينهض لبداية حياة جديدة، ويستبدل تدريجياً بهذه العادات المزعجة والسلوك السلبي سلوكاً إيجابياً تغلب عليه انفعالات المحبة والاطمئنان والحماس والرضا، يخفف أعباءه ويسهل عليه الاحتفاظ بطاقته ومواصلة الحياة بطريقة أيسر وأفضل. ولا يجدي كثيراً أن يتحسر على الماضي، ويبيكي على أخطائه أو فرصه الضائعة، وأن تستبدل به أحزانه أو سوء مآله، بل لا يجدي كذلك المبالغة في التركيز على اكتشاف الحكمة وراء البؤس والظلم والشقاء وفقدان العدالة في هذا العالم.

يفتح المولود عينيه فيجد نفسه في أسرة سعيدة أو شقية غنية أو فقيرة، جميلاً سليم الخلق، أو قبيحاً ضعيفاً مشوهاً. وتزداد حيرته عندما يكتشف أن الفناء ينتظره في نهاية المطاف، وأنه لا ذنب له فيما ورث من مشاكل، ولا فضل له فيما ورث من مزايا. ولهذا فمهما بلغ الإنسان في حياته من العلم والتقدم، وحقق من عجائب المصنوعات، وأبدع من روائع المحدثات، فهو لا يقدر دوماً على شراء الهناء والسعادة والصحة، أو على تجنب الفناء، وعلى الرغم من أنه يؤثر على مجرى الحوادث فإنه يعرف أن حياته خاضعة في كثير من الأحيان لقوى خارجة عن إمكانياته وإرادته.

وتجدر الإشارة إلى أن النجاح الحقيقي لا يكمن فقط في اكتساب الشهرة والمركز، والسمعة والثروة والجاه، بل كذلك في الإنجازات الخلاقة التي تساعد المرء على بلوغ الرضا والاطمئنان، وتحقيق الذات والأهداف الإنسانية، مهما صغر شأن هذه الإنجازات وقلت فائدتها المادية. ومن دلائل النضج الفكري والسلوك الرشيد، أن

يسعى المرء إلى اكتساب مجموعة من الأفكار والعادات التي تساعد على أن يحيا حياة هادئة مطمئنة، وتقوده تدريجياً نحو تحقيق ذاته، لعله ينعم بعيشة راضية مرضية.

ويشرح هذا الكتاب عدداً من الانفعالات السلبية الضارة ونتائجها، ويقدم بعض النصائح والإرشادات العامة التي تساعد على تخفيف وطأة القلق والتوتر النفسي. واستغلال القدرات الذاتية لمواجهة المشاكل النفسية. فهو إلى جانب التحليل النظري، يضم إرشادات وملاحظات عملية كانت ثمرة القراءة التي اتخذتها هواية في هذا المجال، منذ سنوات عديدة، وكذلك نتيجة ملاحظة سلوك الناس وحركاتهم وردود أفعالهم، والاستماع إلى أحاديثهم.

لقد بدأ اهتمامي بموضوع القلق صدفة. كان ذلك في عام 1972، عندما ذهبت ذات يوم لزيارة صديق يعمل في مكتبة الكونجرس، في واشنطن. كنت أبحث في درج البطاقات عن كتاب يتناول حياة النمل، لأنني شاهدت في اليوم السابق، على شاشة التلفزيون، شريطاً عن حياة هذه المخلوقات العجيبة. وبينما أنا أفتش عن كلمة ANTS، وقع نظري على بطاقة كتب عليها كلمة ANXIETY، وهي تعني القلق. وبمرور الأيام اكتشفت أن موضوع القلق بصورة خاصة، والانفعالات بصورة عامة، أشد صلة بحياتي، خصوصاً لأنني كنت أعاني من توتر شديد في عضلات الكتفين، فبدأت البحث في هذا الموضوع.

ذكريات وبصمات

آمل أيها القارئ الكريم أن تجد بين صفحات الكتاب ما يساعدك على زيادة الوعي والاهتمام ببعض الحقائق في سلوكك، وعلى تقبل نفسك والرضا عنها، كخطوة أولى نحو الانسجام معها ومع من حولك، والاعتراف بكيانك كمخلوق مختلف عن بقية المخلوقات. ولعله سيساعدك كذلك على الاطمئنان الفكري والاسترخاء العضلي، إذا كنت من المتوترين المفرطين في الطموح، الذين لا يرضون عن أنفسهم مهما حققوا من أهداف، بدلاً من الاستمرار في خضم القلق والشعور بالخيبة والفشل.

الأزرق بن علو

نضات من الأءب العالئ



- المءءمة
- نبءة من كءاب «الأمئر» (ماكفاءفئلئ)
- ما هو «الأءب؟» (ءون بول سارئر)
- من أقواله

المقدمة



يشتمل هذا الكتاب على خلاصات عن حياة واحد وأربعين من الأدباء والفلاسفة الذين عاشوا في قارات متباعدة، وظروف حضارية مختلفة، وأزمنة تمتد من القرن السادس قبل الميلاد إلى القرن العشرين. ويستعرض اقتباسات متنوعة الموضوعات مما سطره من نصوص أدبية وفلسفية، وملخصات من بعض ما كتبه من قصص وحكايات، ومقتطفات من مسرحيات، ونبذا من الأمثال والحكم والنصائح، وملاحظات تاريخية.

وقد تناول هؤلاء الأدباء موضوعات شتى، فكتبوا عن الحب، الثروة، القدر، الحظ، الطموح، القلق، وعن الحياة وتقلباتها، وآمال الناس وآلامهم، وملذات الروح والجسد، ومباهج الدنيا وبؤسها. وحدثونا عن أيام سعدهم ونحسهم، وشبابهم وشيخوختهم، وعن أسرهم ومجتمعاتهم، وذاقوا مثلنا لذة النجاح والانتصار، ورغد الحياة ورخاءها، وإقبالها وإدبارها، وسجلوا لنا سير الأبطال والقبائل والأمم لنجد فيها قدوة صالحة وعبرة.

يبدأ الكتاب الحديث بإيجاز عن تطور المسرح، وفرسان المسرحية الأوائل في بلاد اليونان قديماً. ومن هؤلاء الشعراء إسكلس الذي أضاف إلى ساحة المسرحة ممثلاً ثانياً، بعد أن كان لا يضم سوى جوقة

ذكريات وبصمات —

الموسيقى والإنشاد وممثلاً واحداً. ومما يروي عن حياة هذا الشاعر الكبير أنه بينما كان ذات يوم يتجول في الخلاء، ألقى نسر على رأسه (وكان أصلع فظنه حجرة) سلحفاة ليكسر قوقعتها، فكان ذلك وسبب وفاته.

ومن فرسان المسرح الأوائل الشاعر أرسطوفان، وتروي الأخبار أنه عندما طلب ملك سرقوصه من الفيلسوف أفلاطون أن يمدّه بتحليل عن دستور أثينا، أرسل إليه نسخة من إحدى مسرحيات هذا الشاعر. ومنهم الشاعر يوربيديز الذي لقب بفيلسوف المسرح. ويروي أن سقراط كان لا يذهب إلى المسرح إلا بصحبته؛ وأن ملك مقدونيا، عندما علم بوفاته، قص شعر رأسه حزناً عليه. ومنهم الشاعر سوفوكليز الذي أضاف إلى ساحة المسرح ممثلاً ثالثاً لإنعاش الحوار بين الممثلين.

ويقدم الكتاب موجزاً عن حياة الحكيم الصيني الشهير لاوتسي الذي عاش في القرن السادس قبل الميلاد، وأثرى ديوان الحياة بحكمه وآرائه. ويتناول الكتاب حياة الحكيم بوذا الذي شملت تعاليمه جماهير غفيرة في جميع أنحاء المعمورة، ويستعرض نبذة من تعاليمه وأقواله، ومنها المجموعة «الحقائق النبيلة» التي كان يرى أنها تخلص الإنسان من المعاناة في هذه الحياة.

وينتقل إلى الحديث عن شاعرين من شعراء روما القديمة، أحدهما أوفيد، شاعر الحب والغرام، الذي قضى معظم حياته في روما ينعم بالترف والرفاهية، ولكنه عانى من آلام الفراق عندما نفاه الإمبراطور أغسطس إلى قرية بعيدة موحشة على ضفاف البحر

الأسود، كما يورد الكتاب ملخصاً عن حياة أحد أقطاب العقيدة المسيحية، توما الأكويني، الذي حاول أن يوفق بين تعاليم عقيدته وبعض الأفكار الفلسفية.

ولقد كتب الكثير حول حياة رجل الدولة ميكافيلي، وحول ما سجل في كتابه «الأمير» من نصائح للأمراء والملوك وذوي السلطة، وما زال البعض يتساءلون: هل كان ميكافيلي رجلاً شريراً، بغيضاً حقاً؟ أم أنه رجل وطني شجاع سجل كثيراً من الأفكار التي لم يجرأ غيره على تدوينها، وسعى إلى خدمة بلاده، إيطاليا، وتوحيد صفوفها.

ونقرأ عن الفيلسوف كمبانيلا الذي ألف أهم كتبه في السجن، ومنها كتابه «مدينة الشمس» الذي تخيل مجتمعاً مثالياً، يشترك فيه السكان في جميع نشاطات الحياة وخيراتها، ويعيشون سعادة في ظل «العدالة الاجتماعية». ويستعرض الكتاب حياة فارس آخر غامر في جميع ميادين الحياة، وهو لاروشفوكو، واشتهر بكتابه «الأمثال».

ويتناول الكتاب حياة الكاتبة الفرنسية مدام دي ستايل، التي اشتهرت بتعدد عشاقها، وبصالونها الذي كان يلتقي فيه جماعة من المعارضين لسياسات نابليون؛ ويقدم نبذة عن حياة الأديب إميل زولا، وملخصاً عن روايته الشهيرة «جيرمنال»، هذا الأديب الذي لقي حتفه اختناقاً في غرفة نومه، بسبب انتشار ثاني أكسيد الكربون.

ومن جملة من يرد ذكرهم في الكتاب الأديب ألفونز دودي الذي اشتهر بقصصه القصيرة؛ والأديب موبسان الذي عانى لسوء حظه من

ذكريات وبصمات —

داء الزهري، ومن الشلل والجنون، وحاول الانتحار. ومنهم فيلسوفان ذاع صيتهما في القرن العشرين، واتفقت آراؤهما حول بعض القضايا الدولية الهامة مثل معارضة الحروب الاستعمارية، وأسلحة الدمار الشامل. ومنهما من فرضت عليه غرامة، وألقي في السجن، وطرد من وظيفته، ووضعت متفجرات في منزله، لإسكاته والحد من نشاطه. هذان الفيلسوفان هما جون بول سارتر، وبرتراند راسل؛ وقد نال كل منهما جائزة نوبل.

ومن الكتاب الذين يحدثنا عنهم الكتاب المؤرخ الإنكليزي إدورد غيبون، ويورد مقتطفات من كتابه حول «تدهور الإمبراطورية الرومانية وسقوطها»؛ ومنهم دي كوينسى صاحب كتاب «آكلي الأفيون» الذي يصف فيه آلامهم النفسية والجسدية؛ والأديب كارليل، مع اقتباسات من كتاباته.

ويسترسيل الكتاب في عرض ملخصات من مؤلفات عدد آخر من الأدباء، ونبذ عن حياتهم، ومنهم الأديب الإنكليزي برنارد شو، والأديب الروسي تشيكوف، والأمريكي لونغفلو، والألماني توماس مان، والسنغالي ليوبولد سنغور، وغيرهم.

أرجو أن يجد القارئ في هذا الكتاب ما يثير الفكر، وينعش النفس، ويشحذ الخيال، ويحفز على مطالعة أخبار السابقين وآدابهم ليستفيد من معارفهم وتجاربهم.

الأزرق بن علو

مقتطفات من بعض الموضوعات التي يحتويها كتاب «الأمير»



* حول الأمير وموضوع الحرب:

يجب على الأمير أن يركز تفكيره وهدفه ودراسته على موضوع الحرب وفنونها وقواعدها واستراتيجيتها. إن فنون القوة الحربية الناجحة تدعم انتصار الذين يولدون أمراء؛ بل في أحيان كثيرة تمكن رجالاً من عامة الناس من الارتقاء إلى قمة الحكم. وكثيراً ما يفقد الحكام سلطانهم عندما يميلون إلى حياة الاسترخاء ويهملون فنون الحرب. إن الأمير الذي يهمل تسليح بلاده تسليحاً جيداً يصبح منبوذاً...

وعلى الأمير (الحاكم) أن ينمي أفكاره ويوسع معلوماته بأن يطالع كتب التاريخ، ويدرس إنجازات عظماء الرجال ليعرف أساليب تصرفهم ومناوراتهم في قيادة الحروب؛ وعليه أن يفكر في أسباب انتصاراتهم أو انهزامهم ليكون ذلك له قدوة وعبرة. ومن الأهمية بمكان أن يعمل الأمير بحزم ونشاط أثناء فترات السلم لينمي موارده، ويعد جيشه لمواجهة أوقات الشدة، ومفاجآت الزمان، وتقلبات الملك.

حول سلوك القسوة والوحشية، وسلوك
الرحمة والتسامح، وهل من الأفضل للأمير
أن يحبه الناس أم أن يرهبوه



ما دام الأمير قادرًا على أن يحافظ على وحدة شعبه وولائهم، فلا خوف من أن يتهمه الناس بالقسوة، لأنه عندئذٍ قادر على أن يقدم بضع أمثلة على كرمه وحسن معاملته، ينال بها سمعة التساهل والرحمة والعطف على الناس. أما الحكام الذين يتجاوزن الحدود في تسامحهم ولينهم وتساهلهم، فإنهم بذلك يسمحون بانتشار الفوضى التي قد تتلوها الفتن والنهب والقتل، وهي أعمال تؤذي عامة الناس، في حين أنه إذا قام الأمير بتنفيذ أحكام الإعدام في عدد من الناس، بهدف الردع والتخويف، فهذا عمل يؤذي بضعة أشخاص فقط.

وهنا يتساءل المرء: هل من الأفضل للأمير أو الحاكم أن يكون محبوبًا لدى شعبه، أو من الأفضل أن يخافه الناس ويرهبوه؟ وبما أنه من العسير أن يجمع السلطان (الأمير) بين محبة الشعب له وخوفه منه، وجب القول بأنه من الأفضل، إذا دعت الضرورة للاختيار، أن يخافه الشعب من أن يحبه. وقد أثبتت التجارب، بصفة عامة، بأن سلوك الناس يتسم بالتقلب ونكران الجميل وبالجبين والأنانية. فهم معك ما دام النجاح والنصر حليفك، يضحون في سبيلك بأموالهم

وأولادهم ودمائهم ما دامت الحاجة إلى هذه التضحية بعيدة، ولكن عندما تشتدّ الأزمة ويتطلب الوضع هذه التضحيات يصدون عنك، وربما وقفوا ضدك... أما الصداقة التي يكتسبها المرء بدفع تعويضات فإنها ليست مضمون في وقت الشدة. ومن المعروف أن الناس لا يترددون كثيراً في التخلي عن شخص يحبونه من أجل المصلحة، بينما نجدهم يفكرون طويلاً قبل الإساءة إلى شخص يرهبون بطشه...

غير أن الأمير (الحاكم) في سعيه لبث الخوف في النفوس، ينبغي له أن يتجنب إثارة الكراهية في قلوبهم، لأنه بإمكانه أن يتحمل خوف الناس ما داموا لا يبغضونه، ولهذا يجب عليه ألا يمس ممتلكاتهم، وألا يعبت بنسائهم، إذ من الممكن أن ينسى المرء بسرعة وفاة أبيه أو قريبه، وليس الأمر كذلك فيما يتعلق بفقدان ممتلكاتهم أو نسائهم.

الوفاء بالوعد...

هناك طريقتان لحل النزاعات: الأولى بالأساليب القانونية، والثانية بالقوة. وبما أن الأسلوب الأول لا يكفي في معظم الحالات، يصبح من الضروري اللجوء إلى القوة، وعلى الأمير أن يلبس تارة جلد الأسد وطورا جلد الثعلب... وبما أن الناس طبعوا على البشر، ولا يحفظون العهد، فالأمير كذلك ليس ملزماً بالوفاء بوعدده، خاصة إذا كان الوفاء يعود بالضرر على مصالحه.

وعلى الأمير (والحاكم) أن يتظاهر بأنه يتصف بجميع الأخلاق

ذكريات وبصمات

الفاضلة، مثل الرحمة والوفاء والتقوى والاستقامة والإنسانية وغيرها، ويغتم الظروف الملائمة ليؤكد ذلك للناس، ولكن تطبيق هذه الصفات في واقع الحياة يضربُ بمصالح الحكم.

وفيما يلي اقتباس من كتاب سارتر Situations II⁽¹⁾ تحت

عنوان:

ما هو الأدب

«... أما الكاتب فهو عكس ذلك، يهتم بالرموز والإشارات، ومن المهم التمييز بين عالم الإشارات والرموز، وهو النشر؛ وعالم الشعر الذي ينتمي إلى عالم الرسم والنحت والموسيقى. ويهتمونني بأني أكره الشعر؛ ويستدلون على ذلك بكوني لا أنشر القصائد في مجلة «الأزمة الحديثة» وأقول إن هذا دليل على أننا نجب الشعر، ولا نكرهه. وللاقتناع بهذا الرأي يكفي أن نلقي نظرة على الإنتاج المعاصر...»

إن الشعر لا يستخدم الكلمات مثل النشر بنفس الأسلوب والمفهوم؛ بل إنه لا يستخدم الكلمات على الإطلاق، إنه يخضع لها. اللغة وسيلة تساعد على البحث عن الحقيقة، والشعراء لا يسعون إلى كشف الحقائق ولا إلى شرحها؛ بل إنهم لا يريدون أن يشاهدوا العالم كما هو، ولأن تسمية الأشياء بأسمائها تعني أن نخصص الكلمة والاسم للمسمى دون غيره.

(1) سبقت الإشارة إلى هذا الكتاب.

والشعراء لا يتكلمون، ولكنهم لا يسكتون، والفرق بين... والواقع أن الشاعر لم يعد ينظر إلى الكلمات على أنها وسيلة للتعبير، بل اختار الحالة الشعرية، ويعامل الكلمات كأنها أشياء، وليست رموزاً وإشارات، والواقع أن الرمز، أو الدلالة، مثل الواجهة الزجاجية، يعني أنه بوسعنا أن ندرك من خلالها المعنى المقصود، وأن نوجهه إلى حقيقته. فالرجل عندما يتكلم، يتجاوز الكلمات ويقربنا من الموضوع؛ أما الشاعر فهو بعيد عن الموضوع. فبالنسبة إلى الأول أصبحت الكلمات أليفة، وبالنسبة إلى الثاني تظل غريبة. وبالنسبة لمن يتكلم، الكلمة أداة، تتآكل بمرور الزمن، ويمكن الاستغناء عنها عندما تعجز عن إبلاغ المعنى؛ أما بالنسبة إلى الشاعر فالكلمات أشياء تنمو طبيعياً، كما تنمو الحشائش والأشجار فوق الأرض.

ولكن إذا توقف الشاعر عند الكلمات، كما يفعل الرسام بالألوان، والموسيقيار بالأنغام، فهذا لا يعني، في نظره، أنها فقدت كل معناها، لأن المعنى هو الذي يعطي الكلمات وحدتها وتناسقها اللفظي...، إن المتكلم منسجم مع اللغة، مندمج في الكلمات، لأنها امتداد لحواسه، أدوات استشعاره ونظراته؛ يديرها من أعماق أحشائه وباطن نفسه، ويحس بها كما يحس بجسمه، فهو محاط «بجسد لغوي» لا يكاد يشعر بأنه خارج وجوده، وفوق ذلك ينشر آثاره في محيطه. أما الشاعر فهو خارج اللغة، ويرى الكلمات مقلوبة، وكأنه لا ينتمي إلى الوضع البشري، وهو عندما يواجه الناس، يواجه، قبل ذلك الكلمات كأنها حاجز أمامه.

**** من أقوال سارتر:**

- الموضوع الأدبي مثل الخذروف، لا قيمة له إلا عندما يدور. فليأتي الموضوع الأدبي بفائدة يجب أن يجد من يقرأه. ولهذا فإن الكتابة تعني حرية القارئ؛ وعلى الكاتب أن يكشف له العالم، ويقترح عليه أساليب التغيير.
- لا يكتب الكاتب لقارئ مجهول، بل لمواطنيه ومعاصريه. فالكتاب بما يحتوي من نظريات وفرضيات واقتراحات... يحدد نوع القارئ كما أن طبيعة جمهور القراء واتجاهاتهم تحدد موضوعات الكتاب.
- الأديب الملتزم يجد حياته وسط الناس، وينتعش بين أحضانهم.
- خلق الإنسان وهو يحمل عبئاً، عبء حرية التصرف، في عالم خال من أية قيمة خالدة، لذلك ليس له عذر في الفرار من المسؤولية.
- يصبح الكاتب ملتزماً عندما يغوص إلى أعماق نفسه، ليس بهدف أن يكشف عن فرديته، بل ليعرف دوره ضمن المجتمع المعقد الذي يكيّفه ويدعمه.
- كنت مثل كثير من الحالمين فظننت أن الأوهام حقائق.
- عندما تشعل الحرية منارتها في قلب الرجل، تفقد الآلهة سيطرتها عليه.

- عندما تطلع على تفاصيل الانتصار، يصعب عليك أن تميزه من الهزيمة.
- تبدأ حياة الإنسان من أعمق مرحلة من مراحل اليأس.
- الأغنياء يشعلون نيران الحرب، ليكون الفقراء حطبها.
- يوجد نوعان من الفقراء: الفقراء في مجموعهم، والفقراء الفرادى. الصنف الأول هم الفقراء حقاً، والصنف الثاني هم الأثرياء الذي خانهم الحظ.
- الإنسان هواية لا فائدة ترجى منها.
- الجحيم؟ هو الآخرون!
- يجب على الكاتب ألا يسمح لنفسه أن يستغل كأنه مؤسسة.
- اكتشفتُ العالم عن طريق اللغة، بل ظننت طويلاً أن العالم هو اللغة.

الرحلات



- حنبعل
- سنوحي
- الأرض ... وغبار النجوم

● حنبعل :

حنبعل (247 - 183 ق.م) قائد حربي عظيم، حارب الروم الغزاة بكل ما أوتي من قوة وشجاعة وذكاء وحب للوطن. أبوه الجنرال باركا، لقب بهملكار (البرق) لأنه كان يقوم بهجمات سريعة صاعقة على الروم. وقبل موته عام 231 ق.م. أوصى ابنه بمحاربة الروم حتى الموت. كان حنبعل سياسياً ماهراً، بالإضافة إلى كونه قائداً عظيماً . وكان في الوقت نفسه متواضعاً، لا يخص نفسه بشيء يميّزه عن جنوده، كان يأكل معهم وينام بينهم . وكان أبوه هملكار قد خاض حرباً ضروساً ضد الروم. وعندما تولى حنبعل قيادة الجيش عام 221 ق.م.، وضع نصب عينيه الانتقام من الروم الغزاة.

فكر حنبعل، وقرر أن ينقل الحرب إلى أرض إيطاليا، فجمع جيشاً من خمسين ألفاً من المشاة، وتسعة آلاف من الفرسان و37 فيلاً، وقاده عبر أسبانيا، حتى وصل إلى جبال الألب، بالقرب من ممر «سان برنار» عام 218 ق.م. وقد لقي جيشه صعوبات جمة في اجتياز جبال الألب، الفيلة خاصة، وفقد حنبعل عدداً كبيراً من جنوده في الطريق بسبب البرد والجوع.

وصل حنبعل إلى شمال إيطاليا، واشتبك مع الروم في المعركة الأولى عند نهر «بو» فهزّمهم . ووقعت معركة ثانية قرب بحيرة ترانسيما عام 217 ق.م.، كتب فيها النصر كذلك للقائد القرطاجي. واتجه حنبعل نحو الجنوب فاشتبك مع جيش روما في معركة ضارية بالقرب من «كان» Cannes عام 216 ق.م.

كانت هذه المعركة فاصلة، وكان النصر فيها حليف جيش قرطاج حيث قتل نحو خمسين ألفاً من جيش الروم، وأسر حنبعل عشرة آلاف، كما قتل فيها أحد قواد جيش العدو، وكذلك ثمانون من أعضاء مجلس الشيوخ الذين شاركوا في المعركة.

وبعد انتصار حنبعل في معركة Cannes أصبح الطريق إلى روما مفتوحاً أمامه. ولكن لماذا لم يزحف نحو روما لمحاصرتها، حيث إنه لم يعد لها جيش قوي يحميها؟ الواقع أنه لم يكن لدى حنبعل وسائل الحصار التي تمكنه من هدم الأسوار أو تسلقها. وظل ينتظر وصول أخيه بالإمدادات. غير أن هذا الأخير واجه قوات روما في شمال إيطاليا، وقتل في المعركة.

كان قائد جيش الروم يدعى شيبليون الإفريقي، وكان معجباً بأسلوب عدوه حنبعل وشجاعته، وقرر أن ينقل الحرب إلى قرطاج، فأسرع حنبعل راجعاً (عن طريق البحر) للدفاع عن وطنه، واشتبك مع قوات روما في معركة «زاما» عام 202 ق.م.، ولم يكتب النصر لجيش حنبعل، فاضطرت قرطاج لطلب الصلح.

وظل هدف حنبعل الوحيد أن يجمع قوات جديدة لمحاربة الروم، غير أن الفئات المعادية لحنبعل أبلغوا الروم أنه مازال يحرض على محاربتهم. فتوجه نحو الشرق وتتبع الروم أثره للقبض عليه. وفي النهاية، فضل أن ينتحر عندما حاول أحد الملوك الذي استضافه أن يسلمه إلى الروم خوفاً من بطشهم، وكان ذلك عام 183 ق.م.

● سنوحي⁽¹⁾:

أنا سنوحي، الخادم الوفي للفرعون العظيم، أمنمحات الأول، الذي أوكل إلى الإشراف على ابنته الأميرة وعلى حريم القصر الملكي. ومات سيدي الفرعون، فصعدت روحه إلى السماء حيث اتحدت مع قرص الشمس. وساد القصر سكون رهيب، وخيم الحزن فراح الناس ييكون رحيله في كل مكان. وكان الفرعون قد أرسل ابنه الكبير «سانو» في جيش عظيم ليخضع القبائل البربرية في الصحراء الليبية، وصدر الأمر إلى جميع الأمراء في القصر ألا يفشوا خبر وفاة الفرعون. ولكنني كنت ممن سمعوا هذا الأمر داخل القصر، فقلت لنفسي «أنت في خطر يا سنوحي، لأنه إذا انتشر الخبر الخطير سيظن الجميع أنني أنا الذي أفشيت السر».

شعرت بخوف شديد، فخرجت من القصر ورحت أفتش عن مكان أختبئ فيه مؤقتاً. بدأ قلبي يدق بسرعة، ورجلاي ترتجفان، والعرق يتصبب على جبينني. وتصورت أن الصراع قد بدأ داخل القصر بين من يتنافسون على عرش الفرعون، فقررتُ ألا أعود إلى القصر. مشيت ليلاً ونهاراً، وسافرت طويلاً، ونال مني العطش والجوع والتعب حتى كدت أموت. وذات يوم لقيت قبيلة بدوية، فعرفني شيخها لأنه كان قد أقام عندنا في مصر. رحب بي بحرارة وسرت مع أفراد القبيلة كأنني واحد منهم حتى وصلت إلى سوريا فأقمت بها.

(1) ملخص من قصة DIVIN MARGUERITE.

وذات يوم استدعاني أمير البلاد ورحب بي، وكان بعض المصريين ممن يعيشون في دياره أبلغوه خبري. ورغب الأمير في أن يعرف ماذا حدث في قصر الفرعون، ومن خلفه في السلطة، ولماذا خرجت من مصر. فأخبرته بحقيقة الأمر، وهي أنني سمعت خبراً لم يكن من حقي أن أسمعه، فخفت على حياتي وغادرت بلادي. كما حدثته عن «سانو» ابن الفرعون الذي سيتولى السلطة بعد أبيه، وأضفت أنه رجل صالح وحليم، وأني أود أن يسمع الفرعون الجديد أخباراً حسنة عن الأمير حتى إذا أرسل حملة إلى هذه البلاد سيعامل الأمير بما يستحق من تقدير واحترام.

لقيت معاملة حسنة من الأمير، فزوجني ابنته، وأقطع لي أرضاً على الحدود تتوافر فيها جميع الخيرات من نخيل وعنب وتين وزيت وخمور وأغنام وقمح وخيول، وجعلني رئيس القبيلة في تلك المنطقة. عشت في هذه الديار سنين عديدة حتى كبر أولادي وأصبح كلٌّ منهم رئيس قبيلة. ولم أنس خلال إقامتي أن أطعم الجائع وأروي العطشان وأغيث التائه والمظلوم. ألم أخرج من بلادي خائفاً، تائهاً لا أملك شيئاً؟! وكلفني الأمير بالدفاع عن حدود بلاده ضد البدو المعتدين. ولا أخفى أنني كنت في كل حملة أخوضها برجالي أعود بالأسرى وقطعان الماشية، وكان الأمير يمدح حسن تدبيرتي ورباطة جأشي.

ومرت السنين وبدأت الشيخوخة تدب في جسمي. وزادت رغبتني في العودة إلى بلادي، فكتبت رسالة إلى الفرعون أطلب عفوهُ وأستسمحه في العودة إلى مصر. وكم كان فرحي شديداً عندما وصلني جواب منه يأمرني بالعودة حتى لا أموت في بلد أجنبي،

ويعدني بأنني سأجد في مصر كل ما يسرني. نظمت حفلاً كبيراً
لأسلم أثنائه جميع ممتلكاتي لأولادي، وأصبح كبيرهم هو رئيس
قبيلتي، وسلمته عبيدي وقطعاني، ثم خرجت في جماعة من رجال
قبيلتي رافقوني حتى الحدود.

أرسل قائد حرس الحدود المصرية إلى الفرعون يخبره بوصولي،
فبعث الفرعون سفينة محملة بالهدايا لتوزع على البدو الذين رافقوني؛
ثم ودعتهم وركبت السفينة والسعادة تغمر قلبي. وكان ريان السفينة
رجلاً كريماً، يحضر لي الجعة كل يوم إلى أن وصلنا إلى مدينة تايثو.
وهناك لقيني عشرة رجال قادوني إلى القصر، ثم صحبني رجال
آخرون إلى قصر الفرعون. ولما لقيته رميت نفسي أمامه، فخاطبني
بعبارات لطيفة. نطقت بكلمات التقدير واعتذرت عن غيابي، وقلت
هذه إرادة الإله أمون رع، وفي يد جلالتك الحياة والموت، وأنا خاضع
لإرادتكم راض بحكمكم. والتفت الفرعون إلى الملكة قائلاً: هو ذا
سنوحي لقد أصبح أشبه بالبدوي منه بالمصري.

وحضر أطفال القصر فأنشدوا نشيداً في مدح الفرعون، وفيه
عبارات تسأله أن يعفو عني. أمر الفرعون أن يصحبوني إلى القصر
لأعيش بين الحكماء والمستشارين الذين يحيطون بالفرعون. حلقت
ونظفت شعر رأسي، وتخلصت من الملابس القديمة وتعطرت، فشعرت
كأن الشباب يعود لي وبعد مدة رحمت أفكر في مثواي الأخير الذي
سيكون مقر خلودي، فبنوا لي هرمًا لأدفن فيه، كما أعدوا صندوق
الدفن، والتماثيل والأثاث والعطور وجميع الأدوات واللوازم التي توضع
في قبري عندما يحين الوقت. وعشت أنعم برعاية الفرعون ورضاه في
انتظار اليوم الموعود.

● الأرض ... وغبار النجوم :

كثيراً ما يتساءل الإنسان : ما هو أصلنا؟ من أين أتينا؟ وأين يقع كوكبنا في هذا الكون الفسيح؟ ويأتى الجواب: أبونا آدم، أو أصلنا من حيوان برى، تطور بدوره من حيوان بحري. ولكن من أين جاءت المادة الأصلية؟ وما هو مصدر الحياة الأول؟

بعد أن تتكون النجوم تظل بقايا مواد سابحة في الفضاء الواسع بين النجوم، يختلف حجمها من ذرات إلى كتل ضخمة مكونة من غبار وغازات، من الحجارة والمعادن والثلج، تشتمل أحياناً على جزئيات عضوية. ويمر الزمن وتتكثف الغازات، وتتكدس المواد الأخرى تحت ضغط شديد، فتتشأ الكواكب.

الأسماك والأشجار، والزواحف والقردة، والعيون الساحرة والحدود الوردية والشفاه الغضة.. جميعها خلقت من الغبار والغاز والمواد الأخرى السابحة بين النجوم. فنحن أبناء الأرض، والأرض بنت الشمس، والشمس جزء من مجرة درب اللبانة... الخ.

إننا نعيش فوق كوكب صغير كذرة غبار لا تكاد ترى بالنسبة للكون الفسيح. كوكب «هش» بارد وحيد، يسبح في فضاء موحش مظلم ومرعب، لولا نور الشمس ودفؤها. وتجدر الإشارة إلى أن الأرض لا تتلقى سوى جزء واحد من مليارين ومئتي مليون من طاقة الشمس. ومع ذلك فإن أرضنا، رغم عزلتها، طيبة تزخر بشتى أنواع الحياة.

تكونت أرضنا منذ 7 , 4 مليار سنة تقريباً. وهي تدور حول نجم

أسميناه الشمس يبلغ عمره زهاء 5 ملايين سنة. وقد استنفدت الشمس أكثر من نصف عمرها، لأن النجوم تولد، تعيش، وتموت. ويؤكد العلماء أن شمسنا ستعيش نحو 5 ملايين سنة أخرى، إذ لا يمكنها أن تظل تشتعل دون نهاية لأن مخزنها من الطاقة محدود. وتنتج هذه الطاقة عن تحول الهيدروجين إلى هيليوم تحت ضغط حرارة هائلة، وهي عملية تفاعل نووي. وعندما تستهلك طاقتها ستنتفخ ويزيد حجمها، ويحمر لونها، وتتسع حتى تغطي الكواكب القريبة منها، بما فيها الأرض. وسيكون ذلك يوماً مشهوداً، عاصيباً؛ يوم ترجف الأرض والجبال؛ يوم تمور السماء موراً، يوم لا يبقى ولا يذر.

هناك نجوم ضخمة عملاقة ولكنها خفيفة الكثافة، مثل فقاعة الصابون؛ وأخرى صغيرة الحجم ولكنها شديدة الكثافة. نجم يمكن أن يضم في حشاياه عشرة آلاف شمس، وآخر في حجم مدينة، غير أن كثافته تساوي مائة ترليون مرة كثافة الرصاص. توجد نجوم منعزلة (مثل شمسنا) وأخرى مثنى وثلاثي يدور بعضها حول البعض الآخر، وهناك نجوم لامعة متوهجة وأخرى لا تكاد ترى. والنجم ذو الضوء الأزرق يكون في ريعان شبابه، وذو الضوء الأصفر في متوسط عمره، وصاحب الضوء الأحمر يكون قد دخل مرحلة الشيخوخة.

كل شيء في هذا الكون يتغير ويتطور، يتكدر ويتكثف ليشكل أجراماً سماوية، ثم يتبعثر ويتحلل ويظل سابحاً في الفضاء، إلى أن تنتهى ظروف جديدة فتتجمع المواد من جديد لتتكون منها نجوم وكواكب ومجرات. والعامل الذي لا ينبغي أن يهمل في هذا التغيير هو الزمن

ذكريات وبصمات

الطويل، ملايين السنين. فبالنسبة لحياة النجوم وموتها وبعثها من جديد، تبدو حياة الإنسان أقصر من حياة الفراشة، بل كومضة البرق الخاطفة.

أما أين نحن في هذا الكون اللانهائي فإن مجموعتنا الشمسية توجد على حافة ذراع تابع لمجرة حلزونية نسميها مجرة درب اللبانة. ويقع هذا الذراع في ضاحية من ضواحي هذه المجرة، إذ يبعد عن مركزها بنحو ثلاثين ألف سنة ضوئية، ومن المعلوم أن سرعة الضوء ثلاثمائة ألف كيلو متر في الثانية. وتشمل مجرتنا نحو أربعمائة مليار نجم، وهي تقع في زاوية من زوايا الكون. ويقول العلماء إن الكون كما نعرفه تكوّن منذ ذلك الانفجار العظيم الذي يعرف «بالانفجار الكبير»⁽¹⁾، والذي حدث منذ نحو عشرين مليار سنة.

يوجد في العالم الآن زهاء مائة مليار مجرة، وكل مجرة تشمل نحو مائة مليار نجم، بالإضافة إلى ما يتناثر بين النجوم من غازات وغبار وحطام. وإذا قلنا إن عدد الكواكب التي يقدر أنها تتناثر في مداراتها حول النجوم (كالكواكب التي تدور حول شمسنا) تبلغ نحو عشرة مليارات من الترليونات، أي رقم عشرة متبوعاً باثنين وعشرين صفراً، فهل من الممكن أن يكون هذا العدد الهائل من الكواكب خالياً من الكائنات الحية؟! أم أن عدداً كبيراً منها يزخر بالحياة مثل كوكبنا؟

وإذا كانت المسافات على الأرض تحسب بالكيلومتر ، فإن البعد بين الأجرام السماوية يقاس بسرعة الضوء التي تبلغ 300 ألف كلم في الثانية.

. The Big Bang (1)

ففي ثانية واحدة يدور خيط من الضوء سبع مرات ونصف حول الأرض (محيطها 40.000 كلم). ويقطع الضوء المسافة بين الشمس والأرض، وهي 149.600.000 كلم في نحو ثماني دقائق.

تدور الأرض حول محورها بسرعة 100 ميل⁽¹⁾ في الساعة (جرى قياس السرعة عند خط الاستواء)؛ وهي تدور حول الشمس بسرعة 66.600 ميل في الساعة، وتندفع الشمس في الفضاء بسرعة 43.000 ميل في الساعة؛ أما ذراع مجرة درب اللبانة، الذي توجد فيه الشمس فيدور حول مركز المجرة المذكورة بسرعة 630.000 ميل في الساعة. وتحتاج شمسنا، وما يحيط بها من نجوم إلى نحو 200.000.000 سنة لتتم دورتها حول عجلة مجرة درب اللبانة.

ويقول العلماء إن مجرة درب اللبانة، وما حولها، تندفع نحو مجموعة من المجرات تسمى VIRGO بسرعة 600 هذا التقدير ستلتحق بها بعد عشرة مليارات عام. كما يذكر أن شمسنا دارت حول مجرة درب اللبانة عشرين مرة، وأن المسافة من الشمس إلى مركز المجرة المذكورة تبلغ 30.000 سنة ضوئية. وأقرب مجرة حلزونية إلى مجرتنا هي M31 التي تبعد عنا بنحو مليوني سنة ضوئية، وتبلغ المسافة التي يقطعها الضوء في سنة واحدة عشرة ترليونات كيلومتراً.

وهناك أجرام سماوية نشاهدها اليوم ولكن ليس على حقيقتها الحالية، بل كما كانت منذ مائة مليون أو مائتي مليون سنة. ذلك أنه إذا

(1) الميل = 1600 متر .

ذكريات وبصمات

انفجر اليوم نجم يبعد عنا مليون سنة مثلاً، فإننا سنظل نشاهده كما كان قبل انفجاره خلال مليون سنة، لأن الضوء الذي انطلق منه في آخر لحظة قبل «وفاته» يظل ينسكب نحو الأرض لمدة مليون سنة قبل نهايته، أي قبل أن يصلنا آخر شعاع منذ انفجاره.

إننا نعيش على هذا الكوكب الأزرق الجميل، هذه الأرض الطيبة التي ما انفك الإنسان يفسدها بسبب جشعه وسوء سلوكه. وهذا الكوكب لا يزيد عن كونه ذرة غبار سابحة في هذا الكون المهيب اللانهائي، كون أقل ما يقال عنه إنه يضم نحو عشرة مليارات من الترليونات من الكواكب، ﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾.

منارات في رحاب الأدب العالمي



- الحياة السعيدة
- الأرملة والجندي
- التسلية والترويح عن النفس

الحياة السعيدة⁽¹⁾



ينبغي للمرء أن يحدد بوضوح ماذا يريد أن يحقق في حياته؛ وما الذي يجعل الحياة سعيدة، وأن يتأكد بوضوح من السبل والوسائل التي تقوده نحو أهدافه. وما دام الإنسان يسير مبلبلاً ضائعاً في خضم ضجيج الحوادث، يسعى بدون قصد، خاضعاً للصدف، فإن سنين حياته تتآكل تدريجياً إلى أن ينهكه الزمن، ويضنيه السفر الطويل بدون هدف محدد.

وينبغي أن نختار هدفاً حقيقياً، ثابتاً، صامداً، لا يكون مجرد مظهر لإرضاء الناس، أو للتباهي والمخادعة. تمسك بطبيعة الأشياء، وابدح قوانینها، إنها قوانین الحياة. وأول خطوة على هذا الدرب هو أن تكون الروح زكية طاهرة، شجاعة صابرة، ومنسجمة مع ظروف عصرها؛ وألا يكون إفراطٌ في متطلبات الجسد وما يتعلق به؛ مع

(1) Seneca (04 ق.م - 65 ميلادية)، فيلسوف ورجل دولة روماني؛ كان من أتباع المذهب الرواقي القائل بأن الرجل الحكيم يتحرر من الانفعالات، لا تطفيه البهجة ولا تهزه الشدائد؛ يسعى إلى التحلي بالفضائل والخير الأسمى. تولى سينيكا مسؤوليات هامة، منها أنه كان مستشاراً للإمبراطور نيرون. جمع ثروة طائلة أثارت حسد منافسيه. وهذه مقتطفات من رسالة كتبها سنة 58، وهو في قمة نفوذه السياسي. وهو يحاور فيها شخصاً خيالياً؛ ويرد فيها على من حسدوه وشنعوا به بسبب مركزه وثروته. وفي نهاية حياته اتهم الفيلسوف بالتآمر على الإمبراطور نيرون، فأمره هذا الأخير بأن ينتحر بأن يقطع شرايينه بنفسه، حدث ذلك سنة 65 ميلادية.

ذكريات وبصمات —

الاهتمام بما يُدبّر شؤون الحياة، دون أن نكون عبيداً لها. وأضيف أن الخير الأسمى هو أن تنبذ الروح المصادفات والملذات، وتبحث عن مسراتها في ظلال الفضيلة.

ويمكنني أن أقول بأن الرجل السعيد هو من لا يرى في الحياة جيشين من الطيبات والخبيثات؛ لا توجد بالنسبة إليه الأرواح الطيبة والأرواح الشريرة؛ إنه يتمسك بالحقيقة والفضيلة؛ لا ترفعه الحظوظ ولا تخفضه النوائب؛ يرى أن أسمى الخير هو ما يجلبه لنفسه بنفسه؛ وأن خير الملذات هو ترك الملذات. وأضيف بأن ما يجعل الحياة سعيدة هو الروح الحرة، المنطلقة، الباسلة، السامية، الثابتة، الزكية.

الملذات والآلام، أسياد طغاة متجبرون، يتناوبون على الإنسان ليحطموه؛ لذلك ينبغي للمرء أن يحرر نفسه من طغيانهم، وأن يلتزم بموقف اللامبالاة في ظروف السراء والضراء، عندئذ ينسكب إلى قلبه ذلك الخير المطلق، الصفاء، الهدوء، وسمو الروح في ملجئها الآمن؛ عندئذ تعرف جوهر الحقيقة، ومن هذه تتبع بهجة ثابتة لا تتغير بتقلب الظروف. فالحياة السعيدة إذا هي تلك التي تسكن إلى قاعدة راسخة، على أساس حكم سليم متبصر، يجلبان لها الصفاء والاستقرار، ويبعدان عنها القلق والآلام.

قد يقول القائل: أليس للروح ملذاتها؟ فليكن ذلك! فلتستسلم للفساد؛ ولتطلق العنان للشهوات، وكل ما يطيب للنفس والحواس. ثم يأتي حين من الدهر تلتفت فيه إلى الماضي، تجد أن تلك الملذات أصبحت ذكريات خاوية باردة، وتتوق إلى ملذات جديدة.. فينزلق

الجسد في وحل الحاضر؛ وتتوجه أفكاره نحو المسرات والمباهج، وتبدو الروح بئيسة عاجزة ضعيفة، تتخبط في مستتقات الحياة.

وقد يتساءل القارئ: وأنت؟ ألا تمارس مبادئ الفضيلة من أجل الحصول على بعض الملذات؟ ولنقل بأنه إذا كانت الفضيلة توفر الملذات، فهذه ليست هي المقصودة في الدرجة الأولى. بل الملذات في هذه الحالة تكون مكافأة تلقائية. فالمرء لا يمارس الفضائل لأنها تبهج نفسه؛ بل إنها تبهج لأنه يحبها ويتعلق بها.

إنني لا أعتبر الرجل حكيمًا إذا كان يخضع نفسه لجميع المغريات والملذات. وكيف يقاوم هذا المخلوق الفقر والخطر والمتاعب وجميع ما يحيط بحياته من مقلقات وتهديدات وآلام، بل كيف يواجه الموت، بعد أن خضع لعدو ضعيف هو متع الحياة، وأصبح عبدًا مطيعًا للنفس الأمارة الضالة؟

وإذا جاء أحد الساخرين من الفلسفة يقول لي: لماذا تدبج في كلامك ما لا تطبق في حياتك؟ ولماذا تعتبر المال شيئًا ضروريًا؟ ولماذا تخفض طرفك أمام من هم أعلى منك مركزًا؟ ولماذا تتألم وتذرف الدمع إذا توفى شخص عزيز عليك؟ لماذا تهتم بشهرتك وتنزعج من الاتهامات؟ ولماذا تملك عقارات في الريف وتعتني بها كل العناية؟ ولماذا نجد في منزلك الأثاث الرفيع؟ وتأكل الأطعمة اللذيذة؟ ولماذا يرتدي خدمك هذه الملابس الثمينة؟ ولماذا تعتني بترتيب مائدة الطعام ترتيبًا دقيقًا، وتستخدم كل هذه الأدوات الفضية؟ وتشغل خادمًا خاصًا بطهي

ذكريات وبصمات —

اللحوم وتقطيعها؟ ولماذا تعلق زوجك في أذنيها من الذهب ما يعادل دخل أسرة ثرية؟...

وإليك جوابي: إنني أوجه إلى نفسي ألواناً من اللوم أكثر مما تتصور. ولأريحك من سوء ظنك أقول بأنني لست حكيمًا، ولن أكون حكيمًا، ولا أسعى لبلوغ درجة الكمال. ولا أسعى لأن أكون أفضل الناس، بل يكفيني أن أكون أفضل من أسوأهم بدرجة؛ وأن أتخلى كل يوم عن شيء من عيوبي؛ وأن أؤنب نفسي على أخطائي. وإني لم أصل بعد إلى مستوى الصحة المرغوب فيه، بل أتناول بعض المهدئات فقط لمعالجة داء النقرس، وأشعر بالرضى إن هو هداً قليلاً؛ ولكن إذا ما قارنا ساقِي بساقيك الكسيحتين، فأنا سبّاق.

لا أقول هذه الأشياء لنفسني وأنا غارق في وحل النقائص والعيوب، بل أقولها كشخص حقق بعض التقدم في إصلاح نفسه. وقد يردد بعضهم القول: إنك تتحدث عن أسلوب من السلوك، وتعيش بأسلوب حياة مخالف لما تقول.

لقد قدم مثل هذا الاعتراض إلى أفلاطون، وأبيقور، وزينون؛ بينما لم يكونوا في الواقع يتحدثون عن حياتهم، بل كانوا يصفون كيف ينبغي للمرء أن يعيش.

إنني أتحدث عن الفضيلة، وعن الخير الأسمى، وليس عن أسلوب حياتي. وعندما أثور ضد الرذائل، فإنني أثور ضد رذائلي كذلك. ولن تصدني نياتكم السيئة وأقوالكم المسمومة عن مواصلة البحث عن الخير الأسمى...

فيما نختلف إذا، أنا المجنون، وأنت الحكيم؟ إذا كان كل منا يرغب في اكتساب المال. في أمور كثيرة. فلدى الحكيم تكون الثروة مستعبدة؛ بينما هي لدى المجنون معبودة؛ الحكيم لا يعترف لها بسطان عليه؛ أما أنتم فتعطون للثروة جميع الحقوق؛ أنتم تندمجون فيها وتسلمون لها مقاليد الحكم.

الحكيم يظل مستعداً لتحمل ظروف الفقر، فهو مثل القائد المحنك الذي يؤمن بالسلام، ولكنه يستعد للحرب. إن الثروة تبهر نفوسكم، فتغرقون في متع الحياة، دون أن تهتموا بما يترصدكم من أخطار. وإذا أخذ من الحكيم ثروته، يبقى له أعز خيراته وأسمائها، لأنه يعيش في الحاضر، ويثق بالمستقبل.

قال سقراط: «لقد عاهدت نفسي ألا أخضع سلوكي لآرائكم؛ اجمعوا من كل الجهات أقوالكم... فإني لا أسمع مَذَمَّاتكم، بل أسمع صراخ أطفال بؤساء».

هذا قول من خلت نفسه من المفاسد؛ ومن لا يتردد في تأنيب مرضى النفوس ليس بدافع الكراهية، بل ليصف لهم بعض العلاج.

الأرْملة والجندي⁽¹⁾



كان يوجد في مدينة إفيز امرأة اشتهرت بعفافها وأخلاقها الفاضلة لدرجة كانت تأتيها النساء من مناطق بعيدة للتبرك بها. وحدث أن توفى زوجها، فلم تكتف، كما تفعل النساء عادة، بلطم خديها ومنتف شعرها وتمزيق ثيابها، بل مكثت داخل السرداب، إلى جانب قبر زوجها، تبكيه وتتدب حظها.

لم يستطع أقرباؤها ولا صديقاتها، ولا حتى قاضي البلاد أن يسلوها عن مصابها أو يخففوا من آلامها. وظلت جالسة بالقرب من قبر زوجها ليلاً ونهاراً طيلة أربعة أيام، من غير أكل ولا شراب. وكانت ترافقها في وحدتها خادمة وفيه، تجدد زيت المصباح. وكانت هذه المرأة الوفية العفيفة موضوع حديث أهل المدينة، وجميعهم يكررون بأنهم لم يشهدوا مثل هذه الزوجة الطاهرة ذات الأخلاق الفاضلة.

وحدث ذات يوم أن أمر حاكم المنطقة بصلب عدد من قطاع الطرق في مكان مجاور للسرداب الذي دفن فيه زوج المرأة الفاضلة. وكان يحرس جثث المصلوبين جندي خشية أن يأتي أقرباؤهم ليلاً لإنزال الجثث ودفنها. وفي الليلة التالية لاحظ هذا الحارس أن هناك

(1) ملخص هذه الحكاية من قصة طويلة عنوانها Satyricon لمؤلفها Petrone Arbiter (توفى سنة 66 ميلادية)، ويعتبرها النقاد أول قصة طويلة في أدب أوروبا الغربية.

ضوءاً ينبعث من وسط القبور، وسمع بكاءً وأنيناً، فرغب في أن يعرف ما يجري.

نزل في السرداب فشهد امرأة رائعة الجمال؛ فذعر بادئ الأمر، إذ خيل إليه أنه يرى أشباحاً. وعندما اقترب رأى امرأة وخادمة وقبراً؛ وكانت الزوجة تنوح وقد جرحت خديها بأظافرهما، فأدرك ما يحدث. فأتى بما معه من طعام، وراح يناشد المرأة أن تتوقف عن الحزن والبكاء، وأن كل هذه الدموع والآلام، سواء طالت أسبوعاً، أو شهراً لا تردّ الأحباء، وأن الحياة يجب أن تتغلب وتستمر...

وظلت الأرملة تنتف شعرها وتضرب صدرها، ولكن الجندي لم ييأس، واستمر يواسيها ويخفف من أوجاعها، محاولاً إقناعها بتناول بعض الطعام. واشتاقت نفس الخادمة إلى مذاق الطعام، فمدت يدها وتناولت قسطاً منه. بعد ذلك بدأت هي الأخرى تحث سيدتها على تناول بعض الطعام... وأخيراً قررت أن تتمسك بالحياة، فاستجابت لمناشدة الجندي، وتناولت بعض الطعام.

واستخدم الجندي بعد ذلك أسلوب الإغراء لإقناعها بالتمتع بملذات الحب الجديد المائل أمامها. والواقع أن المرأة العفيفة وجدت فيه كثيراً من خصال الشهامة واللطافة وحسن المنطق والمظهر. وراحت الخادمة تشجعها على الاستجابة لما يبديه هذا الجندي نحوها من مشاعر الإعجاب والحب، وتناشدها ألا تضيع شبابها وتحرم نفسها من ملذات الحياة.

ذكريات وبصمات

وكسب الجندي هذه المعركة أيضاً، فسمحت له أن يقضي الليلة إلى جانبها؛ وتكررت التجربة، فكان يغلق باب السرداب ويؤنس وحدتها حتى مطلع الفجر.

و ذات ليلة لاحظ أقرباء أحد المصلوبين غياب الحارس، فأنزلوا جثمان قريبهم المصلوب ونقلوه إلى مكان بعيد ليدفنوه. وعندما عاد الجندي في الصباح إلى مكان حراسته وجد أن جثمان أحد المصلوبين قد اختفى، وشعر بالرعب أمام ما ينتظره من عقاب.

رجع مسرعاً إلى حبيبته وأخبرها بما حدث، قائلاً إنه سوف لا ينتظر الحكم الذي تصدره ضده المحكمة، بل سيعاقب نفسه على إهماله واجبه بأن يشق أحشاءه بسيفه؛ وطلب منها أن تدفنه إلى جانب زوجها في قبر واحد.

وأجابته المرأة الصالحة العفيفة: إنه لا يرضي الآلهة أن أدفن الرجلين اللذين أحببتهما أشد الحب، في أسبوع واحد وفي مكان واحد. كلا! بل سأضع الميت على الصليب لأنقذ حياتك. وأمرت على الفور بإخراج جثمان زوجها وصلبه مكان المصلوب الذي أخذه أقاربه.

التسلية والترويح عن النفس⁽¹⁾



أفكر أحياناً في الأساليب المختلفة التي يلجأ إليها الناس للترويح عن أنفسهم، وأفكر في الشدائد والأخطار التي يعرضون لها أنفسهم.. أجد أن كثيراً من مشاكل الناس وشقائهم ينجم من حقيقة واحدة: هي أنهم لا يستطيعون أن يمكثوا هادئين مسالمين في منازلهم. فالرجل الذي يملك ما يكفيه للعيش الكريم، لو عرف كيف يعيش في راحة وهدوء وهناء في بيته، لما كان عليه أن يغامر ويركب البحار ويحاصر المدن.. إلخ.

وعندما نفكر في المراتب الاجتماعية، نتصور أن منزلة الملك هي أكرم وأعلى منزلة. ونتصور أن الملك يحقق رغباته ويحصل على جميع المتع. ولكن الملك نفسه يحتاج إلى التسلية والترويح عن النفس، وإذا ترك في عزلة، يفكر في وضعه كملك فقط، تستولى عليه الهواجس، ويفكر في الأخطار والثورات والمؤامرات، وقد يصل به الأمر إلى هواجس القلق والمرض. وهكذا نجد أن الملك يصبح أشدّ شقاءً وتعاسة من أقل فرد من رعيته، إذا لم يأخذ نصيباً من اللهو والتسلية ومما يروح به عن نفسه.

هذا هو السبب الذي يجعل الناس يلجأون إلى مختلف أساليب

(1) العنوان : Diversion

المؤلف : Blaise Pascal (1623 - 1662) من كتابه : Pensées.

ذكريات وبصمات —

التسلية، مثل الصيد، والقمار، والرهان، والطرب، والنساء، والهوايات والمهيات، والركض وراء الثروة والمراكز، والحروب. والناس لا يقومون بهذه الأنشطة أو يرغبون فيها، لأنها في حد ذاتها تجلب لهم السعادة المنشودة، كلاً! فهم يدركون أن السعادة الحقيقية لا تكمن في جمع الأموال على طاولات القمار، أو في صيد أرنب أو احتلال مدينة.

إن المرء الذي يشعر بالملل والقلق لا يرغب في الحصول على شيء ما بسهولة وفي هدوء واطمئنان. بل يكون هدفه أن يعيش فترة وسط الهياج والصخب والأنشطة التي تستثير نفسه وتلهيه، ولو مؤقتاً، عن التفكير في همومه وتبعده عنه الملل والقلق. وهذا ما يجعل ذلك الصنف من الناس يفضل عملية الصيد وما يصاحبها من جهد ونشاط، على الإمساك بالطريدة.

الناس يفضلون الصّخب والضجيج والتغيير، لهذا يعتبر ما في السجون من هدوء ورتابة عقاباً مهيناً. فلا متعة في الوحدة، ولا لذة في العزلة. لذا نجد أن رجال البلاط يسعون دائبين لإيجاد ما يسلي الملك، فيهيئون له ما يروح به عن نفسه من وسائل المتعة المتجددة.

عندما نطلب من إنسان أن يريح فكره وأن يعيش في هدوء وعزلة، فإننا نهين أسباب القلق، لأننا نضعه في ظروف مخالفة لما أرادت له طبيعة الإنسان. والخطأ ليس في البحث عن عوامل الاستثارة، إذا كان الهدف هو الترويح عن النفس، بل الخطأ أن يعتقد المرء أن حصوله على الأشياء التي يسعى وراءها (المركز، المال، الطريدة، المرأة...) هي التي تجلب له السعادة. وعندئذ لا يلبث أن يشعر بخيبة الأمل.

والسبب في هذا واضح. فالناس في بحثهم عن الاستثارة وسعيهم وراء اللهو والمسليات مثل الرهان والقمار والنساء والطرب والهوايات المتنوعة، إنما يرغبون في القيام بأنشطة مثيرة والاستغراق في ملهيات عنيفة ومتع جذابة لكي ينسوا المشاغل المقلقة والأفكار السلبية أو ليغيروا أسلوب حياتهم الرتيب الممل. وكما سبق القول، في مثل هذه الظروف يفضل أحدهم أن تطول عملية الصيد، ولا يرغب في نيل الطريدة بسهولة.

وهكذا قد يقضي المرء حياته ساعياً وراء «الراحة» من خلال مواجهة الصعوبات والركض وراء الأهداف، وعندما يبلغها يجد أنه لا يتحمل تلك «الراحة» طويلاً.

فما أشقى الإنسان! إنه يشعر بالقلق حتى عندما تتوفر لديه جميع وسائل الراحة والهناء والطمأنينة. وما أشد طيشه! إذ أنه حتى عندما تجتمع عليه أسباب القلق، نجد أن أقل نشاط، كلعبة «البليارد»، (أو كرة السلة، أو مشاهدة راقصة...) يكفي لتسليته.

ويحق للمرء أن يتساءل: ما هدف الإنسان من كل ذلك؟ ليفتخر أمام أصحابه بأنه أحسن لاعب في الفريق؛ أو أنه استطاع أن يحل مشكلة حسابية عجز عنها الجميع؛ أو أنه احتل مدينة حاصرها قواد قبله وعجزوا عن احتلالها... إلخ.

وقد نجد شخصاً يقضي وقتاً طويلاً أمام طاولة القمار متوقعاً أن يربح (أو يخسر) مبلغاً طفيفاً. قدّم له كل يوم ذلك المبلغ في هدوء، شريطة أن ينقطع عن القمار، أو أن لا يشارك في منافسات الرهان،

ذكريات وبصمات —

وستكتشف أنه بأئس حزين. اقترح عليه أن يشارك في هذه الألعاب والمنافسات كمتفرج، بصفة رمزية، وليس بالمال، عندئذ يجد هذه المشاركة مملة، خالية من الحماس والاستثارة.

إذا لا بد من نشاط يستثير المشاعر ويهز الأعصاب، ويحدث قدرًا من الخوف والقلق والحماس والاهتياج والانفعال في الإنسان ككل جسداً وفكراً ونفساً.

وهكذا نلاحظ أنه لا بد للناس، سواء كانوا ملوكاً أو من عامتهم، من نشاطات إيجابية مسلية، تروح عن النفس، وتبعد عنها الملل والهموم، وتجدد النشاط وتتعش الخيال.

قلائد الذهب في الحكمة والأدب



من كتاب اليهود المقدس

(العهد القديم)

مقتطفات من سفر الحكمة

(للنبي سليمان عليه السلام)

مقتطفات من سفر الحكمة

سليمان والتماس الحكمة⁽¹⁾



على الملوك أن يطلبوا الحكمة :

فاسمعوا أيها الملوك وافهموا!

والمفتخرون بجموع أممكم!

لأن سلطانكم من الرب

وقدركم من العلي

وهو الذي سيفحص أعمالكم

ويستقصي نيئاتكم.

فإنكم أنتم الخادمين لملكه

لم تحكموا بالصواب ولم تحفظوا الشريعة

ولم تسيروا بحسب مشيئة الله.

فسيطلع عليكم مطلعاً مخيفاً وسريعاً

لأن حكماً لا يُشفق يُجرى على الوجهاء.

(1) سفر الحكمة.

فإنَّ الصَّغِيرَ أَهْلٌ لِلرَّحْمَةِ .
أَمَّا أَرْبَابُ الْقُوَّةِ فَبِقُوَّةٍ يُفْحَصُونَ .
وسَيِّدُ الْجَمِيعِ لَا يَتَرَجَّعُ أَمَامَ أَحَدٍ
وَلَا يُهَابُ الْعِظَمَةَ
لأنَّ الصَّغِيرَ وَالْكَبِيرَ هُوَ صَنَعَهُمَا
وهُوَ يَعْتَنِي بِالْجَمِيعِ عَلَى السَّوَاءِ .
لكنَّ الْمُقْتَدِرِينَ يَنْتَظِرُهُمْ تَحْقِيقٌ شَدِيدٌ .
فإِلَيْكُمْ أَيُّهَا الْمُلُوكُ أُوجِّهُ كَلَامِي
لِكَيْ تَتَعَلَّمُوا الْحِكْمَةَ وَلَا تَزَلُّوا
فإنَّ الَّذِينَ يَحْفَظُونَ بِقِدَاسَةٍ مَا هُوَ مُقَدَّسٌ
يُشْهَدُ لَهُمْ بِالْقِدَاسَةِ
وَتَعَلَّمُوا يَا قُضَاةَ أَقْصَايِ الْأَرْضِ!
أَصْغُوا أَيُّهَا الْمُسَلِّطُونَ عَلَى الْجَمَاهِيرِ
وَالَّذِينَ يَتَعَلَّمُونَهُ يَجِدُونَ فِيهِ دِفَاعًا .
فَارْغَبُوا فِي كَلَامِي وَاصْبُوا إِلَيْهِ تَتَأَدَّبُوا .

الحكمة تأتي بإلقاء الإنسان

الحكمة ساطعة لا تدبُل

تَسْهَلُ مُشَاهَدَتُهَا عَلَى الَّذِينَ يُحِبُّونَهَا
وَيَهْتَدِي إِلَيْهَا الَّذِينَ يَلْتَمِسُونَهَا
تَسْبِقُ فَتُعَرِّفُ نَفْسَهَا إِلَى الَّذِينَ يَرْغَبُونَ فِيهَا .
وَمَنْ بَكَرَ فِي طَلَبِهَا لَا يَتَعَبُ
لَأَنَّهُ يَجِدُهَا جَالِسَةً عِنْدَ بَابِهِ .
فَالْتَأَمَّلْ فِيهَا كَمَا لُ الْفِطْنَةَ
وَمَنْ سَهَرَ لِأَجْلِهَا
لَا يَلْبِثُ أَنْ يَخْلُوَ مِنَ الْهُمُومِ .
لَأَنَّ الَّذِينَ أَهْلٌ لَهَا هِيَ الَّتِي تَجُولُ فِي طَلَبِهِمْ
وَفِي سُبُلِهِمْ تَظْهَرُ لَهُمْ بَعْطَفٌ
وَفِي كُلِّ خَاطِرٍ يَخْطُرُ لَهُمْ تَأْتِي لِإِلَاقَاتِهِمْ .
فَأَوَّلُهَا الرِّغْبَةُ الصَّادِقَةُ فِي التَّأْدِيبِ
وَالِإِهْتِمَامُ بِالتَّأْدِيبِ هُوَ الْمَحَبَّةُ
وَالْمَحَبَّةُ هِيَ حِفْظُ شَرَائِعِهَا
وَمُرَاعَاةُ الشَّرَائِعِ هِيَ ضَمَانُ عَدَمِ الْفَسَادِ
وَعَدَمُ الْفَسَادِ هُوَ التَّقَرُّبُ إِلَى اللَّهِ .

فَالرَّغْبَةُ فِي الْحِكْمَةِ تَقُودُ إِلَى الْمَلَكُوتِ.
فَإِنْ طَابَتْ لَكُمْ الْعُرُوشُ وَالصَّوَالِجَةُ
يَا مُلُوكَ الشُّعُوبِ
فَأَكْرِمُوا الْحِكْمَةَ لِكَيْ تَمْلِكُوا لِلْأَبَدِ.

سُلَيْمَانُ يَصِفُ الْحِكْمَةَ

وَأَنَا أُخْبِرُكُمْ مَا الْحِكْمَةُ وَكَيْفَ نَشَأَتْ
وَلَا أَكْتُمُ عَنْكُمْ الْأَسْرَارَ.
لَكِنِّي أَنْقَصَاهَا مِنْ أَوَّلِ نَشَأَتِهَا
وَأَجْعَلُ مَعْرِفَتَهَا بَيِّنَةً
وَلَا أَحِيدُ عَنِ الْحَقِّ
وَلَا أَسِيرُ مَعَ الْحَسَدِ الْمَذِيبِ
لَأَنَّهُ لَا حَظَّ لَهُ فِي الْحِكْمَةِ.
إِنَّ كَثْرَةَ الْحُكَمَاءِ خَلَاصُ الْعَالَمِ
وَالْمَلِكِ الْفَطِنِ ثِبَاتُ الشَّعْبِ.
فَتَأَدَّبُوا بِأَقْوَالِي تَسْتَفِيدُوا مِنْهَا.

لَمْ يَكُنْ سُلَيْمَانُ إِلَّا إِنْسَانًا

إِنِّي أَنَا أَيْضًا إِنْسَانٌ

قَابِلٌ لِّلْمَوْتِ مُسَاوٍ لِّجَمِيعِ النَّاسِ
مُتَحَدِّرٌ مِّنْ أَوَّلِ مَنْ جَبَلَ مِنَ الْأَرْضِ
وَقَدْ صُوِّرَتْ جَسَدًا فِي بَطْنِ أُمِّ^م
وَفِي مَدَّةِ عَشْرَةِ أَشْهُرٍ تَكُونُ فِي الدَّمِّ
مِنْ زَرْعِ رَجُلٍ
وَمِنْ اللَّذَّةِ الَّتِي تُصَاحِبُ النَّوْمَ.
وَلَمَّا وُلِدَتْ تَنَفَّسَتْ أَنَا أَيْضًا الْهَوَاءَ الْمَشْتَرَكِ
وَسَقَطَ رَأْسِي إِلَى الْأَرْضِ
كَمَا هِيَ طَبِيعَةُ الْإِنْسَانِ
وَكَانَ الْبُكَاءُ صُرَاخِي الْأَوَّلَ
كَمَا هُوَ لِّجَمِيعِ النَّاسِ.
وَرُبِّيتُ فِي الْقَمْطِ وَالْهُمُومِ
فَإِنَّهُ لَيْسَ لِمَلِكٍ بَدْءُ وُجُودٍ غَيْرُ هَذَا
بَلْ وَاحِدٌ دُخُولُ الْجَمِيعِ إِلَى الْحَيَاةِ
وَسَوَاءٌ خُرُوجُهُمْ مِنْهَا.

تقدير سليمان للحكمة

لِذَلِكَ صَلَّيْتُ فَأُوتِيْتُ الْفِطْنَةَ
وَدَعَوْتُ فَأَتَانِي رُوحُ الْحِكْمَةِ.

فَفَضَّلْتُهَا عَلَى الصَّوَالِجَةِ وَالْعُرُوشِ
وَعَدَدْتُ الْغِنَى كَلَا شَيْءٍ بِالْقِيَاسِ إِلَيْهَا
وَلَمْ أُعَادِلْ بِهَا الْحَجَرَ الَّذِي لَا يُقَدَّرُ
لَأَنَّ كُلَّ الذَّهَبِ بِإِزَائِهَا قَلِيلٌ مِنَ الرَّمْلِ
وَالْفِضَّةَ عِنْدَهَا تُحَسَبُ طِينًا.

وَأَحْبَبْتُهَا فَوْقَ الْعَافِيَةِ وَالْجَمَالِ
وَأَثَرْتُ أَنْ أَتَّخِذَهَا قَبْلَ النُّورِ
لَأَنَّ رَوْنَقَهَا لَا يَقْرَأُ لَهُ قَرَارٌ.

فَأَتَتْنِي مَعَهَا جَمِيعُ الْخَيْرَاتِ
وَعَنْ يَدَيْهَا غِنَى لَا يُحْصَى.

فَسُرِّرْتُ بِهَذِهِ الْخَيْرَاتِ كُلِّهَا

لَأَنَّهَا بِإِمْرَةِ الْحِكْمَةِ

وَلَمْ أَكُنْ عَالِمًا بِأَنَّهَا أُمَّ لَهَا جَمِيعًا.

وما تَعَلَّمْتَهُ بِإِخْلَاصٍ أُشْرِكُ فِيهِ بِسَخَاءٍ
وَلَا أَكْتُمُ غِنَاهَا .

فإِنَّهَا كَنْزٌ لِلنَّاسِ لَا يَنْفَدُ
وَالَّذِينَ اقْتَتَوْهُ كَسَبُوا صَدَاقَةَ اللَّهِ
وَقَدْ أَوْصَتْهُ بِهِمُ
المَوَاهِبُ الصَّادِرَةُ عَنِ التَّأْدِيبِ .

دَعْوَةٌ إِلَى الإِلَهَامِ الإِلَهِيِّ

لِيَهَبَ لِي اللَّهُ أَنْ أَتَكَلَّمَ بِحَسَبِ رَغْبَتِهِ
وَأَنْ أُجْرِيَ فِي خَاطِرِي
مَا يَلِيقُ بِمَا نَلْتُهُ مِنَ المَوَاهِبِ
فإنَّهُ هُوَ دَلِيلُ الحِكْمَةِ وَمُرْشِدُ الحُكَمَاءِ .
وَفِي يَدِهِ نَحْنُ وَأَقْوَالُنَا
وَكُلُّ فِطْنَةٍ وَكُلُّ عِلْمٍ مِنَ عُلُومِ الصَّنَاعَةِ .
فهُوَ الَّذِي وَهَبَ لِي عِلْمًا يَقِينًا بِالكَائِنَاتِ
حَتَّى أَعْرِفَ نِظَامَ العَالَمِ وَفَاعِلِيَّةَ العِنَاصِرِ
وَمَبْدَأَ الأزْمِنَةِ وَمُنْتَهَاهَا وَمَا بَيْنَهُمَا

وتَعاقَبَ الإِعتِدالاتِ وتَغَيَّرَ الفُصولُ
ودَوائِرَ السَّنَةِ ومَراكِزَ النُّجومِ
وطبائِعَ الحَيَواناتِ وغَرائِزَ الوُحوشِ
ونَعَماتِ الأرواحِ وخَواطِرِ البَشَرِ
وأَنواعِ النَّباتِ وخَواصِّ الجُذورِ
فَعَرَفْتُ كُلَّ ما خَفِيَ وكُلَّ ما ظَهَرَ
لأَنَّ مَهَنَدِسَةَ كُلِّ شَيءٍ عَلَّمَتَنِي
وهي الحِكمةُ.

مديح الحكمة

فإِنَّ فِيها رَوحاً فَطِناً قُدُوساً
وَحيداً مُتَشَعِّباً لَطيفاً
مُتَحَرِّكاً ثاقِباً طاهِراً
واضحاً سَليماً مُحبِّباً لِلخَيْرِ حادِّاً
حُرّاً مُحسِناً مُحبِّباً لِلبَشَرِ
ثابِتاً آمِناً مُطمَئِنِّناً
يَقدرُ على كُلِّ شَيءٍ وَيُراقِبُ كُلَّ شَيءٍ

يَنْفِذُ إِلَى جَمِيعِ الْأَرْوَاحِ
الْفَهْمَةَ مِنْهَا وَالطَّاهِرَةَ وَالْأَشَدَّ لَطَافَةً
لَأَنَّ الْحِكْمَةَ أَكْثَرَ حَرَكَةً مِنْ كُلِّ حَرَكَةٍ
فَهِيَ لَطَهَارَتِهَا تَخْتَرِقُ وَتَنْفِذُ كُلَّ شَيْءٍ .
فإِنَّهَا نَفْحَةٌ مِنْ قُدْرَةِ اللَّهِ
وَانْبِعَاثٌ خَالِصٌ مِنْ مَجْدِ الْقَدِيرِ
فَلِذَلِكَ لَا يَتَسَرَّبُ إِلَيْهَا شَيْءٌ نَجِسٌ
لَأَنَّهَا انْعِكَاسٌ لِلنُّورِ الْأَزَلِيِّ
وَمِرَاةٌ صَافِيَةٌ لِعَمَلِ اللَّهِ
وَصُورَةٌ لِصَلَاحِهِ .
تَقْدِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَهِيَ وَحْدَهَا
وَتَجَدِّدُ كُلَّ شَيْءٍ وَهِيَ ثَابِتَةٌ فِي ذَاتِهَا
وَعَلَى مَرِّ الْأَجْيَالِ تَجْتَازُ إِلَى نُفُوسٍ قَدِيْسَةٍ
فَتُنشِئُ أَوْصِدْقَاءَ لِلَّهِ وَأَنْبِيَاءَ
لَأَنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ إِلَّا مَنْ يُسَاكِنُ الْحِكْمَةَ .
فإِنَّهَا أَبْهَى مِنَ الشَّمْسِ

وَأَسْمَى مِنْ كُلِّ مَجْمُوعَةٍ نُجُومٍ
وَإِذَا قَيْسَتْ بِالنُّورِ ظَهَرَ تَفَوُّقُهَا
لَأَنَّ النُّورَ يَعْقُبُهُ اللَّيْلُ.
أَمَّا الْحِكْمَةُ فَلَا يَغْلِبُهَا الشَّرُّ.
إِنَّهَا تَمْتَدُّ بِقُوَّةٍ.
مِنْ أَقْصَى الْعَالَمِ إِلَى أَقْصَاهِ
وَتَدَبَّرُ كُلَّ شَيْءٍ لِلْفَائِدَةِ.

الحكمة زوجة مثالية لسليمان

وهي التي أحببتها والتمستها منذُ حَدَاتِي
وسَعَيْتُ أَنْ أَتَّخِذَهَا لِي عَرُوسًا
وصِرْتُ لِحِمَالِهَا عَاشِقًا.
تُظْهِرُ أَصْلَهَا الْكَرِيمَ بِاشْتِرَاكِهَا فِي حَيَاةِ اللَّهِ
وقد أَحَبَّهَا سَيِّدُ الْجَمِيعِ
فهي مُطَّلَعَةٌ عَلَى عِلْمِ اللَّهِ وَالْمُتَخَيِّرَةُ لِأَعْمَالِهِ.
إِذَا كَانَ الْغِنَى مَلَكًا مَرَّغُوبًا فِيهِ
فَأَيُّ شَيْءٍ أَغْنَى مِنَ الْحِكْمَةِ

الَّتِي تَعْمَلُ كُلَّ شَيْءٍ؟

وَإِنْ كَانَتْ الْفِطْنَةُ هِيَ الَّتِي تَعْمَلُ

فَمَنْ أَمَهَّرُ مِنْهَا فِي هَنْدَسَةِ الْكَائِنَاتِ؟

وَإِذَا كَانَ أَحَدٌ يُحِبُّ الْبِرَّ

فَاتَّعَابُهَا هِيَ الْفَضَائِلُ

لَأَنَّهَا تُعَلِّمُ الْقِنَاعَةَ وَالْفِطْنَةَ وَالْبِرَّ وَالشَّجَاعَةَ

الَّتِي لَا شَيْءَ لِلنَّاسِ فِي الْحَيَاةِ أَنْفَعُ مِنْهَا.

وَإِذَا كَانَ أَحَدٌ يَرْغَبُ فِي خَيْرَةٍ وَاسِعَةٍ

فَهِيَ تَعْرِفُ الْمَاضِي وَتَتَكَهَّنُ بِالْمُسْتَقْبَلِ

وَتُحَسِّنُ صَوْغَ الْحِكْمِ وَحَلَّ الْأَلْغَازِ

وَتَعَلِّمُ بِالْآيَاتِ وَالْخَوَارِقِ قَبْلَ حُدُوثِهَا

وَيَتَعَاقَبُ الْأَوْقَاتِ وَالْأَزْمِنَةَ.

لَا يَسْتَغْنَى الْمَلُوكُ عَنِ الْحِكْمَةِ

لِذَلِكَ عَزَمْتُ أَنْ أَتَّخِذَهَا قَرِينَةً لِحَيَاتِي

عَلِمًا بِأَنَّهَا تَكُونُ لِي مُشِيرَةً لِلْخَيْرِ

وَمُشَدِّدَةً فِي الْهَمُومِ وَالْغَمِّ

فَيَكُونُ لِي بِهَا مَجْدٌ عِنْدَ الْجُمُوعِ
وَكِرَامَةٌ لَدَى الشُّيُوخِ مَعَ صِغَرِ سِنِّي
وَيَجِدُونَنِي ثاقِبَ الفِكْرِ فِي إِجْرَاءِ الحُكْمِ
وَيُعْجَبُونَ بِي أَمَامَ المُقْتَدِرِينَ .
وَإِذَا صَمَتْتُ يَنْتَظِرُونَنِي
وَإِذَا تَكَلَّمْتُ يُصَنِّغُونَ
وَإِذَا أَفْضْتُ فِي الكَلَامِ
يَضَعُونَ أَيْدِيَهُمْ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ .
وَأَنَالَ بِهَا الخُلُودِ
وَأُخَلِّفُ عِنْدَ الَّذِينَ بَعْدِي ذِكْرًا مُؤَبَّدًا .
أَحْكُمُ الشُّعُوبَ وَتَخْضَعُ لِي الأُمَّمُ .
يَسْمَعُ بِي مُلُوكٌ مَرَّهوبُونَ فَيَخَافُونَ
وَأَظْهَرُ فِي الجَمْعِ صَالِحًا
وَفِي الحَرْبِ شُجَاعًا .
وَإِذَا دَخَلْتُ بَيْتِي اسْتَرَحْتُ إِلَى جَانِبِهَا
لأنَّهُ لَيْسَ فِي مُعَاشَرَتِهَا مَرَارَةٌ .

أضواء على مسرح الحياة



المقدمة

المقدمة



يشتمل هذا الجزء من سلسلة «عالم الثقافة» على مجموعات من الأقوال المأثورة التي سجلها الأدباء والفلاسفة عبر القرون. إنها ثروة ثمينة من الحكم والنصائح والتأملات الجدية والأفكار القيّمة التي استخلصوها من تجاربهم وثقافتهم.

لقد حلقت هذه الأفكار والأقوال المأثورة فوق جسور المكان وأمواج الزمان، وها هي اليوم تثري أفكارنا، وتثير آفاق حياتنا، وتزود الأجيال بما تركه الماضي من تراث ثمين، ونظرات أدبية وعلمية حول موضوعات شتى، جميعها مرتبطة بسلوك الإنسان في مواقفه وعلاقاته واختياراته في الحياة. وفيما يلي ملاحظات موجزة عن بعض الموضوعات التي يتناولها هذا الكتاب.

* * * * *

الطبيعة :

هل الطبيعة صديقة الإنسان أم عدوته؟ هل هي أم حنون؟ أم زوجة أب قاسية؟ أم إنها ملخوق عادل ومحاييد؟ والطبيعة ليست فقط ما يحيط بنا من بساتين جميلة وأنهار وربي وسهول... بل إنها كذلك مئات ملايين المجرات والنجوم والكواكب، وما يسبح بينها في أعماق

ذكريات وبصمات —

هذا الكون العجيب. ومن الطبيعة كوكبنا الجميل المتواضع الذي كاد أن يكون صخوراً متجمدة لولا أن من الله عليه فجعل أشعة من نجم مجاور تتسكب نحوه فتدفئه، وتجعل الحياة تتعش على سطحه وفي أعماق محيطاته.

ودارت عجالات الزمان دوراتها، فتحركت عناصر الطبيعة على كوكبنا لتحقيق أهدافاً جديدة، وبدأت حرارته تتخفض تدريجياً، وتصادت سحب، وتجمعت مياه، وهبت رياح، ونشأت طحالب وهلاميات، وخلايا وأسماك وزواحف؛ وواصلت الحياة مسيرتها وتطورها وتنوعها على سلم الرقى.

الطبيعة أم عادلة في أحكامها، لا تجامل ولا تحابي ولا تقسو بغير سبب؛ ولا تبخل بالنتائج سواء كانت جوائز أو عقوبات. وسواء استجابت الطبيعة للإنسان في العاجل أم الآجل، وسواء تحركت بسرعة وعنفة، أم سارت بهدوء، فهي تتجه نحو أهدافها بعزيمة وانسجام، لا تعرف الإهمال والكسل والانحياز واليأس. وحتى عندما يتدخل الإنسان في مسيرة الطبيعة، فإنه إنما يتدخل في حدود قوانينها، فلا شيء يخلق من لا شيء؛ ولا يمكن لشيء أن يصبح لا شيء. وقد قال الأديب الكبير فولتير: إن هذا الكون العجيب يحيرني، ولكن هذه الساعة الرائعة لا يمكن أن توجد من غير خالق مقتدر حكيم.

الإنسان :

قد يقلق الإنسان عندما يجد نفسه، منذ نشأته، محاطاً بقوى

تتحكم في مصيره؛ وكثيراً ما يشعر أنه مخدوع وقع في فخ الحياة، ضحية لقوى تعطي وتأخذ متى تشاء وكيفما تشاء، قوى غامضة ساحرة، تحسن إليه حيناً، وتصبّ عليه أنواع الحرمان والآلام أحياناً. والحياة، كما يقول أحد الحكماء، مسرحية يبدأها القدر.. ثم يتدخل الحب والمال والحظ وشيء من إرادة الإنسان، فتزخرف حوادث المسرحية حيناً من الدهر، ثم يأتي الموت فينهي كل شيء.

وتجدر الإشارة إلى أن الناس مختلفون فيما يطلبون من الحياة. فبينما يرضى بعضهم بحياة متواضعة تحقق له الضروريات والسكينة وراحة البال، ينافس معظمهم من أجل الحصول على الثروة والمركز والجاه. وهل الحياة المثلى تتحقق بالأفعال الصالحة والأفكار النبيلة والمشار الطيبة؟ أم إنه من الضروري أن يلجأ المرء إلى الأنانية والاحتياال والعدوانية ليسيطر على من حوله ويقضي على منافسيه؟

يَحْضُرُنِي فِي هَذَا الصَّدَدِ مَا قَالَهُ أَدِيبٌ فِي حَدِيثٍ عَنِ الْبَشَرِ
وَسُلُوكِهِمْ وَمَنْطِقِهِمْ: «إنكم تمدحون الكلب الذي يهجم على الأرنب،
والصياد الذي يصرع الخنزير البري، ولكن إذا شاهدتم كلبين يقتتلان
تعتبرون ذلك حماقة؛ وإذا شاهدتم جمعاً من القطط ينقض بعضها على
البعض الآخر تعتبرون ذلك وحشية؛ وأنتم، «أيها العقلاء المهذبون
المفكرون» هل نسيتم أنكم تقتتلون في معارك ضارية، ولا تكتفون
بأظافركم وأنيابكم لتمزيق بني جنسكم، بل تستخدمون الحديد والنار
والأسلحة الفتاكة التي تدمر الإنسان والحياة والطبيعة؟

ويتحدث الأديب الأمريكي مارك توينٌ بلهجة متشائمة فيقول ما

ذكريات وبصمات —

مفاده أن الإنسان حيوان شرير، بغيض، متوحش، لأنه يتقن أساليب الخبث والحقد، ويتفنن في ضروب المكر والانتقام؛ وهو من بين المخلوقات يملك غرائز قبيحة لا إنسانية، فهو مثلاً يتسلى بصيد الحيوانات وتعذيبها لمجرد الترويح عن النفس. إن الإنسان مخلوق شرير، كريه، مقرف، أناني، متوحش، مفسد، يمثل خطراً على نفسه، وعلى الطبيعة، وعلى الحياة فوق البسيطة.

ويتدخل أديب آخر فيشفق على الإنسان، ويخفف من هذا الحكم القاسي عليه، ويعزى القارئ بشيء من التفاؤل، فيؤكد أنه لا بد أن يوجد في مستتبع الجنس البشري الجاهل والغبي والمنحرف والسخيف والقاسي والمهلوس والظالم والمظلوم والمعتدي والضحية... ولولا هذا التنوع في السلوك وهذا التباين بين الأجناس لكانت الحياة رتيبة ومملة.

ومهما اختلفت تصرفات الناس بين الطيب والخبث، والمصلح والمفسد، فإنه لا يمكن لأحد أن يستغني كلياً عن الناس، ولذلك لا بد أن يسود شيء من التقارب والتعاون ليواصل كل فرد مسيرته، ويحقق ضروريات الأمن والبقاء.

* * * * *

الخير والشر:

يتأمل الإنسان محيطه فيلاحظ أن نزعة الإنسان إلى الشر أقوى من ميله إلى الخير؛ والهدم أسهل من البناء؛ والانتقاد ونكران المعروف أقرب إلى النفس من الوفاء بالعهد ومجازاة الإحسان بالإحسان؛

ومشاعر الحقد والانتقام أعمق أثراً من مشاعر الخير؛ والطريق إلى مجالس العلماء والمساجد والجمعيات الخيرية متعب وشاق، أما المقاهي والحانات فمزدهمة؛ وأن من يهتمون بإصلاح المجتمع يكتفون بقطع أغصان الأذى، بدلاً من اقتلاع جذور الشرور؛ وأن الإقبال على اقتناء آلات الحرب والدمار أشد من التركيز على بناء المؤسسات العلمية والمستشفيات...

والخلاصة أن المساحات التي تغطيها الظلمات في هذا الكون الفسيح أوسع بكثير من المساحة التي تثيرها خيوط الأشعة المنبعثة من النجوم؛ وأن نزعة الإنسان إلى الشر تجعل نزوله إلى الجحيم أسهل من صعوده إلى السماء.

الحقائق والأوهام :

هل الحقائق مطلقة، تنطبق على جميع العوالم، والمخلوقات، في جميع العهود والأزمنة؟ وهل هي حقائق الرياضيات والعلوم، أم حقائق الخرافات والتخييلات الصوفية؟ يختلف معنى الحقيقة في ذهن الرجل العادي عن معناها في ذهن العالم المثقف، لأن هذا الأخير يساعده تفكيره على القفز إلى أعماق واسعة من المعاني السامية التي تكمن وراء الكلمات.

توجد حقائق تتبع من العقل والمنطق، غير أن تأثيرها يظل محدوداً، لأن كثيراً من الناس، بل عامة الناس، يفضلون مشاعر قوية

ذكريات وبصمات —

صديقة تتبع من القلب، وتساعدهم على تحديد مواقفهم، بدلاً من حزمة من الحقائق الجافة التي تدخلهم إلى متاهات الجدل والقوانين. الناس في حاجة إلى الحقائق التي تساعدهم في اتصالاتهم ومعاملاتهم اليومية؛ غير أن بعض الحقائق قد تصبح مملة، أو تعجز عن قضاء الحاجات وتيسير العلاقات، لذلك يحتاج الناس إلى بعض الخيال، والكذب، والنفاق.. لتلطيف قساوة الحقائق.

ويلاحظ أن الناس يتمتعون بالأحاديث والأخبار البعيدة عن الحقائق، ويرغبون في الاستماع إلى حكايات العجائب والغرائب والأساطير، والمغامرات الخيالية، والمعجزات والخوارق، بل وأحاديث الخرافات كذلك، لأنها تعرض عليهم مشاهد وعوالم واسعة، وتصورات من الماضي السحيق أو المستقبل المجهول. غير أنه مهما كانت عوالم الخيال منعشة ومغرية ومسلية، يعود المرء إلى الواقع ليوصل مسيرته نحو أهداف واضحة، وإنجازات عملية.

* * * * *

العدالة والقانون :

لقد أمر الله أن يسود الحق والعدالة والقانون، ولكن الإنسان فرق بين هذه المبادئ السماوية، وتجاهلها، وعاث فساداً في الأرض. ويجدر التساؤل: أين العدالة؟ وقد أصبح القانون، على مستوى الأفراد والدول، مثل شبكة العنكبوت تصيد الضعيف، ويمزقها القوي. ولكن أليس من الأفضل أن يعيش الناس في متاهة القوانين من أن يتيهوا في غابات طغيان الأقوياء؟

ألا نلاحظ أن قوانين كثير من الدول والمنظمات الدولية تتحدث عن حق المواطن في العمل، والتعليم، والعلاج، والكفالة في مرحلة الشيخوخة، وبعضها ينص كذلك على حرية التفكير. ولا ننس أن القوانين ليست في واقع الأمر سوى مجموع العادات والأفكار والمبادئ التي حاول بها الإنسان، عبر العهود الماضية، أن يعالج مشاكل الناس ونزاعاتهم.

وفي صدد الحديث عن القانون قال أحد الحكماء: عندما يتولى محاميان قضية، كل منهما يدافع عن حق موكله، فإنهما يصبحان مثل طرفي المقص، يقطعان ما بينهما دون أن يؤذي أحدهما زميله. ومن أقوال الأديب فولتير في هذا السياق: لم أخسر سوى مرتين، الأولى عندما كسبت قضية في المحاكم (ويعني أنه دفع للمحامين مبالغ ضخمة)؛ والثانية عندما خسرت قضية في المحاكم.

* * * * *

العلم والعمل :

ليس العلم بركة ماء راكد، بل ينبوعٌ ينعش القلوب، وأشعة تنير الأفكار السليمة الهادفة إلى رقي الإنسان الروحي والمادي. سئل أرسطو ما منزلة العلم من الجهل؟ فقال: منزلة الحياة من الموت. وقال جيمز آدمز: هناك نوعان من التعليم، الأول يعلمنا كيف نكسب العيش، والثاني يعلمنا كيف نحيا ونرتقي. ويقول حكيم آخر: العلم يعلمك كيف تصالح بين الخير الكبير الذي تظنه في نفسك، والخير القليل الذي تظنه في الناس. ويقول الفيلسوف الانكليزي بيكون: إن العلم لا يصبح

ذكريات وبصمات —

قوة مفيدة إلا إذا ساهم في ميدان الإنتاج. فالعمل هو القوة الحقيقية، ولكنه لا يحقق أعظم الإنجازات إلا إذا قاده العلم؛ والمعرفة الصالحة المفيدة هي المعرفة التي ترافق الإنسان في المختبرات وورشات العمل، وتساعده ليخرج أفضل ما في نفسه، وتوجه منجزاته لخدمة الإنسانية.

سئل فيلسوف يوناني: ما هو أهم أهداف فن الخطابة؟ فأجاب «العمل»؛ وما هو أهم ثاني أهدافها؟ فقال «العمل»؛ وما ثالثها؟ فأجاب «العمل». وقال حكيم آخر: العمل يضيء على صاحبه وزناً اجتماعياً؛ والعلم يضيء عليه إشعاعاً، والناس يهتمون بالإشعاع فقط ليعثروا على الوزن. وقال الأديب راسكين: لا يمكن للفكر أن يكون سليماً إلا بالعمل؛ ولا يمكن للعمل أن يزدهر إلا بالعلم. ومن مآثور الكلام أنه عندما يكون الرجل عاطلاً عن العمل يحوط به سبعة شياطين، ويجلس الثامن في حضنه؛ والدماغ الفارغ ورشة عمل الشيطان.

* * * * *

العظمة، الشهرة :

ويتناول الكتاب موضوع العظمة والشهرة والسلطة. ويجدر أن نتساءل: ما هي العظمة، وما الشهرة؟ هل الرجل العظيم هو الشجاع والقائد الغازي الذي يشن الحروب، ويدمر المدن، ويهلك الحرث والنسل ليسيطر على الشعوب المستضعفة؟ هل الرجل العظيم هو من يكرس مواهبه وحياته لخدمة بني جنسه؟ أم العظيم هو الرجل الصالح الورع المتعبد في خلوته؟ أم هو من يسعى جاهداً لتنظيم الحياة

الاجتماعية، وتحقيق العدالة والعيش الكريم لمواطنيه؟ أم الرجل العظيم هو ذلك المعلم الذي يكرس وقته للبحث والتأليف، وينتج أفكارًا ونظريات تثير دروب الحياة؟

وهل الشهرة هي ما يعتز به الفرد من تصفيق الجمهور في النوادي، وهتافهم في الشوارع؟ أم ما يفتخر به المرء من إنجازات عملية وأخلاق فاضلة؟ أم الشهرة هي ما يفتخر به الرجل من ميراث أجداده؟ أم هي ما يشتريه الغني من ألقاب وما يوهب من نياشين؟ وهل تقاس الشهرة بمدى سطوة مركزك وسلطانك وسعة ثروتك؟

يحدثنا الأديب الفرنسي La Bruyere عن العظمة فيقول ما مفاده أن العظمة الحقيقية طبعها الثقة والوقار والتواضع والكرم والاحترام؛ فيمكن أن تتخلى عن امتيازاتها وتختلط بالطبقات الدنيا، لأنها قادرة على إثبات مزاياها. أما العظمة الزائفة فتخشى أن تبرز للمواجهة، لأنها تشعر بمواطن ضعفها. ويقول شكسبير في هذا الصدد: بعض الناس يولدون عظماء؛ وبعضهم يكسبها بجهد؛ وبعضهم تساق إليه دون أن يستحقها. ويقول حكيم آخر: ليست العظمة لمن يملك القوة، بل لمن يعرف كيف ومتى يستعملها.

فلنترك لمصفاة التاريخ مهمة غريبة أعمال العظماء ومنجزاتهم، وسنجد أماننا، في نهاية المطاف، سجلين متباينين، سجل العمران، والإصلاح، والتطور، يزخر بالعلم، والأمن، والازدهار؛ وسجل الحروب، والعدوان، والفساد في الأرض.

* * * * *

المال، الثروة:

كثيراً ما يُطرح السؤال: ما الهدف من جمع المال وتكديس الثروات؟ فإذا كان هو التمتع بالحياة، والشعور بالأمن، فإنه يكفي القليل من المال، على أن يرافقه الحب وراحة البال. أما إذا كان الهدف هو السعي وراء الجاه والمركز والشهرة... فإن الطموح المفرط لا يجلب السعادة.

نصح حكيم الأثرياء المولعين بجمع المال فقال: اجعلوا لأفئدتكم جيوباً واسعة، لتتقلوا أموالكم معكم عساكم تشترون قصوراً شامخة في الآخرة. ويقول حكيم آخر عن رجل ثري كان يكثر المال ولا ينفقه في سبيل الله: إنه يرقد الآن في قبره داخل صندوق من أغلى أنواع الخشب، ويستضيف أطف أصناف الديدان؟ ويقول حكيم آخر: إن الأثرياء البخلاء، الذين لا ينفقون أموالهم لصالح البلاد والعباد، تقودهم الشياطين يوم القيامة إلى مستشفيات العلاج من الأمراض النفسية.

ولكن مهما كتب الحكماء وحدث الوعاظ، منذ قدم الزمان، لم يقلل من سحر المال وغوايته وتهافت الناس على جمعه. والحديث عمن يكثر الثروات.. لا يقلل من أهمية المال وما له من آثار إيجابية يجعل كثيراً من الناس يضحون بأنفسهم من أجل حماية ممتلكاتهم. إن المال يسهل الصعب، ويغطي العيوب، ويفتح الأبواب، ويجمل القبيح، ويعالج المريض، ويجعل المتشرد سائحاً محترماً... وكما قيل لا يوجد مكان لا يصعد إليه حمار، مهما ارتفع، إذا كان الحمار محملاً بأكياس الذهب.

* * * * *

الأخلاق:

يمكن القول بصفة عامة أن الأخلاق هي مجموع المبادئ والمفاهيم والعادات التي تنظم السلوك البشري، بطريقة موضوعية، أو غير موضوعية، بناء على ما يعتبره الناس سلوكاً سليماً مقبولاً، أو خاطئاً منبوذاً، في زمن من الأزمنة ومكان من الأماكن. فالأخلاق الفاضلة هي ما ترضى به القبائل والمجتمعات، والأخلاق الرذيلة هي ما ترفضه وتعاقب عليه. وتشمل معايير الأخلاق الواجب، والمستحب، والمباح، والمكروه، والمحرم، وغير ذلك مما يدخل في مجال الحق والباطل، والصالح والفساد، والخير والشر.

الفضيلة ليست مجرد الامتناع عن الرذائل وتجنب المساوئ. فردا اتخذ المرء موقفاً محايداً بين الخير والشر لا يعتبر فاضلاً، إذ لا بد أن يقوم بأعمال صالحة نافعة لينتمي إلى ساحة الفضيلة. بل إن الانخراط في الأعمال الخيرية يعتبر أفضل سبيل لتجنب فئات الشر والفساد.

إن العبادات هي مواقف التقوى والورع والأفعال التي يتجه بها المؤمن نحو خالقه. وهي وحدها لا تكفي لكي نحكم عليه بأنه من ذوي الفضل والأخلاق الكريمة. فالمؤمن الذي يعتكف في مسجد أو كهف (أو دير)، منعزلاً عن معترك الحياة اليومية وسط البشر، لا يعتبر من أهل الخير والفضل والصالح، لأنه في عزلته لا يواجه المغريات والمفاسد والشُرور التي تمتحن إرادته وصبره وقوته وتقواه. وهو في عزلته لا ينفع الناس بشيء، لا يأمر بمعروف ولا ينهي عن منكر؛ فكيف نحكم على سلوكه في عزلته، وعلى أي أساس نضمه إلى ساحة أهل

ذكريات وبصمات —

الخير والفضل والصلاح، وهو بعيد عن بيئة العلاقات والمعاملات اليومية التي تعتبر المحك الذي يخرج ما في النفوس من خير أو شر.

قد تختلف العبادات والشعائر العقائدية باختلاف الملل والطوائف، ولكن المبادئ الأخلاقية الأساسية تظل مشتركة بين البشر. وما أعظم «الدين المعاملة»، إذ من مزايا الأخلاق الحميدة أنها تنشر المودة والثقة بين الناس، وتزرع التسامح والكرم والتعاون، وتلطف من استبداد المشاعر السلبية، وتخفف من قساوة العقل والعلم والقوة، ومن طغيان الأنانية، وتليّن من تعصب المتزمتين، وتسعى إلى إصلاح الضال، وتقويم المعوج، ومواساة المصابين، وتوزيع الخيرات بين المحرومين. فمن يفعل الخير لا يعدم جوازيه، ومن يزرع الريح يحصد العواصف.

* * * * *

المختصر المفيد



- نبذة عن الحضارة الإسلامية.

نبذة عن الحضارة الإسلامية



جاء في الموسوعة البريطانية ما مفاده: الحضارة هي مجموع الميراث الاجتماعي لمجموعات من السكان يحقق لهم وسائل الحياة، ويوفر لهم مستوى من الثقافة والموارد التي تدعم إمكانيات تطورهم التدريجي، ويساعدهم على تحسين ظروف حياتهم الفكرية، والمادية، والأخلاقية، وعلى المحافظة على وحدتهم، ونقل مكاسبهم الثقافية إلى الأجيال التالية».

كان للإسلام رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فرفعوا لواءه عالياً، وانطلقوا شرقاً وغرباً يحملون رايات عقيدة الوحدانية، والعلم، والعدل، والمساواة، والأخوة بين الناس مُرَدِّدِينَ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات - الآية رقم 13) .

وفي قرون قليلة أسسوا منارات انتشرت أشعتها من حدود الصين إلى المحيط الأطلسي، وشيّدوا حضارة أنارت أجواء أوروبا الكئيبة وساعدتها على الخروج من ظلمات القرون الوسطى.

انطلقت الدعوة الإسلامية تحمل مبادئ إنسانية علمية وعملية

ذكريات وبصمات —

قوية راسخة، من شعاراتها اطلبوا العلم والمعرفة حيثما وجدا، اقرأوا، تعلموا، اعملوا بجدّ وحماس وأنقنوا إنتاجكم، فإن المعرفة وحدها لا تسمن ولا تغني من جوع.

كانت انطلاقة الحضارة العربية الإسلامية من أعظم الثورات الحضارية في التاريخ، إذ لم يكد يمرّ قرن من الزمن على وفاة الرسول ﷺ، حتى كان فرسان الإسلام ينشرون دعوة الحق من حدود الصين حتى فرنسا، ومن المحيط الهندي إلى المحيط الأطلسي. وبتوسع إمبراطورية الإسلام بدأت المدن تشيد وتزدهر، وأصبحت شعارات الخلفاء والولاة والعلماء: علم الحكماء، وعدل الحكام، وشهامة الفرسان، وتقوى الصالحين، أمة واحدة وثقافة واحدة. وقد يتساءل المرء كيف استطاعت اللغة العربية أن تنتشر وتصبح وسيلة فعالة في العلوم، وفي التعامل مع مختلف الشعوب ومعارفهم العريقة، وحلت محل لغات أخرى. وقد أثبتت هذه اللغة أنها لغة ثرية، مرنة، قادرة على التكيف والتفاعل والتجاوب مع مسيرة العلوم، وعلى التطور ومسابقة اللغات الأخرى، ونقل فنون الأمم الأخرى ومعارفهم إلى أحضانها، وكيف لا وقد وسعت كتاب الله لفظاً وغاية.

توسعت الفتوحات الإسلامية، وحرص المسلمون على كسب معارف الأمم الأخرى وعلومهم والاستفادة من حضاراتهم، وشجع الخلفاء والولاة هذه الرغبات، وعمل خلفاء بني أمية على الاستفادة من ثقافات الأمم المجاورة واقتناء المعرفة والكتب من العواصم المتحضرة في بلاد فارس واليونان، ومن المكتبات في الاسكندرية، وأنطاكية

وبيروت ونيسابور وغيرها، وراحوا يبذلون جهوداً كبيرة وأموالاً سخية من أجل ترجمة علوم الحضارات الأخرى وفنونها إلى اللغة العربية.

وكان أول من اهتم بالترجمة هو خالد بن يزيد بن معاوية الذي أمر بإحضار جماعة من اليونانيين من مصر، وأمرهم بنقل بعض المصنفات من اليونانية والقبطية إلى العربية. وتبع ذلك نقل «الديوان» من الفارسية إلى العربية في عهد الحجاج بن يوسف الثقفي.

وفي عهد الدولة العباسية كان أول من اهتم بترجمة المؤلفات الأجنبية أبو جعفر المنصور الذي طلب من طبيبه الخاص جورجس بن جبرائيل بترجمة مؤلفات يونانية في ميدان الطب إلى العربية. ثم نهض حنين بن إسحاق بترجمة مصنفات لأبقراط وجالينوس في الطب. وترجم ابن المقفع كتاب «كليلة ودمنة» من الفهلوية إلى العربية.

وتواصلت أعمال الترجمة إلى العربية فشملت كتاب «السند - هند»؛ وكتاب «المجسطى» لبطليموس؛ وكتاب «إقليدس» في الهندسة. وفي عهد هارون الرشيد نشطت ترجمة الكتب اليونانية؛ وازداد شغف الخليفة المأمون بالعلوم، فلم يكن يتردد في البذل بسخاء من أجل اقتناء الكتب من مختلف البلدان وترجمتها؛ بل كان عندما يتفاوض مع دولة ما يضيف إلى شروط العقود أن تقدم له مصنفات علمية لترجمتها. ويقول الشيخ محمد الخضري صاحب «محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية (الدولة العباسية)»: إن المأمون يعد في الحقيقة حامل لواء هذه العلوم، وسبب تلك الحركة الكبرى التي وجدت في الأمة الإسلامية، مع حفظ الفضل لمن سبقه كأبيه الرشيد، وجده المنصور،

ذكريات وبصمات

فإنهما وضعاً الأساس، وهو هذا حذوهم، إلا أنه فاقهم في الاهتمام والعزم» ومن بعد المأمون أرسل الخليفة المعتصم والخليفة المتوكل رسلاً إلى مختلف المدن والأمصار لشراء المصنفات المتعلقة بالطب والفلسفة والرياضيات وغيرها لترجم إلى العربية.

وتجدر الإشارة إلى أن «بيت الحكمة» التي أنشأها المأمون عام 830 ميلادية في بغداد كانت أشبه بمجمع علمي تضم طائفة من المترجمين يعكفون على ترجمة المصنفات الهامة من اللغات اليونانية، والسريانية، والفهلوية، والهندية؛ وقد ركز المسلمون على ترجمة مؤلفات أرسطو وأفلاطون، كما ترجمت كتب من بلاد الفرس والهند ومن أصقاع أخرى في القصص، والسير، والفلك، والموسيقى، والهندسة وغيرها.

وكان على رأس مدرسة الترجمة هذه (بيت الحكمة) طبيب نسطوري بارع يدعى حنين بن إسحاق، يروى أنه ترجم بنفسه مائة كتاب ورسالة. وبدأت بهذه الأعمال المكثفة حركة علمية ظلت تنتشر عبر الإمبراطورية الإسلامية التي بدت في العهد العباسي، وفي عهد ازدهار الأندلس، كأنها سوق عظيمة للعلوم والمعارف؛ وأصبح العلماء ينعمون بالتقدير والحرية، ومنهم يهود، ومسيحيون، وفارسيون، ونستوريون⁽¹⁾، وغيرهم. والسبب في هذا الانتشار العظيم أن العقيدة الإسلامية تسعى إلى هداية الشعوب إلى الإسلام، ولكنها لا ترفض علومهم وحضارتهم، بل تشجعهم على الاكتشاف والإبداع.

(1) أتباع نستوريوس (431م) الذي كان يعتبر أن طبيعتي الألوهية والبشرية ظلتا منفصلتين. في المسيح عليه السلام، واعتبرت الكنيسة هذا الاعتقاد هرطقة.

وسرعان ما انتقل العلماء المسلمون من مرحلة الترجمة إلى مرحلة التأليف والإنتاج والإبداع، فدخلوا ميادين البحث والتجربة والاستقراء، والمختبر والمصنع... لأن العلم المفيد هو الذي يصدق العمل والإنتاج. استغل علماء الإسلام معارف الأمم السابقة، مثلما يستغل النحل رحيق البساتين، ثم بنوا عليها فجاءوا باكتشافاتهم وإبداعاتهم في جميع العلوم والفنون، ولا شك أن مما ساعد على ذلك رعاية الخلفاء والأمراء والولاة المستتيرين الذين أنفقوا بسخاء على المراكز العلمية في عواصم الإسلام، ومنها بيت الحكمة في بغداد، والجامع الأزهر في القاهرة، وجامعة القرويين في فاس، وجامع القيروان وجامعة الزيتونة في تونس، وجامع قرطبة في الأندلس، وفي مناطق أخرى سيأتي ذكرها.

وهكذا استطاع الإسلام أن يوحد شعوباً مختلفة في مناطق واسعة تحت لواء عقيدة سماوية ولغة واحدة، ولعله للمرة الأولى في تاريخ البشرية تعارفت وتعاونت مثل هذه القبائل والشعوب على اختلاف مللها وتقاليدها ولغاتها، من بلاد الهند وفارس وتركستان والخليج العربي وشبه الجزيرة العربية، وسوريا ومصر وشمال أفريقيا وأسبانيا إلخ.

كان المسلمون حيثما حلوا ينقلون معهم المعارف والتقنيات الجديدة ويطورون أساليب الزراعة وينشؤون قنوات الري ويصلحون الأراضي، ويبدعون في العمران. كما عمل المسلمون على تطوير الصناعات المهنية فازدهرت صناعة السجاد والقطن وأنواع النسيج،

ذكريات وبصمات —

وصناعة المعادن والفضة والذهب، وأتقنوا صناعة الزجاج و العطور والأسلحة. وازدهر التبادل التجاري مع الصين والهند وجنوب روسيا وسواحل شرق إفريقيا حتى جزيرة مدغشقر، وغرباً حتى المحيط الأطلسي، وقد حدث هذا الازدهار في زمن كانت فيه أوروبا تعاني من الفقر والجهل والتخلف أثناء القرون الوسطى.

وبالإضافة إلى هذا حقق العلماء المسلمون إنجازات عظيمة في ميادين العلوم المتوفرة آنئذ، ومنها علوم الفلك، والكيمياء، والطب، والرياضيات، وقدموا أعمالاً عظيمة، تطبيقية ونظرية، في ميادين الجراحة وطب العيون، والبصريات (دراسة الضوء)، وألفوا مصنفات علمية رائعة في علوم الجغرافيا، والأحياء، والصيدلة والفيزياء، والفلسفة، والتاريخ، والأدب، والموسيقى وغيرها. وبذلك اضطلعت الحضارة الإسلامية طيلة قرون طويلة بدور الرائد المستتير في مجال التفكير العلمي، والوعي الثقافي، والتنظيم الاجتماعي، والتشريع القانوني، والتسامح الديني، والرخاء المعيشي، والمساواة بين الأجناس.

كان معظم العلماء في ذلك العهد لا يكتفون بالتخصص في علم واحد بل يحصلون عدداً من العلوم مع التركيز على أحدها، ومع البحث والتأليف في أكثر من علم واحد. فقد كان العالم يجمع بين الطب، والفلسفة، والفلك، والرياضيات مثلاً، ويؤلف في جميعها أو يقتصر على بعضها. ويروى المؤرخون أنه كان في مدينة بغداد وحدها، في عهد هارون الرشيد وابنه المأمون، أكثر من 800 عالم وطبيب.

وكما كان الخلفاء والأمراء والولاة ينفقون بسخاء على شراء

الكتب وترجمتها، راحوا يبذلون بسخاء لرعاية العلماء وتشجيعهم على التأليف والإبداع. وظلوا يقدمون الدعم المالي للمساعدة على الإنتاج والابتكار، وإنشاء تجهيزات عملية في مجالات علمية متعددة، منها تشييد المستشفيات في العواصم الإسلامية، ومعامل التحليل، ومصحات لرعاية ذوي الأمراض النفسية، وإنشاء مخازن في الأحياء السكنية الفقيرة، توفر للناس العلاج والأدوية والطعام مجاناً؛ وبناء مدارس الصيدلة ودكاكين للصيادلة، وتصنيع الأدوات والتجهيزات الطبية للفحص والعلاج والجراحة. ولم يبخل الحكام بمساعداتهم لعلماء الفلك والجغرافية الذين أبدعوا في صناعة الخرائط المسطحة والكروية، وصناعة الأسطرلاب، وبناء المراصد الفلكية.

وشملت النهضة الحضارية الإسلامية منشآت مختلفة زراعية وعمرانية وتجارية، وابتكارات مدنية عملية منها على سبيل المثال لا الحصر تجهيزات سكب المعادن، وبناء الجسور، ومدّ قنوات الري، وأنظمة التدفئة والتبريد، والحمامات العامة، وصك النقود، وإنتاج العقاقير ووسائل تخدير المرضى، وصناعات الحبر، والنسيج، والسّمع، والدهان، والسكر، والطاحونات المائية والهوائية، والساعة المائية وغير ذلك. وجلب المسلمون من الصين مزروعات منها الأرز، والقطن، وقصب السكر، والحرير، والبرتقال، والزنجبيل وغير ذلك.

ومن دلائل التقدم الحضاري اهتمام المسلمين بصناعة الورق، إذ أخذوا صناعة هذه المادة الهامة من الصينيين قبل نهاية القرن الثامن الميلادي وأسسوا مصنعاً لإنتاج الورق في بغداد، ثم نقلوا هذه الصناعة

ذكريات وبصمات

إلى الأندلس، وسرعان ما انتشرت تجارة هذه المادة العظيمة فشجعت ذوي المهنة على طباعة الكتب، وخففت من وزنها، وساعدت على انتشار التأليف والمعارف.

وتجدر الإشارة إلى أن علماء المسلمين كانوا يجدون متعة وفائدة كبيرة في لغة الأرقام. وكان من أهم نشاطاتهم في هذا المجال هو استعمال الأرقام ... 6, 5, 4, 3, 2, 1... التي أخذوها من أصلها الهندي وطوروها واستغلوا سهولتها فيما تعاطوا من العلوم، وانتشر استعمالها في شمال أفريقيا وفي أوروبا التي كانت قبل ذلك تعتمد في حساباتها على الأرقام اللاتينية المعقدة. وإليكم مثلاً على كتابة الرقم 1825 بالأرقام اللاتينية: MDCCCXXV حيث يمثل الحرف:

$$1000 = M$$

$$0500 = D$$

$$0100 = C \quad \text{مكرراً ثلاث مرات} = 300$$

$$0010 = X \quad \text{مكرراً مرتين} = 20$$

$$0005 = V$$

$$\underline{\hspace{1cm}} \\ 1825 = \text{المجموع}$$

ويلاحظ أن أوروبا لم تعرف «الصفر» (ZERO) قبل منتصف القرن الثامن عشر الميلادي؛ وكانت هذه الكلمة معروفة لدى العرب

قديمًا وتعني «لا شيء»، ومنه «صفر اليمين». وقد انتهى الأمر بحسن استغلال الأرقام الهندية إلى اكتشاف أساليب تقنية رياضية وميكانيكية لحل مشاكل حسابية وإلى اختراع نوع من «الحسوب» الفلكي.

ومن أعظم دلائل التطور والازدهار ما شيّدته الحضارة الإسلامية في ميادين العمارة وال عمران. فقد شيّد العباسيون قصرًا عظيمًا منها قصر سامرا، والقصر الهاروني، والقصر الجعفري، وقصر الجوسق، وقصر الثريا وغيرها. كانت جدران هذه القصور مزدانة بأبهج الزخارف والفسيفساء البراقة، وقطع الزجاج بأشكالها الهندسية وألوانها اللامعة. واشتهر فن العمارة عند المسلمين كذلك بالنقوش الهندسية البديعة. وكانت هذه القصور مزدهرة بالحدائق والبرك والأحواض والتماثيل والنافورات. ولكن بغداد كانت مزدهرة كذلك بكونها مركز العلم وقبلة العلماء؛ وكان الأطباء والمهندسون وطلاب العلم وأصحاب المهن يهرعون إليها من مختلف الأقاليم ليستفيدوا من معارف من سبقهم، ويضيفوا إليها من مواهبهم العلمية والفنية.

وكانت مدن الأندلس من أهم مراكز الإشعاع الحضاري، ومنها قرطبة، وطليطلة، وغرناطة، وإشبيلية. وهناك شيّد الخلفاء والأمراء والأثرياء قصرًا، ومساجد، ومعاهد علمية ظلت مصدر فخر للحضارة الإسلامية. وكانت مدينة قرطبة نموذجًا للمدينة المستنيرة الراقية؛ ويروى المؤرخون أنها كانت في عهد المنصور بن أبي عامر تضم نحو 20.000 قصر، و2000 مسجد، و900 حمام عام، و80.000 مصنع وحنوت، بالإضافة إلى الجامعات، والمستشفيات، ومراصد الفلك وغير

ذكريات وبصمات —

ذلك. كما تجدر الإشارة إلى قصور الأندلس الرائعة ومنها قصر الحمراء، والزهاء، والزاهرة، ومسجد قرطبة الشهير.

ويروى أن الحكم المستنصر بالله أسس في قرطبة 27 مدرسة؛ وراجت فيها العلوم والآداب والفنون، وكان العلماء يتوافدون إليها. واهتم أمراء الأندلس بجمع المصنفات النفيسة وأرسلوا بعثات إلى الشرق الإسلامي لشرائها؛ وجمعت المكتبة الملكية في قرطبة أكثر من 400 ألف مجلد، وكان البادئ بهذه الحركة العلمية الواسعة هو الخليفة الناصر وابنه الحكم. واشتهرت متاجر الكتب فيها حتى قيل «إذا توفى عالم في إشبيلية وأريد بيع كتبه تحمل إلى قرطبة؛ وإذا توفى مطرب في قرطبة وأريد بيع آلاته تحمل إلى إشبيلية».

ومن الشواهد على ازدهار الحياة في قرطبة ما يشير إليه المؤرخ الشهير المقرئ من أن الهيئات القضائية فيها كانت منظمة تنظيمًا محكمًا؛ وأن المسيحيين كان يحكمهم موظفون من ملتهم؛ وأن الشرطة كانت تسهر بانتظام على أمن المواطنين؛ وتراقب الأسواق والسلع والموازين... وأن مرافق الصحة العامة كانت على ما يرام».

ومن غير المعقول أن يتحدث المرء عن الحضارة العربية الإسلامية من غير أن يتناول تلك الثروة الراقية العظيمة التي تزخر بها الثقافة العربية، إذ لا تتجلى المعالم الفنية السامية لهذه الحضارة، ولا تبرز فضائلها وإنجازاتها الإنسانية بدون الإشارة إلى ما أنتجته تلك القرون المزدهرة في تاريخ الإسلام من المصنفات الأدبية ودواوين الشعر، وما أنجبتته من كبار الأدباء وفحول الشعراء، وإذا كانت أوروبا

قد سعت أثناء عهود جهالتها وانحطاطها إلى ترجمة مؤلفات كثيرة من العلوم العربية إلى لغاتها، فإنها لم تعر اهتماماً يذكر لكنوز الأدب العربي، بل اكتفت في عهود متأخرة بترجمة بعض القصص الخيالية المسلية مثل: «ألف ليلة وليلة»، و«كليلة ودمنة»، و«رباعيات الخيام»، وغيرها.

وبما أن هذه الصفحات لا تسمح بالتوسع في هذا الموضوع الشيق، فلا أقل من تقديم لمحة موجزة عن بعض الكتاب والشعراء الذين لمعت نجومهم في سماء الأدب العربي.

الجاحظ :

هو أبو عثمان الجاحظ، 160 - 255 هجرية (767 - 869م).

ولد الجاحظ بالبصرة لأسرة فقيرة، وتوفى أبوه وهو صغير السن، فكان يبيع الخبز والسمك على الشاطئ لكسب وسائل العيش. ويبدو أنه كان دميم الملامح، ولكنه كان كريم النفس خفيف الروح، شديد الذكاء، حسن المنطق؛ واشتهر الجاحظ بسعة معارفه، وبأسلوبه الأدبي البليغ، مارس كل علم، فكان راوية ومؤرخاً في علم الحيوان، ومؤلفاً لكتب أدبية قيمة. وكان في آرائه يميل إلى مدرسة المعتزلة.

للجاحظ مؤلفات يقال أن عددها بلغ 190 مصنفاً ورسالة وبحثاً تناول فيها شتى موضوعات الأدب والفلسفة، والتاريخ، وعلوم الطبيعة، والسياسة. وكان يمزج الجدّ بالهزل، والأدب بالعلم، والفكاهة بالمجون. ومن أشهر مؤلفاته :

ذكريات وبصمات

كتاب «البيان والتبيين» الذي يشرح فيه أساليب البلاغة والبيان، والفصاحة، والقدرة على التعبير بلغة سليمة واضحة سهلة على القراء. ومنها : كتاب «البخلاء»؛ وكتاب «المزح والجد»؛ وكتاب «فضيلة المعتزلة»؛ وكتاب «الزرع والنحل»؛ وكتاب «فضل العلم»؛ وستأتي نبذة عن كتابه الشهير «الحيوان» عند الحديث على مشاهير العلماء.

ابن قتيبة :

هو أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، ولد في بغداد سنة 213 هجرية، وتوفي سنة 276هـ.

ومن أهم مؤلفاته :

«عيون الأخبار» تناول فيه بالبحث موضوعات السلطان، والحرب، والطبائع والأخلاق؛ وله كتاب: «الشعر والشعراء»؛ وكتاب: «أدب الكاتب». ويعتبر ابن قتيبة من مشاهير الأدب العربي.

ابن عبد ربه :

هو أبو عمر أحمد بن عبد ربه الأندلسي، ولد في قرطبة عام 246 هجرية. وهو صاحب المصنف الشهير: «العقد الفريد». وقد تناول بالبحث موضوعات اجتماعية، وسياسية، وأخلاقية، وأدبية، وتاريخية؛ واقتصر المؤلف في هذا الكتاب الضخم على أخبار المشرق العربي.

الأصفهاني :

هو أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني المتوفى عام 356

هجرية. وقد اشتهر بكتابه «الأغاني» الذي جمع فيه الأغاني المتميزة الشائعة في عصره، والعصر الذي سبقه، فجاء مصنفه في شكل موسوعة تشمل معارف مستفاضة عن أخبار العرب وملوكهم، وسيرهم، وأيامهم، ودولهم، وأنسابهم، وأشعارهم، وفنونهم، وأدبهم. ويروى أنه استغرق نحو 50 سنة لجمع مؤلفه الضخم. ويقول عنه ابن خلدون: «إنه ديوان العرب، وجامع أشتات العلوم التي انتهت إليهم».

أبو علي القالي :

هو إسماعيل بن القاسم أبو علي القالي البغدادي، ولد في قرية من ديار بكر سنة 288هـ (900م)، وتوفي بقرطبة سنة 365هـ (975م). له مؤلفات كثيرة منها كتاب «الأمالي» الذي يعتبر من أمهات الكتب في الأدب العربي؛ وهو مصنف مفيد جداً لمن يرغب في التعمق في علوم اللغة والآداب والأشعار والحكم والأمثال وأخبار العرب.

المتنبي :

هو أبو الطيب أحمد بن الحسين الكندي، الشاعر الذي طبقت شهرته الآفاق، وصاحب الحكم والأمثال السائرة. ولد بالكوفة سنة 303هـ، وبعد مسيرة طويلة التحق بسيف الدولة بن حمدان في مدينة حلب، فمدحه وخلد ذكره. ثم التحق بكافور الإخشيدي في مصر ومدحه، غير أن كافور لم يوف بوعده بأن يقلده ولاية، فخرج المتنبي متخفياً، وقصد الكوفة. ويتفق الأدباء والنقاد على أن المتنبي إمام الشعراء، وأنه لم يبلغ شاعر من الشهرة ما بلغه، ولم تلد امرأة شاعر ينافس في الموضوعات التي أجاد فيها.

ذكريات وبصمات —

كان للمتنبى شخصية قوية ، نائرة، وكان كثير الاعتداد بنفسه، كما كان شاعراً قومياً يفخر بالعرب والعروبة، وخبيراً بالنفس البشرية، وكان طموحاً، قوي العزيمة، مغرماً بالأقوياء، ولكن زادته تجاربه غنى وواقعية.

أبو العلاء المعري :

هو أحمد بن عبد الله بن سليمان المعري، شاعر فيلسوف، ولد بمعرة النعمان، بسوريا سنة 363 هجرية، وفقد بصره في سن الثالثة. كان يتجنب أكل لحوم الحيوانات وما يخرج منها. وتشمل أشعاره الاجتماعيات، الفلسفيات، الأخلاق، الطبيعيات؛ واشتهرت قصائده القصيرة التي تعرف بـ«اللزوميات»، والتي تناول فيها موضوعات حياتية أساسية مثل العقل، والوحي، والموت، والبعث، والعقائد؛ وهو فيلسوف متشائم يعبر عن شكوكه في أمور كثيرة، وإن كان يؤمن بوجود إله عادل، حكيم، قادر على كل شيء.

ابن زيدون :

هو أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن زيدون (394 - 463هـ). نشأ في قرطبة بالأندلس ، ولقب بذى الوزارتين. يعتبر من الطبقة الأولى بين شعراء الأندلس. عرف ابن زيدون بغزارة ثقافته، وحدة ذكائه. وقد امتاز شعره بجودة نظمه، وصدق عاطفته، ورونق أسلوبه، وحلاوة موسيقاه. وسمي ببحتري المغرب تشبيهاً له بالشاعر المشهور في الشرق: البحتري.

لسان الدين بن الخطيب :

هو محمد بن عبد الله بن سعيد، ولد في غرناطة 713 هجرية. برع في الأدب والفلسفة والطب وعلوم اللغة، وكان أشهر رجال عصره. ترك ابن الخطيب مؤلفات شهيرة منها «الإحاطة في تاريخ غرناطة»؛ وكتاب «الحلل المرموقة» وتشمل تاريخ الخلفاء في المشرق، والأندلس، وشمال إفريقيا.

الموسيقى :

اهتم العرب بالموسيقى وترجموا منها مصنفات، ووضعوا لهذا الفن الراقي قواعد محكمة. وبعد أن كانت الموسيقى لديهم مزيجاً من الألحان اليونانية والفارسية والهندية والعربية، اخترع العرب ألحاناً أصيلة وآلات موسيقية جديدة، وطوروها حتى بلغت مستوى عالياً من الجمال والبراعة.

كان من المغنين الأوائل إبراهيم الموصلي (125 - 191 هجرية) في عهد الدولة العباسية؛ وهو من أصل فارسي نشأ في قبيلة عربية، ثم ذهب إلى الموصل حيث تعلم الغناء، تدرب على العزف على العود. ثم التحق بالخليفة المهدي في بغداد، فعاش في جواره، وألف ألحاناً موسيقية أصيلة. واشتهر كذلك ابنه إسحاق الموصلي الذي ألف بحوثاً هامة في الموسيقى، وقصائد غنائية منها «جواهر الكلام»، و«أغاني معبد»، و«النغم والإيقاع».

ذكريات وبصمات

ومن مشاهير الموسيقى والغناء زرياب الذي تعلم فن الغناء عن إسحاق الموصلي، وجعل للعود خمسة أوتار بعد أن كانوا أربعة.

وألف علماء مشهورون في فن الموسيقى منهم الفارابي الذي اخترع آلة «القانون»، وألف كتاب «الموسيقى»، ومنهم عبيدالله بن طاهر مؤلف كتاب «الآداب الرفيعة»؛ وكذلك ألف العالمان الشهيران الكندي وابن سينا بحثاً قيمة في فن الموسيقى.

ويظن كثير من الأوروبيين أن النهضة الأوروبية بدأت من إيطاليا، والواقع أن ميلاد نهضة أوروبا انطلق في بادئ الأمر من أسبانيا الإسلامية في القرن الثاني عشر، حدث ذلك في مدرسة طليطلة الشهيرة التي كان مترجموها ينقلون المؤلفات العلمية من اللغة العربية إلى اللاتينية. وكان أشهر مترجمي هذه المدرسة يدعى «جيرار من كريمونا» الذي جاء إليها من إيطاليا. وتجدر الإشارة إلى أن هذه المدرسة كانت أول من بدأ يستعمل الأرقام العربية (الهندية) بدلاً من الأرقام اللاتينية المعقدة. ومنذ ذلك العهد دخلت الأرقام العربية إلى أوروبا. وكان من أهم المؤلفات التي ترجمتها تلك المدرسة مؤلفات العالم الفذ الحسن بن الهيثم.

وبالإضافة إلى مدرسة طليطلة نشأت اتصالات علمية بين الحضارة الإسلامية وأوروبا اللاتينية في مدن أخرى حيث كان اليهود والمسيحيون ينشطون في ميدان الترجمة، فنقلوا علوم الفلك، والطب،

والفلسفة؛ وترجموا مؤلفات الكندي، والفارابي، وابن سينا... وغيرهم. ونشطت مراكز أخرى في جنوب إيطاليا مستفيدة من الثقافة الإسلامية، فنشأت أول مدرسة للطب في مدينة ساليرنو؛ وكانت جزيرة صقلية تتعم بالرخاء والازدهار، ونشأت فيها جامعة للعلوم، خاصة علم الطب؛ وازدهرت مدينة باليرمو وتوفرت فيها وسائل الراحة والمتعة، والطرب. ونشأت مدرسة أخرى للعلوم في مدينة مونبيلي (بفرنسا)، فكانت قريبة من منابع الحضارة الإسلامية. وفي هذا الصدد يقول العالم ليجردي مستقيم: «وحق علينا أن نقول إن العرب، ولا سيما عرب الأندلس، هم أصل ينبوع كل معرفة في الطب، والفلسفة، والفلك، والتعاليم التي بزغت في أوروبا منذ القرن العاشر فصاعداً».

وقد جاء في الموسوعة البريطانية (المجلد 16 صفحة 368):

«إن أكثر الثقافات فائدة لأوروبا والعالم هي الثقافة الإسلامية، وذلك ليس فقط لأن الإسلام مرتبط بالديانتين اليهودية والمسيحية، بل كذلك لما حصل من اتصالات وتفاعلات عملية بين البلدان الناطقة باللغة العربية وبين أوروبا اللاتينية أثناء فترات حاسمة. ومن المهم جداً أن نتذكر بأن عصور عظمة الحضارة الإسلامية تزامنت مع القرون الوسطى التي انحدرت فيها الحضارة الأوروبية إلى مستوى الحضيض».

قديمًا كان يسود خطأ لدى بعض البلدان الأوروبية بأن الحضارة الإسلامية إنما هي حضارة تأملية جدلية، تهتم في الدرجة الأولى بالموضوعات العقائدية، والفلسفية، والأدبية، ولا تهتم بالبحوث

ذكريات وبصمات

التطبيقية والعلوم الطبيعية، وهذا خطأ آخر يكذبه ازدهار الحضارة الإسلامية وانتشار ثقافتها أثناء القرون الوسطى؛ كما يكذبه كثير من العلماء الغربيين ممن درسوا الحضارة الإسلامية⁽¹⁾. وقد جاء في كتاباتهم ما مفاده «إن معجزة الحضارة الإسلامية لا تتمثل فقط في دور الوسيط بين الحضارة اليونانية والحضارة الحديثة... بل إن دور العرب الحقيقي يتمثل بصورة خاصة في تلك الروح الحية الجديدة وفي ذلك النشاط الحماسي الذي أودعوه في حياة الناس في القرون الوسطى، وهي روح البحث العلمي، ومنهاج البحث التجريبي الذي لم يسبقهم إليه العلماء؛ وقد ورثت أوروبا هذه الروح التجريبية العملية في العلوم، وهو ما نشير إليه بـ«روح بيكون»⁽²⁾.

(1) منهم Regis Blachère, Louis Massignon, Armand Abel.

(2) هو Roger Bacon (1220 - 1292م) عالم وفيلسوف إنكليزي درس الفلك، الرياضيات، البصريات، الكيمياء، اشتهر بتركيزه على العلوم التجريبية.

الحكم والمواعظ على أسنة الحيوانات



- الحكايات على أسنة الحيوانات .
- غرض الكتاب (من كليلة ودمنة).
- من حكايات الحكيم اليوناني إيسوب.
- من حكايات الشاعر الفرنسي لافونتان.

الحكايات على السنة الحيوانات



تعتبر الأساطير والحكايات الشعبية، شفوية كانت أو مكتوبة، منبعاً لا ينضب لخيال الإنسان. فهو يستغل جميع مكونات البيئة والطبيعة، في الأرض والسماء، والبحار، والغابات، والجبال والأنهار، والسحاب، والرياح... والحيوانات بجميع أجناسها، أقول يستغلها لإشباع خياله، والتعبير عن أفكاره، ومشاعره، ورغباته.

والإنسان يُلبس هذه الظواهر البيئية والمخلوقات الحية، هيئة الأشخاص، وينسب إليها تصرفات آدمية، ويجعلها تتطرق بلسانه، ويجعل سلوكها رمزاً إلى أخلاق البشر وأفعالهم الإيجابية والسلبية. ويطلق على لسانها عبارات الموعظة، والحكمة، والنصائح؛ والهدف من ذلك تقديم دروس أخلاقية، وتصحيح أخطاء الناس، وتشقيفهم، وتسليتهم أحياناً.

تمتد حكايات الحيوانات التي تتطرق بلسان الإنسان إلى عهود قديمة. يبدو أنها ظهرت في البداية في بلاد الهند الواسعة، حيث كانت توجد مجتمعات تؤمن بفكرة «تناسخ الأرواح (التقمص)». ومما يرجح ظهور حكايات الحيوانات في بلاد الشرق أولاً، أن بعض الكتب القديمة في تلك البلاد استخدمت الحكايات لنشر وتطوير الأفكار العقائدية والأخلاقية، ومنها انتقال الأرواح (بعد الوفاة) من البشر إلى مخلوقات حية، بشرية أو حيوانية، وهي فكرة التناسخ.

ذكريات وبصمات

ويبدو أنه كانت آنتذ توجد تأثيرات ثقافية متبادلة بين المجتمعات الهندية ومجتمعات البحر المتوسط، فظهرت حكايات الحيوانات الناطقة بلسان الإنسان في بلاد اليونان باسم شخص يدعى أيسوب AEsope الذي يعود تاريخه إلى القرن السادس قبل الميلاد . ويروي المؤرخ هيرودوتس أنه عاش في جزيرة ساموس ، وأنه كان خادماً لأحد الأثرياء . ويرى البعض أنه شخصية أسطورية .

وقد ألف أيسوب نحو مائتي حكاية، ثم تبعه في هذا الميدان كتاب آخرون جمعوا حكاياته، وربما أضافوا إليها وطوروها، وترجموها إلى لغات أخرى، منها اللغة اللاتينية. وسيأتي الحديث عن أيسوب وحكاياته في الجزء الخاص به .

ومن الأدباء الذين كتبوا عن حكايات الحيوانات أديب روماني يدعى فيدروس PHAEDRUS ، كانت حكاياته منتشرة في أوروبا أثناء القرون الوسطى؛ وظلّ البعض يعتبرها من إنتاج أيسوب اليوناني، والواقع أن فيدروس قلّد أيسوب في كثير من حكاياته . وتقدم لنا حكايات فيدروس مشاهد عن عادات سكان روما في عهد الإمبراطور أغسطس، وينتقد الكاتب في حكاياته المساوية الاجتماعية والسياسية. ومن حكاياته:

- الثعلب وعناقيد العنب.

- الذئب والحمل.

- حصاة الأسد.

- الجوهرة في كومة الفضلات.

- الضفادع تطلب ملكاً جديداً.

ومن أشهر المؤلفات في موضوع الحكايات التي تُروى على لسان الحيوانات عمل جماعي اشتهر تحت عنوان *Le Roman de Renard* شارك في إعداده مجموعة من الأشخاص، بين القرنين الثاني والثالث عشر، ويقص أعمال الثعلب الماكر الذي استطاع أن يخدع عدداً من الحيوانات مثل الذئب، والقط، والدب، ويهدف إلى انتقاد العادات الاجتماعية. وبعض هذه الحكايات تنتقد أصحاب البطون الكبيرة، والقساوسة، والنساء، لما يتمتع به هؤلاء من سلطان؛ وتلجأ هذه الحكايات أحياناً إلى لغة الحانات والمواخير.

وقد استعمل دانتي، صاحب «الكوميديا الإلهية» عدداً من الحيوانات ليرمز بها إلى بعض المشاعر والعيوب والفضائل لدى الإنسان. ونجد ماكيافيلي، وهو يقدم النصائح إلى الأمير، يوصيه بأن يتبنى دور الثعلب لما فيه من مكر ومراوغة، وصفات الأسد لما فيه من هيبة وشجاعة.

وفي القرن السابع عشر ازدادت أهمية هذه الحكايات، فزاد انتشارها، وأصبحت حكايات أيسوب وفيدروس تدرس في المدارس لتعليم الطلبة القيم الأخلاقية؛ ومن هنا انطلقت شهرة الشاعر لافونتان، وانتشرت حكاياته.

عاش لافونتان في عهد الملك لويس الرابع عشر، وارتبط ببلاطه.

ذكريات وبصمات —

وقد تبع هذا الشاعر نموذج أيسوب، ولكنه توسع في الموضوعات فتناول حياة البلاط، والأمراء، والبرجوازية.

ألف لافونتان 238 حكاية، أصدرها بين سنتي 1668-1694 . واشتهر بشاعر العزلة، وشاعر الصداقة، وشاعر الحياة الاجتماعية في جميع أشكالها . وكان في أعماله ينتقد ما في العالم من أنانية، وعدوانية، ووحشية، ومن استغلال الأقياء للضعفاء . وكان من أهم موضوعاته تصوير ما يتصف به الإنسان من غرور، واحتيال، وطموح جامح.

ومن هذا يتضح أن لافونتان، وغيره ممن كتبوا هذه الحكايات، لم يكن هدفهم تسلية الأطفال فحسب، بل كانت رسالتهم تثقيف الناس، وإصلاح ما ينتشر بين الناس من مساوي الأخلاق.

ونلاحظ أن انتقادات لافونتان لا توجه فقط إلى الأمراء ورجال البلاط، بل تشمل كذلك النساء، ورجال الكنيسة، والقضاة، والأطباء، والأثرياء، ورجال السلطة. وكان الشاعر نفسه يفرق بين مضمون حكاياته، ويسميه «الروح» ، وبين شكل حكاياته الأدبي، ويسميه «الجسد». وسيأتي الحديث عن لافونتان في الجزء الخاص به.

غرض الكتاب⁽¹⁾



هَذَا كِتَابٌ كَلِيلَةٌ وَدَمْنَةٌ ، وَهُوَ مِمَّا وَضَعْتَهُ عُلَمَاءُ الْهِنْدِ مِنْ الْأَمْثَالِ وَالْأَحَادِيثِ الَّتِي أُلْهِمُوا أَنْ يَدْخُلُوا فِيهَا أَبْلَغَ مَا وَجَدُوا مِنَ الْقَوْلِ فِي النَّحْوِ الَّذِي أَرَادُوا . وَلَمْ تَزَلْ الْعُلَمَاءُ مِنْ كُلِّ لُؤْمَةٍ يَلْتَمِسُونَ أَنْ يُعْقَلَ عَنْهُمْ ، وَيَحْتَالُونَ فِي ذَلِكَ بِصُنُوفِ الْحَيْلِ ، وَيَبْتَغُونَ إِخْرَاجَ مَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلَلِ ، فِي إِظْهَارِ مَا لَدَيْهِمْ مِنَ الْعُلُومِ وَالْحِكْمِ حَتَّى كَانَ مِنْ تِلْكَ الْعِلَلِ وَضَعُ هَذَا الْكِتَابِ عَلَى أَفْوَاهِ الْبَهَائِمِ وَالطَّيْرِ فَاجْتَمَعَ لَهُمْ بِذَلِكَ خِلَالٌ ، أَمَّا هُمْ فَوَجَدُوا مُنْصَرَفًا فِي الْقَوْلِ وَشِعَابًا يَأْخُذُونَ مِنْهَا .

وَأَمَّا الْكِتَابُ فَجَمَعَ حِكْمَةً وَلَهْوًا ، فَاخْتَارَهُ الْحُكَمَاءُ لِحِكْمَتِهِ ، وَالْأَعْرَارُ لِلْهَوَى ، وَالْمُتَعَلِّمُ مِنَ الْأَحْدَاثِ نَاشِطٌ فِي حِفْظِ مَا صَارَ إِلَيْهِ مِنْ أَمْرٍ يُرْبِطُ فِي صَدْرِهِ وَلَا يَدْرِي مَا هُوَ ، بَلْ عَرَفَ أَنَّهُ قَدْ ظَفِرَ مِنْ ذَلِكَ بِمَكْتُوبٍ مَرْقُومٍ . وَكَانَ كَالرَّجُلِ الَّذِي لَمَّا اسْتَكْمَلَ الرَّجُولِيَّةَ وَجَدَ أَبُوَيْهِ قَدْ كَنَزَا لَهُ كَنْزًا وَعَقَدَا لَهُ عُقُودًا اسْتَغْنَى بِهَا عَنِ الْكَدْحِ فِي مَا يَعْمَلُهُ مِنْ أَمْرِ مَعِيشَتِهِ ، فَأَغْنَاهُ مَا أَشْرَفَ عَلَيْهِ مِنْ

(1) حسبما ورد في الأصل.

الحكمة عن الحاجة إلى غيرها من وجوه الأدب. فأول ما ينبغي لمن قرأ هذا الكتاب أن يعرف الوجوه التي وضعت له والرموز التي رمزت فيه، وإلى أي غاية جرى مؤلفه فيه عندما نسهه إلى البهائم، وأضافه إلى غير مفصح وغير ذلك من الأوضاع التي جعلها أمثالا. فإن قارئه متى لم يفعل ذلك لم يدرك ما أريد بتلك المعاني ولا أي ثمرة يجتني منها ولا أي نتيجة تحصل له من مقدمات ما تضمنه هذا الكتاب. وإنه إن كانت غايته استتمام قراءته والبلوغ إلى آخره دون تفهم ما يقرأ منه لم يعد عليه شيء يرجع إليه نفعه.

ومن استكثر من جمع العلوم وقراءة الكتب من غير أعمال الروية فيما يقرأه كان خليقا ألا يصيبه إلا ما أصاب الرجل الذي زعمت العلماء أنه اجتاز ببعض المفاوز فظهر له موضع آثار كنز، فجعل يحفر ويطلب فوق على شيء من عين ووزق، فقال في نفسه إن أنا أخذت في نقل هذا المال قليلا طال علي، وقطعتني الاشتغال بنقله وإحرازه عن اللذة بما أصبت منه. ولكن سأستأجر أقواما يحملونه إلى منزلي وأكون أنا آخرهم ولا يكون قد بقي ورائي شيء يشغل فكري بنقله، وأكون قد استظهرت لنفسي في إراحة بدني عن الكد، بيسير أجره أعطيها لهم. ثم

جَاءَ بِالْحَمَّالِينَ فَجَعَلَ يَحْمِلُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مَا يُطِيقُ فَيَنْطَلِقُ بِهِ إِلَى مَنْزِلِهِ هُوَ فَيَفُوزُ بِهِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ مِنَ الْكَنْزِ شَيْءٌ انْطَلَقَ خَلْفَهُمْ إِلَى مَنْزِلِهِ فَلَمْ يَجِدْ فِيهِ مِنَ الْمَالِ شَيْئًا لَا كَثِيرًا وَلَا قَلِيلًا. وَإِذَا كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْحَمَّالِينَ قَدَ فَازَ بِمَا حَمَلَهُ لِنَفْسِهِ، وَلَمْ يَكُنْ لِلرَّجُلِ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا الْعَنَاءُ وَالتَّعَبُ، لِأَنَّهُ لَمْ يُفَكِّرْ فِي آخِرِ أَمْرِهِ.

وَكَذَلِكَ مَنْ قَرَأَ هَذَا الْكِتَابَ وَلَمْ يَفْهَمْ مَا فِيهِ وَلَمْ يَعْلَمْ غَرَضَهُ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا لَمْ يَنْتَفِعْ بِمَا بَيَدُو لَهُ مِنْ خَطِّهِ وَنَقْشِهِ كَمَا لَوْ أَنَّ رَجُلًا قَدَّمَ لَهُ جَوْزٌ صَحِيحٌ وَلَمْ يَنْتَفِعْ بِهِ إِلَّا أَنْ يَكْسِرَهُ وَيَسْتَخْرِجَ مَا فِيهِ.

من حكايات
الحكيم اليوناني إيسوب



فأر المدينة وفأر البراري

هذه حكاية فأر يسكن المدينة، كان له صديق يسكن البراري. فاستضاف فأر الخلاء صديقه، وأعدّ عشاء ليس فيه سوى قليل من الحبوب وبعض الأعشاب. فقال له فأر المدينة:

- إنك يا صديقي تعيش في هذا المكان عيشة النملة، أدعوك لزيارتي، وسترى من الطعام ما لذّ طعمه، وطاب أكله.

وجاء فأر البراري لزيارة صديقه ساكن المدينة، وأعدّ هذا الأخير لضيفه عشاء فاخراً فيه الجبن، والتين، والقمح، وبعض الفواكه الطازجة. وابتهج الضيف بما شاهد، وتأسف على ما يلقاه من شظف العيش في البادية.

وما أن باشر الفاران تناول العشاء حتى فُتح باب الغرفة، فأسرعا للاختفاء في مخبأ آمن. وبعد قليل قررا العودة إلى الطعام. غير أن زائراً آخر أزعجهما، فهرعا إلى المخبأ، وأوصالهما ترتعش من الخوف. وفي اليوم التالي تكرر إزعاج السكان للفأرين أثناء فترة العشاء.

قال فأر البادية لصديقه :

أرى أن لديك أنواع الطعام اللذيذة، غير أنك لا تتمتع بها لما يحوط بك من خطر محقق. أما أنا فطعامي متواضع، ولكنني أتمتع بتناوله في جوّ من الهدوء وراحة البال.

ذكريات وبصمات —

والحكمة وراء هذه الأسطورة هي أن عيشة في جوٍّ من الهناء والطمأنينة أفضل بكثير من حياة الترف التي تحوط بها المخاوف والأخطار.

* * * * *

الكلب والثعلب والديك

اتفق كلب وديك أن يسافرا معاً؛ وعندما حل المساء صعد الديك إلى شجرة ونام؛ ونام الكلب قريباً من الشجرة. وحل وقت الفجر، فصاح الديك مؤذناً كعادته؛ فسمعه ثعلب وركض نحوه فوقف بالقرب من الشجرة وناداه:

- أيها الديك، إنزل إليّ! إنني أودّ من كل قلبي أن أعانقك وأهنئك على صوتك الجميل. فأجابه الديك :

- أيقظ أولاً كلب الحراسة الذي ينام بالقرب من الشجرة، وسأنزل إليك عندما يستيقظ.

وما أن تقدم الثعلب نحو الكلب حتى هجم الكلب عليه وافترسه.

ومغزى القصة هو أنه على العاقل أن يفكر كيف يتخلص من عدوه بأن يسلط عليه من هو أقوى منه .

* * * * *

من حكايات
الشاعر الفرنسي لافونتان



الأسد والذئب والثعلب

مرض الأسد فجاءته الحيوانات تتمنى له الشفاء وتقدم النصائح لعلاجه، إلا الثعلب لم يمثل بين يديه. فقال الذئب للأسد: لا أرى الثعلب بين زوار ملك الغابة، وإنني أتساءل ما الذي أخره؟ فأرسل الأسد من يأتي بالثعلب، وعلم هذا الأخير أن الذئب وشى به. قدم الثعلب اعتذاره للأسد قائلاً: أرجو أن يعذرني ملكنا، شفاه الله، إذا تأخرت عن زيارته. لقد ذهبت إلى الحج وكنت أدعو لكم بالشفاء كل يوم. وأثناء سفري التقيت بالعلماء والأطباء، فأخبرتهم بمرض جلالتكم، وأشاروا بأن أفضل علاج هو أن تأكلوا لحم الذئب وترتدوا جلده ليلاً ووقاية من البرد. فأمر الأسد بأن يقتل الذئب حالاً لتنفيذ نصيحة الثعلب.

ومغزى القصة أنه على من يعاشر ذوي السلطة أن يحفظ لسانه، لأن من حضر حفرة لأخيه قد يقع فيها .

الثعلب والذئب والحصان

شاهد ثعلب وذئب حصاناً لأول مرة، فاقتربا منه ليتعرفا عليه. حيّاه الثعلب قائلاً: ما اسمك أيها الحيوان الجميل؟ أجاب الحصان: لقد كتب الحداء اسمي على حافري يمكنك أن تقرأه يا سيدي. فاعتذر الثعلب لكونه لم يتعلم القراءة، قائلاً إنه يترك قراءة الاسم لرفيقه الذئب لأنه مخلوق مثقف جداً. ابتهج الذئب بهذا المدح، وتقدم إلى

حافر الحصان ليقرأ اسمه، فركله الحصان ركلة حطمت أسنانه وألقته على الأرض يعوي من الألم. فاقترب منه الثعلب وهمس في أذنه: ألم تسمع بالحكمة القائلة «لا تتق بمن لا تعرف».

الحيوانات مريضة بالطاعون

أصاب الطاعون الحيوانات، فجمعها الأسد وخطب فيها قائلاً: لاشك أن الله سلط علينا هذا المرض العضال لينتقم منا بسبب ما ارتكبنا من أعمال شريرة. فليعترف كل منا بذنوبه لعل الله يعفو عنا. وأبدأ بنفسى فأعترف بأنني كنت قاسياً أحياناً، فافتست بعض الأغنام وعدداً من الرعاة. وتقدم الثعلب فقال: أيها السيد النبيل ما أطيب قلبك! إنه لشرف كبير للحيوانات أن تفترسها، فصفق الحاضرون.

واعترفت الحيوانات المفترسة الأخرى مثل النمر والدب.... ، بما فعلت، فلم يجد أحد أعمالها ذنباً. وفي النهاية تقدم الحمار فاعترف بأنه أكل الحشيش من أحد المروج، وأنه الآن يأسف حقاً لما فعل. فصاح الحاضرون إنه جرم كبير، ليحاكم الحمار. وتكلم الذئب فأكد أن أكل حشيش المروج ذنب لا يغفر، وأنه سبب هذا الطاعون الذي سلطه الله علينا، ولا يمحو جريمة الحمار إلا القتل.

ومغزى الحكاية أنك بريء ما دمت ذا قوة وسلطان، ومذنب إذ كنت فقيراً ضعيفاً.

الصرصار والنملة

ظل الصرصار يغني طوال فصل الصيف، ولكن عندما حلَّ فصل الشتاء وجد نفسه بدون طعام، فاشتد به الجوع، وذهب إلى جارته النملة يـرجوها أن تقدم له شيئاً من الطعام يـسُدُّ به رمقه، ويسكت جوعه.

سألته النملة :

- وماذا كنتَ تفعل في فصل الصيف عندما كان الناس يجمعون أقواتهم؟ فقال لها الصرصار:

- كنتُ أغني طوال فصل الصيف.

- إذا اذهب واقض فصل الشتاء في الرقص!

«الجدُّ في الجدِّ، والحرمان في الكسل».

بحوث ومقالات من فضاء السبعينات



- السياسة المالية والضغط الدبلوماسي.
- هيئة الأمم المتحدة وقضية السلم والتعاون.
- المشاعر والصحة.

السياسة المالية والضغط الديبلوماسي



إن انسجام نظام النقد الدولي هو عامل مهم من عوامل الانسجام السياسي. وبينما نلاحظ تناقص إمكانية قيام صراع مسلح بين الدول الكبرى، فإن إمكانية الصراع في الميادين الاقتصادية والنقدية ما زالت قائمة، ومن هنا يبدو أنه بدون إدخال إصلاحات جذرية على النظام النقدي الحالي سيصبح من الصعب على الدول ذات العملات المختلفة أن تستمر في التعامل مع بعضها.

فبعد عدد من الأزمات بدأ نظام تبادل العملات المرتبطة بالدولار، وهو نظام المعدل الثابت، بدأ يتدهور مسبباً تهديداً للتجارة الدولية وجميع المعاملات بين الدول.

من الممكن مثلاً لدولة ما أن تبيع بضائعها بأسعار رخيصة، وتربح المنافسة في الأسواق العالمية إذا احتفظت بسعر منخفض لعملتها.

وقد بدأ المسؤولون في أمريكا يعترفون بأن الخطأ في النظام النقدي القديم هو أنه لا يتمتع بأية سلطة للضغط على الدول ذات الميزان التجاري الفائض لترفع قيمة تبادل عملاتها لأن هذا يجعل بضائعها أغلى ويسمح لدول أخرى بمنافستها في الأسواق العالمية.

وما زالت واشنطن تشتكي منذ عدة سنوات من العجز المستمر

ذكريات وبصمات —

في ميزانها التجاري، وتلقي اللوم على دول السوق الأوروبية المشتركة واليابان لأنهم نجحوا في منافساتهم لتجارة الولايات المتحدة ولأن ميزانهم التجاري يحقق كل سنة فائضاً كبيراً.

ولهذا اقترح وزير المالية الأمريكي في الأسبوع ما قبل الماضي بعض التدابير لحفظ تعادل ميزان المدفوعات بين الدول في المستقبل، من هذه التدابير القيام بتعديل أسعار العملات من حين لآخر بأن تخفض أسعار عملات الدول ذات العجز، وترفع أسعار عملات الدول التي حققت فائضاً في تجارتها الدولية. وبما أن تغيير أسعار أي عملة يؤثر على أسعار الصادرات والواردات والأموال المستثمرة والسياسة إلخ.. فإن هذه العملية تعيد التوازن في ميزان مدفوعات أي دولة.

وفي الواقع يجتاز النظام النقدي الدولي مرحلة انتقالية، انتهى فيها عهد النظام القديم ولم يولد بعد النظام الجديد، وتستمر المفاوضات بين أعضاء لجنة جديدة مكونة من عشرين دولة، إحدى عشر منها مصنعة وتسع دول نامية، وتسعى هذه اللجنة إلى وضع المبادئ الأساسية لتقديمها لاجتماع صندوق النقد الدولي في العام القادم.

وإذا تتبعنا سياسة الولايات المتحدة منذ الحرب العالمية الثانية وجدنا أنها سعت دائماً لاستغلال المنظمات الدولية المختلفة لتحقيق مصالحها وتدعيم سياستها، وقد قال نيكسون في الخطاب الذي ألقاه أمام اجتماع صندوق النقد الدولي «إن المصلحة الأمريكية هي عامل أساسي في سياسة حكومته الاقتصادية والدولية» ولقد حاولت

واشنطن خلال السنوات القليلة الماضية أن تستغل نفوذها في مختلف منظمات التنمية الدولية ولكنها لم تحصل على نتائج مرضية كما يبدو من الأمثلة التالية:

- حاولت إدارة نيكسون أن تمنع البنك الدولي من تقديم قرض يبلغ ثلاثة وثمانين مليون دولار للهند في شهر مارس الماضي، وكان هدف القرض شراء ست ناقلات للنفط من اليابان، وعارضت واشنطن منح القرض للهند على أساس «المصلحة القومية» لأن شراء الناقلات يخلق منافسة لناقلات النفط الأمريكية، غير أن مساعي الولايات المتحدة فشلت وقرر البنك الدولي أن يمنح القرض للهند.

- وفي شهر جوان الماضي عارضت واشنطن تقديم قرض للعراق بدعوى أنه لا يجوز للبنك الدولي أن يقدم هذا القرض في الوقت الذي تقوم فيه العراق بتأميم مصالح الدول الغربية، وحصلت العراق على القرض.

- وقد تقاعست أمريكا عن دفع حصتها في هيئة التنمية الدولية، التابعة للبنك الدولي، ولم تفعل ذلك إلا بعد مرور خمسة عشر شهراً عن تاريخ وجوب الدفع.

- وقد قررت واشنطن مؤخراً أن تعارض إعادة انتخاب السيد بول شفا مدير صندوق النقد الدولي لنفس المنصب وذلك لمخالفته لرأي جون كونالي وزير المالية السابق ولأنه نجح في إقناعه بتخفيض قيمة الدولار.

ذكريات وبصمات

ولم يقف ضغط أمريكا عند هذه الحدود بل استعملت نفوذها المالي، والتهديد بقطع المساعدة أو تخفيضها للضغط على منظمات دولية أخرى مثل البنك الدولي للدول اللاتينية - الأمريكية إذ تسيطر على أربعين بالمائة من ميزانيته. ومنذ عدة أشهر اتهم الرئيس نيكسون في خطاب له السيد فالدهايم الأمين العام للأمم المتحدة بأنه «انخدع بدعايات فيتنام الشمالية» بعد ما كان الأمين العام قد صرح بأن الطائرات الأمريكية قد قبلت بالفعل سدود المياه في فيتنام الشمالية.

وقد حذرت الحكومة الأمريكية من أنها ستخفض مساهمتها المالية للأمم المتحدة وتخفض أيضاً من حصتها لبرنامج المساعدات الخارجية للتممية، بعدما قررت الجمعية العامة للأمم المتحدة بطرد ممثلي فرموزا وقبول ممثلي الصين الشعبية في العام الماضي.

وأخيراً يبدو أن واشنطن أنذرت مكنامارا بأنه سوف لا يحظى بتأييد بلاده للبقاء كرئيس للبنك الدولي إذا استمر البنك في تقديم مساعدات للدول مثل الهند والعراق والبيرو والشيلي ما دامت أمريكا غير راضية على سياساتهم.

09/10/72

هيئة الأمم المتحدة وقضية السلم والتعاون



يتمثل النظام العالمي المعاصر في عدد من التكتلات الكبرى وفي عدد آخر أكبر من الدول المتوسطة والصغيرة التي تناهز المائة في تعدادها. كما يتمثل هذا النظام أيضاً في عدد من المنظمات والتكتلات السياسية والعسكرية والاقتصادية. وليس هناك من شيء مقدس يمنع انهيار هذا التنظيم أو تغيير اتجاهاته. فهناك الديناميكية الأوروبية حيث سنشهد في المستقبل بناء كتلة تضم أكثر بلدان القارة نشاطاً. ولم تشاهد أوروبا مثل هذا التكتل منذ عهد الإمبراطورية الرومانية. وهناك نشاط اليابان في أقصى القارة الآسيوية والمعجزات الاقتصادية التي حققتها. ومن جهة أخرى نشاهد أن سيطرة العملاق الأمريكي والمعجزات الاقتصادية التي حققتها. ومن جهة أخرى نشاهد أن سيطرة العملاق الأمريكي وقبضته على عدد من الدول قد بدأت تضعف وتتهار، تماماً مثل ما حدث للإمبراطورية الرومانية التي بعد أن بلغت أوجها، بدأت تدب إليها الشيخوخة والانحلال والفوضى والاضمحلال.

ومن الممكن أيضاً أن تظهر تكتلات جديدة وأحلاف ووحدات تختلف في سياساتها واتجاهاتها وأهدافها عن الأحلاف الموجودة.

ويجدر هنا أن نتساءل عما إذا كان بإمكان قارات ومناطق أخرى في العالم أن تحذو حذو أوروبا الغربية وتقلد نموذجهما في تكوين وحدة اقتصادية ديناميكية قد تؤدي إلى نوع من الوحدة السياسية؟

ذكريات وبصمات

فهل ستتأثر دول أوروبا الشرقية بالسوق الأوروبية المشتركة؟

وهل ستتجح مناطق أخرى في أمريكا اللاتينية وأفريقيا وآسيا في إنشاء تكتلات اقتصادية أو سياسية؟ أم هل سيوجه الاهتمام إلى تقوية المنظمات الدولية الإقليمية منها والعالمية؟

إن تاريخ السنوات القليلة الماضية لا يشجع كثيراً فنحن إذا تتبعنا نشاط بعض المنظمات الدولية في العالم الثالث، مثل منظمة الوحدة الإفريقية ومنظمة الدول الأمريكية التي تسيطر عليها الولايات المتحدة ومنظمة الجامعة العربية وبعض المنظمات الدولية في آسيا نجد أن نجاحها كان محدوداً لأنها لم تستطع أن تصهر مصالح مختلف الدول الأعضاء وتوجه نشاطها في مجالات التعاون المثمر. فقد تصدعت الجبهة الإفريقية التي كانت تواجه مشكلة التمييز العنصري وحكم جنوب أفريقيا بصوت واحد، كما تصدعت الجبهة العربية حتى في مواجهة الخطر الصهيوني فأصبح بعض الحكام يسعون لإيجاد حلول انفرادية.

ومن الواضح أنه ليس من السهل تكوين اتحادات وتكتلات ومجموعات إقليمية لأن ذلك يتضمن تخلي الدول الأعضاء عن جزء من سيادتها وتضحيتها بجزء من حريتها في التصرف ففي مثال السوق الأوروبية نجد أن الدول الأعضاء قد تخلت فعلاً عن بعض مفاهيم السيادة المطلقة وأصبحت تلتزم بقرارات وسياسة المجموعة الاقتصادية.

وما من شك في أن أهم المنظمات العالمية هي هيئة الأمم المتحدة وما تشتمل عليه من وكالات ولجان وجمعيات مثل منظمة اليونسكو،

ومنظمة العمل الدولية، ومنظمة الصحة، ومنظمة التغذية والزراعة، ولجنة التجارة والتنمية، ولجنة نزع السلاح، ومنظمتي البنك الدولي، وصندوق النقد الدولي. ومن أهم الهيئات مجلس الأمن والجمعية العامة ومجلس الشؤون الاجتماعية والاقتصادية.

ومن المؤسف أننا نجد أن أكثر الدول اختراقاً لميثاق الأمم المتحدة هي الدول التي لعبت دوراً كبيراً في إنشائها أعني الدول الغربية.

ينص الميثاق مثلاً على تسوية النزاع بالوسائل السلمية، واحترام وحدة تراب كل دولة، ويدعو الأعضاء إلى عدم التدخل في الشؤون الداخلية والامتناع عن استعمال التهديد والقوة ... إلخ.

إن أكبر تهديد لقضيتي السلام والأمن الدوليين ولمفاهيم العدالة والمساواة والتعاون بين الشعوب خلال ربع القرن الماضي إنما جاء نتيجة لتصرفات الدول الكبرى التي فشلت في تسوية خلافاتها بالطرق السلمية، فعمدت إلى استعمال القوة وجعلت من العالم مسرحاً لعملياتها البوليسية، ومن هذا القبيل التدخل الأمريكي في كوريا، ولبنان، وحربها العدوانية في فيتنام، ومحاصرتها لكوبا، ومن ذلك أيضاً العدوان الثلاثي على مصر في عام 1956.

ولا يمكننا أن نعتبر الأمم المتحدة مسؤولة على مثل هذه الاعتداءات أو غيرها من التوترات التي سادت النظام السياسي الدولي خلال ربع القرن الماضي، إن المنظمة الدولية إنما تستمد قوتها من الثقة التي يضعها فيها الأعضاء، فإذا كانت الدول الكبيرة تحتفظ

ذكريات وبصمات

لنفسها بحق التصرف لحل المشاكل الدولية حسبما تمليه مصالحها، فما ذنب المنظمة وما مسؤولية الدول الصغيرة التي لا تملك إلا شيئاً من الضغط المعنوي قد لا يتعدى مجال الاستنكار.

إذاً لا بد لتقوية هيئة الأمم المتحدة من ثقة الدول جميعاً وخاصة الدول الخمس الكبرى التي هي أعضاء دائمة في مجلس الأمن، ولا بد من السعي لحل الأزمات الدولية ضمن نطاق المنظمة لا خارجه، ولا بد من استعمال أجهزة المنظمة لإحلال التفاهم والسلام في المناطق المضطربة بدلاً من اللجوء إلى التهديد واستعمال القوة وفرض الحلول بالحرب.

فدول العالم اليوم أمام أمرين إما أن تتبع في معاملاتها الطريقة الكلاسيكية، طريقة التنافس والصراع واستغلال القوي للضعيف، أو أن تستخدم الأمم المتحدة كحاجز بينها يلطف من المنافسات ويخفف من حدة أنانيات الدول وتطاحنها وذلك بأن تلعب المنظمة دور الوسيط أحياناً ودور الحكم النزيه تارة أخرى.

وكثيراً ما دعا الكتاب الدول الكبرى إلى استخدام الوكالات المختلفة للأمم المتحدة في تقديم مساعداتهم لدول العالم الثالث لأن هذا يجنب الطرفين المساعد والمساعد كثيراً من مشاكل الاحتكاك المباشر.

وليس من المعقول في منطق السياسة والسيادة أيضاً أن يطلب من أية دولة أن تضع جميع مشاكلها في حجر الأمم المتحدة وخاصة

فيما يخص الدول الكبرى. ولكن ليس من المقبول أيضاً ألا تلجأ هذه الدول للمنظمة إلا عندما تفشل في جميع المحاولات وعندما يحدق بها الخطر. إن المشكلة الرئيسية هي حفظ الأمن والسلام العالميين ولقد وضع ميثاق الأمم المتحدة هذه المسؤولية في مجلس الأمن، ولا شك أن الالتجاء إلى الجمعية العامة ممكن عندما يصبح مجلس الأمن عاجزاً عن العمل بسبب الفيتو، غير أن صلاحيات ومسؤولية الجمعية العامة محدودة فيما يتعلق بقضية الأمن الدولي وحفظ السلام لأن صلاحياتها لا تتعدى مجال التوصية.

ومن المعلوم أن حق الفيتو هو سلاح تتمتع به كل الدول الخمس الكبيرة تستعمله للقضاء على المشاريع التي لا ترضى بها، وهكذا فقد استعملت الولايات المتحدة حق الفيتو لمعارضة كثير من المشاريع التي لم ترض بها إسرائيل. ولا يمكن إلغاء الفيتو لأن الدول الكبيرة إنما قبلت الانضمام إلى الأمم المتحدة على هذا الأساس. ويبدو لكثير من الكتاب أن حق الفيتو يمثل الحقائق الواقعية إذ أنه لا يمكن إجبار دولة كبيرة على قبول شيء بالقوة، فإذا كانت هذه الدولة تتمتع بقوة مماثلة كان ذلك معناه الحرب والدمار .

وقد بدأت بعض الدول القوية تتساءل عن حكمة تحديد عدد الدول التي تتمتع بحق الفيتو وحصره في الدول الخمس المعروفة، اليابان مثلاً تعتقد أنها جديرة بالانضمام إلى النادي لأنها تمثل قوة تفوق في بعض المجالات قوة فرنسا أو بريطانيا، ولكن المشكلة هي أنه لو التحق عضو جديد بهذا النادي (نادي الفيتو) لطالبت دول أخرى

ذكريات وبصمات —

مثل ألمانيا والهند وإيطاليا بالانضمام أيضاً. وبما أن ميثاق الأمم المتحدة حصر حق الفيتو في الدول الخمس فإنه لا يمكن إضافة دولة أخرى إلا بإعادة كتابة الميثاق وهذا ليس بالأمر السهل لأنه يتطلب تصويت الثلثين وموافقة الدول الخمس الكبيرة بأجمعها.

وهناك مشاكل أخرى تتعرض لها هيئة الأمم المتحدة منها عدم تمتع بعض المؤسسات المهمة مثل المجلس الاقتصادي والاجتماعي والبنك الدولي ومؤسسة التنمية - بالسلطة الكافية لتسيق وتوسيع العلاقات الاقتصادية بين الدول المصنعة والنامية، ومنها العجز المالي المزمع الذي لا يتجاوز المائتي مليون دولار .

وقلت لا يتجاوز المائتي مليون دولار لأن هذا المبلغ وإن كان مهماً بالنسبة للمنظمة الدولية فهو مبلغ زهيد بالنسبة لعدد الأعضاء وخاصة للدول الكبيرة أنه يعادل المبلغ التي تصرفه الولايات المتحدة يومياً في فيتنام لتقتيل الأبرياء، وتدمير المنازل بل إن إدارة المطافئ في مدينة نيويورك تكلف أكثر من مائتي مليون دولار سنوياً.

والواقع أن الشيء الذي يمنع بعض الدول الكبرى من مساعدة المنظمة الدولية هو أنهم لم يصبحوا قادرين على استغلالها لتحقيق أهدافهم ومصالحهم؛ لقد كانت الولايات المتحدة مثلاً تدفع بسخاء عندما كانت تتمتع بأغلبية الأصوات لقد كانت في الخمسينات مثلاً تحقق كثيراً من مطامحها السياسية بواسطة المنظمة أما اليوم وقد ازداد عدد الدول المتحررة وأصبح من الصعب على واشنطن أن تسيطر على الأمم المتحدة، فقد أبدت عزمها على تخفيض حصة مشاركتها

المالية السنوية من واحد وثلاثين بالمائة من ميزانية المنظمة إلى خمسة وعشرين بالمائة.

لقد قيل بأن السياسة هي محاولة حمل الناس على أن يفكروا
مثلك ويعملوا ما يرضيك، وهذا هو لسان حال بعض الدول الكبيرة
التي ما زالت تسعى سواء بواسطة الأمم المتحدة أو غيرها من
المنظمات الدولية إلى فرض إرادتها بالمناورات السياسية والطرق
الملتوية على الدول النامية دول العالم الثالث والدول الصغيرة.

25/10/1972

المشاعر والصحة



إن عددًا كبيرًا من الناس لا يعرفون إلا القليل عن مدى تأثير المشاعر الضارة على الجسد. ويؤكد الأطباء أن الظروف العاطفية التي يمر بها الإنسان تترك أثرًا في حياته، سطحيًا كان هذا الأثر أم عميقًا، تبعًا لنوع الانفعالات وقوتها. فإذا أخذنا كمثال للتوضيح عاطفة الخوف مثلًا (وهي من العواطف الضارة) فإننا نلاحظ على الإنسان الخائف ظواهر الارتجاف، اتساع العينين، قبض اليدين، توتر في العضلات... كما يحدث تغيير في التفاعلات الكيميائية داخل جسمه فتزيد بعض الغدد في الإفراز، ويرتفع ضغط الدم، وتزداد دقات القلب إلى غير ذلك. ويسبب هذا التغيير البيولوجي الداخلي كثيرًا من المتاعب والآلام، إذا تكررت مثل هذه العواطف الضارة ولازمت الإنسان. وحتى عندما لا تلحق بالجسم ضررًا مباشرًا، فإنها (الانفعالات) تجعله أكثر تعرضًا للأمراض، بإضعاف وسائل الدفاع ومضاعفة توتره العصبى. وهذا مما يزيد في حساسية المصاب ويجعله عرضة للقلق والوسواس فيقل نومه وتزيد متاعبه .

ألم يحدث أن شاهدنا كيف تغيرت وساءت صحة أشخاص تحت ضغط ظروف قاسية، فظهرت عليهم علامات الضعف والشيخوخة والعجز قبل الآوان، لأنهم استسلموا للحزن واليأس، ولم يستطيعوا أن

يتغلبوا على المشاكل ولا أن يجابهوا الحياة بعد النكبة بصبر وعزم،
فغلبوا على أمرهم وأنهكت الهموم قواهم .

وإذا كانت التغيرات البيولوجية المشار إليها تؤثر بصفة مباشرة
على توازن العمليات التي تجرى داخل الجسم، فينتج عن ذلك خلل في
نظام الجسم ، فإنه لا يخفي ما يلحق هذا الخلل إن دام بقاءه من ضرر
بالصحة. فالمشاعر السلبية تتعب الفكر وتحدث توتراً عصبياً يجعل
صاحبه يشعر بالإعياء والهياج والألم وعدم الكفاءة، وهي تزيد من
شعوره بالخيبة، وكل ذلك يؤثر في الجهاز الهضمي بأن يدفع بمقدار
من الدم في اتجاه آخر مثلاً، فلا يصل منه المقدار الكافي للمعدة، أو
بأن يؤثر في عمليات الهضم الأخرى من امتصاص وإفراز وغيره.

ويمكن القول بأن قوة تأثير العواطف الضارة تختلف من شخص
لآخر، فلو أخذنا ظروف الامتحانات وما يصحبها من أنواع المشاعر
عند الطلاب مثل: شك في النجاح، خوف من السقوط، انتظار النتائج،
غموض، قلق، فإننا نجد تأثير هذه المشاعر السلبية يختلف من طالب
لآخر، وذلك تبعاً لما يتمتع به كل من العادات الإيجابية والمزاج السليم.
فالثقة بالنفس والأمل والشجاعة والإيمان تساعد بعض الطلاب على
اجتياز فترة الامتحانات، سواء نجحوا أم سقطوا، بدون الشعور بالتوتر
والأرق وقضم الأظافر وأخذ المسكنات.

وإذا أخذنا كمثال للتدليل على مدى تأثير العوامل النفسية على
صحة الإنسان رجلاً ظلم وانتزع منه حقه ولم يستطع الدفاع عن نفسه،
ولم ينس أو يصفح بل استولت عليه عاطفة حب الانتقام والحقد ،

ذكريات وبصمات —

وعاش زمنًا طويلًا يَتَحَيَّنُ الفرصة للإيقاع بمن ظلمه فعاش في ارتباك وخيبة الأمل ، فإن هذا الرجل سيدفع عاجلاً أم آجلاً ثمنًا باهظًا من صحته وهدوئه إذا استمرت هذه الإحساسات السيئة تغمره وتقلق حياته.

ويقول الأطباء إن 90% من أحوال الشعور بالغازات في الأمعاء راجع إلى عوامل نفسية . ألم تشعر يوماً بعد غضب شديد بجفاف الفم؟ بل هناك من تصبح رائحة فمه كريهة نتيجة الغضب والجفاف أو كثرة الجدل المثير والمناقشة المزعجة.

ولماذا يصعب الهضم عندما يؤخذ الطعام في ظروف مؤلمة من حزن أو خصام أو أي توتر عاطفي؟ وما ظاهرة إفراز اللعاب عندما نشاهد الطعام بل وعندما نشم رائحته أو نفكر فيه؟ ولذلك كانت الكيفية التي يقدم بها الطعام من الأهمية في التأثير على الشهية والهضم، لا تقل عن طريقة إعداده.

ويكثر في بعض البلدان ما يدعى بـ «غداء الأعمال» يلتقي فيه شخصان أو أكثر لعقد صفقة أو حل مشكلة أو التحقيق وجمع المعلومات إلى غير ذلك. ويسود هذا الغداء عادة جو يشغل الفكر عن الاستلذاذ بالطعام أو حتى عن التفكير فيه. وإذا كان ذلك مفيداً فيما يتعلق بالأشغال والنشاط المهني، فإنه من الناحية الصحية غير مستحب لأن الشخص ينبغي أن يكون مرحاً، مسترخياً، بعيداً عن جو المناقشات والمعاملات والصفقات والتقارير عند أوقات الأكل. ولكن الناس قد تعودوا فأصبح وقت الغداء فرصة تستغل للاتصالات ومزيد من الأعمال.

وكما أن الإحساسات والمشاعر الضارة تحدث خللاً في توازن عمليات الجسم من مقاومة وإفراز وهضم، فإن المشاعر الإيجابية اللطيفة تحسن الحالة الصحية وتساعد الأعضاء على أداء مهماتها الحيوية. وإذا فكرنا في القول السائر «العقل السليم في الجسم السليم» وجدنا أن العكس صحيح وأن الجسم الصحيح مع العقل السليم. تظهر حالة الإنسان النفسية، صحيحة كانت أم عليلية في طبعه وسيرته وأخلاقه، تماماً كما تبدو حالته الصحية في بنية جسمه. والتأثير لا ريب متبادل بين الصحة والمزاج وبين العقل والجسد.

لقد عرفت أناساً لا يأكلون لمدة يومين أو ثلاثة بعد ثورة غضب، بل منهم من إذا جاءه خبر بالسفر يذهب نومه وتقل شهيته، ومن يتأثر كذلك بمشهد أليم أو قصة مثيرة فتمتلئ عيناه بالدموع ويسوده جو من الكآبة. ومن المؤكد أن أنواعاً من الأمراض الجسدية مثل القرحة وأوجاع الرأس وبعض الأمراض الجلدية والقلبية إلى غير ذلك تكثر نسبتها عند من يستمر شعورهم بالخيبة وتطول همومهم وتبرمهم بالحياة. ومن قبيل التأثير المتبادل أيضاً أننا نشاهد أناساً ينقص وزنهم أو يبيض شعرهم تحت تأثير أنواع من المشاكل النفسية .

يحكى أن شجرة ضخمة ظلت تجابه الأعاصير والرطوبة ولم يثن لها غصناً ثقل الثلوج، لفترة تزيد على مائة عام. وذات يوم، أحاطت بها أنواع من الحشرات، فراحت تحفرها وتآكل من داخلها رويداً، حتى أضعفتها وقضت على نضرتها. وما الحسد والخوف والحزن والقلق والانزعاج وحب الانتقام وغير ذلك من قائمة العواطف الضارة إلا

ذكريات وبصمات —

حشرات ومكروبات تأكل باطن الإنسان وتتهك أجهزته الحيوية وتقضي على شبابه ونشاطه. فهل يبدو الآن جلياً مدى الضرر الذي يلحقه الفرد بنفسه عندما يتعود على عادات سيئة ويسمح للانفعالات الخبيثة بالسيطرة عليه؟ وهل يمكننا أن نتصور الآن ما يمكن أن تحدثه من ضرر وخلل تلك الإفرازات الكيميائية داخل الجسم إذا استمرت طويلاً؟

ويحضرني هنا، بمناسبة ذكر الحزن، ما يحكى عن رجل كان له ابنة يحبها حباً جماً، لأنه لم يرزق سواها. ومرضت الفتاة الصغيرة طويلاً، أحضر الأب لها عدداً كبيراً من الأطباء، ولكن الفتاة العزيزة ماتت، فغلب الحزن على أبيها، وأصبح منعزلاً كثير البكاء. وذات ليلة رأى في منامه أنه في الجنة وشهد استعراضاً كبيراً للفتيات الصغيرات، وكانت كل منهن تحمل شمعة مضاءة، والأب يحدق لعله يرى فتاته، وبينما هو كذلك شاهد فتاة تحمل شمعة منطفئة فاقترب منها وإذا هي ابنته فاحتضنها وقبلها باكياً وسألها عن سبب انطفاء شمعتها. أجابت الفتاة «يا أبتى إنه كلما أشعلتها الملائكة أطفأتها دموعك» .

ومن قبيل تأثير العاطفة السلبية على الصحة ما يشير إليه المثل العامي القائل «نظرة العدو تقلل البصر». بل إن رؤية العدو تفعل أكثر من ذلك إذا كانت نفس الناظر تجيش بالحقد وتحترق برغبة في الانتقام. إنك لا تجني من الشوك العنب، ولا من الهم الصحة والطمأنينة. وإذا تعود امرؤ على عادات هدامة مثل الانتقاد والخجل والانطواء والتشاؤم وغير ذلك من العادات التي لا تقل ضرراً بالصحة من عادات السكر والتدخين، فإنه من الصعب على الطبيب أو على

أقربائه وأصدقائه أن ينقذوه، أو يقدموا له يد المساعدة إلا إذا شارك هو في العمل على إنقاذ نفسه .

ومما يسبب الكثير من المتاعب ما يشعر به بعض الناس من صراع نفسي داخلي بين جزئين من شخصية واحدة، جزء يمثل النزعات الخيرة الصالحة من سماحة وكرم ومحبة ولطافة وعطف، والآخر يمثل النزعات الشريرة من عدوان وسيطرة وكراهية وأنانية... ويمكن وصف النزاع بين القسمين بأنه أشد من الحرب الباردة، لأن الصراع يحدث داخل جسم واحد فينهكه ويسلبه الراحة والهناء.

ولا مناص للخروج من هذا المأزق إلا أن يعيد الإنسان تربية نفسه فيتعلم عادات صالحة ويراقب أفعاله ويساعد ما فيه من خير وقوى إيجابية على طرد الشكوك والشرور التي يمثلها الجزء السلبي من شخصيته.

ولا ينبغي للمرء أن يستسلم للإحباطات الانهزامية، ولا أن ينظر للفشل الذي يمني به أكثر من أنه خطوة أو محاولة لا بد منها لتعلم الطريقة الصحيحة والوصول للهدف المنشود. ومما يؤسف له أن كثيراً من الناس يسمحون لصورة غلطة ما ارتكبوها أن تبقى عالقة بأذهانهم، أو لذكري انهزام ما أن يبقى عالقاً بمخيلتهم. وتكون النتيجة سيئة عندما يتحول ذلك إلى شعور بعدم الثقة بالنفس ويصبح عائقاً لهم عن الإقدام على مشاريع، أو القيام بأعمال وتعلم أشياء جديدة إلى غير ذلك. ومن قبيل العمل على محو صورة الفشل ما يحكى من أن الطيار عندما تختل طائرته أو تحترق في الجو فإنه يؤمر أن يطير فور نزوله

ذكريات وبصمات

سالمًا من الطائفة المحطمة. ويمكننا أن نعمم هذه القاعدة مع الطفل الذي تعلم السباحة، ثم ارتكب غلطة في سباحته، أو الطفل الذي أصبح يخاف من الظلام لأنه ترك وحده في غرفة مظلمة، وكذلك الحال عند تعلم القيادة أو فنون الرياضة أو القيام بتجارب في المخبر أو تعلم مهنة ما... والمقصود هو أن لا يفسح المجال للفرد أن يركز تفكيره على فشله. فالتفكير في الشر شر وتأمل العيب عيب، كما قيل.

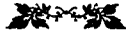
فالإنسان وحدة متكاملة وعالم في حد ذاته مزود بالقوة التي تساعد على التغلب على الضعف والمرض، شريطة أن يؤدي الجسم والعقل واجباتهما على أكمل وجه، وأن ينسجم الفكر والخيال ويتعاونوا على الخير. هذه القوة الحيوية الكامنة في الإنسان هي التي تسهر على أن تقوم مختلف أعضاء الجسم بوظائفها بصفة منتظمة، وهي التي تجعل الجرح يندمل وتوقظ وسائل الدفاع عند الشعور بالخطر. وعندما يحدث خلل يجعل هذه القوة عاجزة أو مقصرة على القيام بدورها تظهر على الجسم إشارات الخطر من حمى وصداع وإغماء، منذرة صاحبها بالانتباه مثلما يفعل السائق عندما يرى الضوء الأحمر في الطريق. وعندئذ يأتي دور المعالجة الذي يهدف إلى تنشيط دفاع الجسم سواء بالراحة أو الأدوية أو غير ذلك.

وقد أكد الأطباء أن الشخص الذي تجرى له عملية جراحية أو يدخل المستشفى للمعالجة تتماثل حاله وتبرأ جروحه في وقت أقصر، وتكون مقاومته للمضاعفات أقوى، إذا كان من الذين امتلأت نفوسهم بالإيمان وقلوبهم بالابتهاج والرضى والانشراح، وكانوا ذوى مزاج متفائل

وروح مفعمة بالخير والأمل. وكأنَّ رغبة المريض في النهوض من سريرته، واعتقاده بأنه سيشفى يشجع تلك القوة الحيوية ويدفعها للعمل على تحقيق ما يرغب فيه ويؤمن به. وهذا يزيدنا وضوحاً وتأكيداً للدور الذي يلعبه التفكير الإيجابي والعواطف المهدبة والعادات الحسنة في تسيير نشاط الإنسان ومدى تأثيرها في صحته وتوازنه.

وإذا ساءت حالة الإنسان النفسية فإنه تسوء علاقته مع نفسه. وماذا نتوقع أن يحدث في علاقاته مع أفراد عائلته، وزملائه في العمل ورفاقه في الشارع، إنَّ عواطفنا السلبية تكلفنا غالياً. ولا أدل على ذلك مما نشاهد في المستشفيات من مرضى هم ضحايا التوتر العصبي، وما يسود كثيراً من العائلات من جو مليئ بالخصام والانتقاد وسوء التفاهم. وقد هدم الشقاء أركان عدد من العائلات لأسباب تافهة كان يمكن تجنبها لو ساعدت التربية على خلق سلوك ناضج. ولا ينبغي أن ننسى ما يدفعه المجتمع من جراء ذلك لأن العلاقات الاجتماعية المثمرة لا يمكن أن تنمو إلا في جوٍّ من الانسجام والتفاهم والتعاون.

الولايات المتحدة والمجموعة الاقتصادية الأوروبية



ما زالت منذ القديم فكرة توحيد أوروبا تراود الملوك والزعماء، وقد استعملوا القوة تارة والشعارات الدينية حيناً، والأمجاد الإمبراطورية طوراً، وكان آخر من حاول توحيد أوروبا بالقوة هو هتلر.

وبعد الحرب العالمية الثانية انقسمت أوروبا إلى شرقية وغربية، شيوعية ورأسمالية، انقساماً أيديولوجياً، وساد الاعتقاد آنئذ في الولايات المتحدة بأن الطريقة الوحيدة لمنع أوروبا الغربية من الوقوع تحت السيطرة الشيوعية هو أن تتدخل واشنطن وتساعد على بناء «أوروبا قوية اقتصادياً».

وكان رأي الأمريكان أيضاً أن القوميات المختلفة في أوروبا: القومية الفرنسية، والإيطالية، والألمانية خاصة، قد أفلست وأن مقاومتها لنفوذ الأحزاب الشيوعية المتزايد قد ضعف، ولذلك اعتقدت الولايات المتحدة أن إنعاش فكرة الوحدة الأوروبية، ولو تحت شعارات مختلفة قد تخلق يقظة وحماساً عاطفياً في نفوس الأوروبيين.

ولكي تتجنب أمريكا إثارة مختلف القوميات ضد محاولاتها لتوحيد الجهود الأوروبية ضد «الخطر الشيوعي» عملت على تقديم



————— بحوث ومقالات من فضاء السبعينات —————

مساعيها في إطار بناء أوروبا الغربية اقتصادياً وإنشاء منظمات بين دولها لزيادة الإنتاج والاستهلاك وتنشيط التبادل والتنمية.

وهكذا بينما فشل أولئك الذين حاولوا توحيد أوروبا بالقوة، ساد الأمل بعد الحرب العالمية الثانية، بأن الاستراتيجية الجديدة المبنية على المصالح الاقتصادية، قد تأتي بنتيجة إيجابية.

وقد أصبح من الواضح اليوم أن أوروبا الغربية قد تقدمت تقدماً محسوساً وسريعاً، بل يذهب بعض الزعماء الأمريكيين إلى القول بأن نجاح أوروبا الاقتصادي تجاوز ما كان يتوقع، وأصبح يشكل خطراً على المصالح الأمريكية.

ولا بد من الإشارة أولاً إلى أن موقف المسؤولين الأمريكيين تجاه المجموعة الاقتصادية الأوروبية غير موحد، فمنهم من يعتبر السوق الأوروبية المشتركة الأسمت الذي يوحد ويقوى صفوف الدول الغربية ضد التأثير الشيوعي، ومنهم من يركز على التنافس بين المصالح الاقتصادية والتجارية الأمريكية، وبين السوق الأوروبية.

فهؤلاء ينظرون إلى كون المجموعة الاقتصادية الأوروبية تزيد من تركيز قوتها بواسطة توحيد الرسوم الجمركية، وتوسيع شبكات أنظمتها التجارية الخاصة مع دول أفريقية وآسيوية وأوروبية، فهذه القوة التجارية الجبارة لابد أن يكون لها تأثير على مركز أمريكا في ميدان التجارة الدولية.

ومن جهة أخرى فإن السياسة الأمريكية تجاه الاتحاد السوفياتي والدول الشرقية، قد أثرت على الوضع في أوروبا الغربية، فمحاولات

— مقتطفات من سلسلة عالم الثقافة —

نيكسون لخلق جو من التعاون مع موسكو ويكين، والتخفيف من الحرب الباردة، غيرت من نظرة الدول الغربية إلى قضية «التهديد الشيوعي» والضمام العسكري الأمريكي ضد هذا التهديد المزعوم، ومعنى هذا أنهم في علاقاتهم ومعاملاتهم مع الدول الشرقية، أصبحوا هم الآخرون، يركزون على المصالح الاقتصادية والتجارية، مع ما يصاحب ذلك من التقارب السياسي.

إذن تناقص في نظر الغرب تهديد الخطر الشيوعي، وتلاه تناقص في اهتمام الدول الغربية بالضمائنات العسكرية الأمريكية، وكانت نتيجة ذلك محاولات لتحسين العلاقات بين الشرق والغرب من جهة، وكذلك ظهرت بوادر منافسات بين الدول الغربية في مجالات استقلال الأسواق الجديدة.

ويجدر بنا الآن أن نجري مقارنة سريعة بين كتلة المجموعة الاقتصادية الأوروبية، بعد انضمام بريطانيا والدانمارك، وأيرلندا، وبين الولايات المتحدة من الناحية الاقتصادية.

إن المجموعة الأوروبية الاقتصادية قوة تساوي، وفي بعض الأحيان تتجاوز، قوة الولايات المتحدة، فعدد سكان الأولى 254 مليون، والثانية 205 مليون نسمة، وبلغ الإنتاج القومي للمجموعة في عام 1971 - 695 مليار دولار، بينما بلغ الإنتاج القومي لأمريكا في نفس السنة ألف وخمسين مليار دولار، أما في المجال التجاري فقد بلغت حصة السوق الأوروبية المشتركة من الصادرات العالمية 28%، وحصة أمريكا 17%، وكانت حصة الأولى من الواردات العالمية 24% وحصة الثانية 16.5%.

بحوث ومقالات من فضاء السبعينات —————

ومن ناحية أخرى نجد أن الولايات المتحدة تتمتع بمركز أغنى فيما يتعلق بالموارد الطبيعية، فمساحتها تغطي ثلاث ملايين وأربعة وخمسين ألف ميل مربع. وزيادة على هذا فإن الأراضي الأمريكية (أربعة أضعاف) أغنى من أراضي المجموعة الأوروبية في مصادر الطاقة الأساسية من نפט وفحم وغاز وكهرباء، ولكن كلاهما يخشى وقوع أزمة طاقة في بلاده، مما سيخلق نوعاً من التنافس بينهما على مصادر الطاقة في العالم، وما زالت أمريكا تتمتع بقصب السبق في ميادين أخرى مثل الأقمار الصناعية والأدمغة الإلكترونية وإنتاج الطائرات.

ستشكل مجموعة الدول الأوروبية منطقة للتجارة الحرة، تضم ستة عشر دولة هي الدول التسع الأعضاء في السوق الأوروبية، والدول السبع التي كانت أعضاء في المنظمة الأوروبية للتجارة الحرة. وإذا أمكن القول بأن الدول تتنافس مثلما تنافس الفرق الرياضية، فإن أمريكا ستجد اقتصاداً قوياً في السوق الأوروبية وخاصة في شكلها الجديد.

وتشير الإحصائيات إلى أن أوروبا الغربية (باستثناء بريطانيا) تتقدم بسرعة كبيرة وأنها تتمتع بزائد في تجارتها الخارجية، بينما ما زالت أمريكا تعاني عجزاً كبيراً في ميزانيتها، صحيح أن سعر الدولار المرتفع لعب دوراً كبيراً في تكوين هذا العجز، وقد ظلت الدولارات تصدر عبر المحيط بكميات كبيرة إلى أن قام نيكسون باتخاذ إجراءات مالية مشددة تجاه الدول الأوروبية.

كما بدأت واشنطن تتقدم السياسة الزراعية لدول السوق

المشتركة، وتلوم المسؤولين عن هذه السياسة «لتحاملهم» ضد المنتجات الزراعية الأمريكية، غير أن الدول الأوروبية بدورها تشكو من التمييز الذي تفرضه أمريكا ضد بعض صادراتها مثل منتجات الألبان والسكر واللحوم، كما تتذمر من الرسوم الجمركية التي تفرضها واشنطن على المواد الكيماوية التي تصدرها أوروبا والمواد الأخرى مثل القماش والأحذية والصلب وغير ذلك. وتخشى إدارة نيكسون من سعي دول السوق المشتركة إلى بسط نفوذها التجاري على مساحات واسعة خارج منطقة الدول التسع مثل منطقة التجارة الحرة والتي يزعم تكوينها والتي ستضم ستة عشر دولة، ومن المعلوم أن سبع دول أوروبية لم ترغب في الانضمام التام إلى السوق المشتركة، ما زالت تفضل الالتحاق بالمجموعة من الناحية الاقتصادية فقط، لا السياسية، فهذه الدول السبع ستضم إلى دول السوق المشتركة التسع لتكوين منطقة التجارة الحرة.

فإذا أضفنا إلى هذا مختلف الاتفاقيات التجارية التي عقدها دول السوق المشتركة مع عدد من دول البحر المتوسط وأفريقيا والشرق الأوسط ندرك ما تعني إدارة نيكسون من اتهامها مجموعة السوق بتوسيع نفوذها.

ولكن كثيرًا من المسؤولين، ينظرون إلى هذه المناوشات المالية والتجارية بين أمريكا وأوروبا بأنها سطحية، ويفضلون أن يتحدثوا عن أوروبا وأمريكا كمجموعتين تتم الواحدة الأخرى، وهما فعلاً تتمتعان بتقاليد سياسية مشابهة ولهما حضارة متقاربة، وما زالت الأفكار الثقافية، والاجتماعية والعلمية والسياسية تربطهما في ميادين واسعة،

بحوث ومقالات من فضاء السبعينات —————

وقد تكون كل هذه العلاقات أهم وأدوم في المستقبل من التبادل التجاري وما قد يصاحبه من تنافس.

ويقول هؤلاء المسؤولون أن أوروبا تتوسع وتنمو ولكن ذلك سيجعلها سوقاً أكبر للمنتوجات الأمريكية وأنه قد ثبت أن ضعف أوروبا وانهازاتها ليس في مصلحة أمريكا، وفعلاً فقد استوردت السوق الأوروبية المشتركة في عام 1971، مبلغاً قدره أحد عشر ملياراً ومائتي مليون دولار من مجموع الصادرات الأمريكية، وهذا يمثل 25% من تجارة أمريكا الخارجية، كما أن الولايات المتحدة استوردت عشرة ملايين ونصف مليون دولار (23%) من مجموع الواردات الأمريكية.

والخلاصة هي أنه لا يجوز أن نتجاهل المشاكل المعلقة بين أوروبا الغربية وأمريكا، وقد خلقت هذه المشاكل والخلافات جواً من التنافر، وشجعت كثيراً من الأوروبيين على أن يطالبوا حكوماتهم بطرد النفوذ الأمريكي والقضاء على سيطرتهم في أوروبا.

ومن هذه المشاكل الحدود الجمركية، الحماية الزراعية، الإخلال بالسوق العالمية، الخلاف حول نظام النقد الدولي، حول دور الدولار في هذا النظام، الخلاف حول مصير المبالغ الضخمة من الدولارات الموجودة في بنوك الدول الأوروبية، رغبة الأوروبيين في تحديد تدفق رؤوس الأموال الأمريكية، ورغبتهم أيضاً في جعل قيمة تبادل العملات ثابتة بينما تفضل واشنطن أن تبقى متأرجحة كل ذلك مصحوب بتبادل ملحوظ في ظروف العلاقات الدولية، وانخفاض أهمية الأحلاف العسكرية ومنها الحلف الأطلسي، بسبب الانفراج في أوروبا، ولا يخفى

— مقتطفات من سلسلة عالم الثقافة —

تزايد الشعور في أوروبا ضد الغزو الأمريكي للصناعة هناك وعدم
رضى كثير من الدول على السياسة الأمريكية في فيتنام، كما نلاحظ
على الطرف الثاني من الأطلسي، شعور بعض الأمريكان بخيبة الأمل
من رد فعل أوروبا الغربية، وهم يقولون إن دول أوروبا الغربية تقطع
اليد التي أطعمتها بعد الحرب العالمية الثانية ويشيرون إلى أن أمريكا
تحملت وما زالت تتحمل تكاليف الدفاع عن أوروبا منذ الحرب.

وهذا ما يجعل السنوات القادمة مهمة بالنسبة لمستقبل العلاقات
بين أمريكا وأوروبا الغربية، ويصح القول أنه في المستقبل القريب على
الأقل لا يمكن لأوروبا الغربية أن تستغني بصفة نهائية على الضمانات
العسكرية الأمريكية وأن أمريكا من جهتها ليست في طريق الانحدار
نحو سياسة انعزالية.

23/01/73



كلمات تنعش الحياة
الشعر و الحياة
حصاد الأيام
الانسان و القلق
نفحات من الأدب العالمي
الرحلة

منارات في رحاب الأدب العالمي
قلائد الذهب في الحكمة و الأدب
أضواء على مسرح الحياة
المختصر المفيد
الحكم و المواعظ على ألسنة الحيوانات
بحوث و مقالات من فضاء السبعينات

ذكريات و بصمات

(نبذة عن مسيرة الأستاذ الأزرق بن علو)